قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . سورة يوسف

297.44
F47a3H
v.1-2
c.1

أحسن القصص

لواضعه

السيد

علي فكري

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

الجزء الأول

يشمل قصص الانبياء

عدا أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام

[الطبعة الثالثة ١٣٦٩ هـ — ١٩٤٩ م]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

Cat. 9 Mar. '53

الاهداء

إلى الأرواح الطاهرة ، والنفوس العالية والمكانة الغالية
إلى أرواح الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين
أهدى كتابى هـذا ، وأسأل الله الكبير المتعال أن يوفقنا للعمل بسنتهم ،
وأن يحيينا ويميتنا على ملتهم ، إنه سميع مجيب الدعاء

السيد
على فكرى
ابن المرحوم السيد محمد عبد الله
الحكيم

مصر الجديدة فى يوم الاثنين
١١ رجب سنة ١٣٥٢
٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٣

مقدمة الطبعة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

، وبه ثقتى ، وعليه توكلى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد فإن أحسن القصص ما كان مرويًا عن الأنبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين ، وأئمة الدين والصالحين ، لقوله تعالى :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ سورة يوسف

ولقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

سورة يوسف

ولقوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

سورة هود

ولما كانت القصص والروايات المنتشرة الآن فى مصر بعضها مخالف

للأدب والدين ، مفسد لأخلاق البنات والبنين ، لاشتمالها على حكايات خرافية ، وأحاديث غرامية .

قد دفعتنى الغيرة الدينية الإسلامية ، والعاطفة الوطنية المصرية والمحبة الإنسانية ، إلى أن أضع كتاباً صغيراً فى القصص الدينية ، التى تحث على الفضائل ، وتنهى عن الرذائل .

فقمت بمعونة الله وفضله بوضع هذا الكتاب وسميته (أحسن القصص) ليكون اسمه دليلاً عليه ، وقسمته إلى خمسة أجزاء :

الجزء الأول والثانى : يشملان مختصر قصص الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) كما ذكرت فى القرآن الكريم وعددهم ٢٥ (الواجب على كل مسلم معرفتهم ، وأن يلم بقصصهم ، وأن يؤمن بهم)

الجزء الثالث : يشمل مختصر سير الخلفاء الراشدين (رضوان الله عليهم أجمعين) ومناقبهم الهادية إلى مكارم الأخلاق ، وفضائل الأعمال

الجزء الرابع : يشمل مختصر سير أئمة الدين والصالحين ، الذين بينوا قواعد الدين ، وأقاموا البراهين ، على أساس متين ، للأخذ بإرشاداتهم ، والاهتداء بنورهم ، للفوز بالسعادتين فى الدارين

الجزء الخامس : يشمل مختصر سير أمهات المسلمين ، وبعض الشهيرات ، من النساء المسلمات ، ليكون فى ذكرهن أحسن أسوة وقدوة للنساء والبنات

وقد توخيت فيه سهولة العبارة ، وحسن الأسلوب ، ليكون سهل

الفهم ، مناسباً لمدارك الطلاب ، وذلك إجابة لطلب حضرة أخينا عبد العزيز أفندى الحلبى [١] .

والله تعالى أسأل أن يكون لهذا الكتاب ما أرجوه من الأثر الطيّب فى نفوس أبناء الأمة الإسلامية فيعملوا بما فيه ، والله الموفق لما فيه صلاح الحال و بلوغ الآمال

و إنى لا أريد إلاَّ الأصلاح ما استطعت ، وهو حسبى وكفى ما؟

مصر الحديدة

فى غرة ربيع الأول سنة ١٣٥٢ — السير

٢٤ يونيه سنة ١٩٣٣ — على فكرى

الأمين الأول

لدار الكتب المصرية

---

(١) قد توفى هذا الأخ الفاضل رحمه الله فى يوم الخميس ٢ مارس سنة ١٩٣٩ .

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله .

أما بعـد ـ فبعون الله قد نفدت الطبعة الأولى من كتابنا :

(أحسن القصص ـ الجزء الأول) المشتمل على قصص الأنبياء المذكورين به ، مقتبسة من كتاب الله العزيز، بطريقة مختصرة مفيدة وأسلوب رائع حكيم ، فى أنباء محبوكة الحوادث جامعة لعناصر القصة .

وهى سير ذات مواعظ وعبر وسمر ، ومفتاح لحفظ القرآن الكريم ونقدمه اليوم إلى الطبعة الثانيـة بمطبعة عيسى الباب الحلبى وشركاه إجابة لطلبهم .

ولا نريد الاطناب، فى بيان منفعة هـذا الكتاب ، ففيه ما يغنى عن الكتب المطولة ، ويسهل للآباء والأبناء ، معرفة تاريخ الرُّسل والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ودعوتهم إلى توحيد الله عز وجل وعبادته و إطاعته .

وفى إعادة طبعه للمرة الثانية دليل كاف على أهميته ، وجليل فائدته .

وختاماً نسأل الله أن يزيد فى قبوله وانتشاره ، حتى يعم نفعه أبناء الأمة الإسلامية إنه سميع مجيب ؟

السيد

على فكرى

مصر الجديدة

فى ١٢ المحرم سنة ١٣٥٩

٢٠ فبراير سنة ١٩٤٠

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على نعمائه ، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه

أما بعد ، فقد نفدت ـ ولله الحمد ـ الطبعة الثانية من هذا الجزء ونقدمه اليوم لإعادة طبعه للمرة الثالثة ؛ رافعين أكفّ الضراعة للمولى سبحانه وتعالى بأن يزيد فى قبوله وانتشاره ليزداد الانتفاع به فى العالم الإسلامى وليكون دستوراً لهداية أبناء الأمة الإسلامية لتوحيد الله وحسن عبادته والاقتداء برسله فى مكارم الأخلاق وجميل الفعال

والله الموفق لما فيه الخير والصواب إنه السميع المجيب

السيد

على فكرى

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

العباسية ـ ١٢ شارع السرايات

١ صفر سنة ١٣٦٩

٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٩

كلمة إجمالية
عن الرسل والأنبياء
(صلوات الله عليهم أجمعين)

اعلم يابُنى : أن الله جلت قدرته ، وعلت كلمته ، خلق الخلق وجعل فى بعضهم أخلاقاً حسنةً تساعدهم على انتظام معاشهم ، وصلاح حالهم ، ليتسابقوا فى عمارة هذا الكون كما أنه جعل فى البعض الآخر أخلاقاً سيئه ليتميز الطيب من الخبيث ، والمحسن من المسىء

وقد اقتضت رحمة الله بعباده أن يرسل لهم أناساً منهم تخلقوا بالأخلاق الفاضلة ، واتصفوا بالصفات الكاملة ، ليهدوهم و يرشدوهم إلى مافيه صلاحهم ، وتقويم أخلاقهم ، وتهذيب نفوسهم ، وليبينوا لهم الخير لاتباعه ، والشرّ لاجتنابه ، وهؤلاء هم الرُّسل والأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) ١ ـ ٢

وقد جعلهم الله بشراً من جنسهم لينتفع بعضهم ببعض فى المخاطبات ولم يجعلهم ملائكةً لعدم إمكان رؤيتهم ومخالطتهم ومخاطبتهم ، فلا تحصل الفائدة المقصودة من إرسالهم

ولقد امتنّ الله بهذه الرحمة والنعمة على عباده فقال تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ

---

١ ـ الرسول رجل حر عاقل أوحى اليه بشرع مجدد يعمل به ويبلغه للناس

٢ ـ النبي من بعثه الله بشرع يعمل به ، ولو لم يؤمر بتبليغه .

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ آل عمران .

وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام وهى : أنهم يبشرون ، من صدقهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى وعمل به ، بالجنة والثواب ، والتنعم بالنعيم المقيم ، وينذرون من كذبهم وعصاهم فى ذلك ، بالنار والعذاب الأليم ، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ الكهف .

وقد بيَّن الله الحكمة من إرسالهم عليهم الصلاة والسلام ، وهى أن يبشروا الناس وينذروهم ، لئلا يكون لهؤلاء الناس حجةً ومعذرةً يعتذرون بها بعد إرسال الرسل وتبليغ الشرائع ، قال تعالى :

﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ النساء .

وقد أرسل الله هؤلاء الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام) بالآيات البينات ، وأنزل معهم الكتب المبينة فيها الأحكام والمأمورين هم بتبليغها للناس ، ليكونوا على أكمل حالات العدل والإنصاف فيما بينهم ، ويتبعوا هؤلاء الرسل فيما أخبروا به ، ويطيعوهم فيما أمروهم به ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ الحديد .

وقد أيدهم الله بالمعجزات ، التى هى من خوارق العادات ، وفوق مقدور البشر ، وميّزهم بصفات سامية كريمة وهى : الأمانة فيما كلفوا به والطاعة لله ، والصدق فى كلّ ما أخبروا به عن الله تعالى ، والعصمة من الوقوع فى أى معصية صغيرة كانت أو كبيرة ليكونوا قدوةً حسنةً ، ونبراساً لهداية الناس كافة .

وقد بيّن جلّ شأنه من اصطفاه من هؤلاء الرسل وميّزه عن غيره منهم بعظم قدره ، وعلو مرتبته ، وأوجب الشرع معرفتهم وهم خمسة وعشرون ذكر الله منهم ثمانية عشر فى هذه الآية وهى :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الأنعام .

وقد بقى سبعة وهم : آدم . وهود . وشعيب . وصالح . وإدريس . وذو الكفل . وسيدنا (محمد صلى الله عليه وسلم) .

أما آدم ، فقد ذكر فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ البقرة

وأما هود ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ هود .

وأما شعيب ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ هود .

وأما صالح ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ هود .

وأما إدريس ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴾ مريم .

وأما ذو الكفل ، ففى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ ص .

وأما سيدنا ومولانا محمد (صلى الله عليه وسلم) ففى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ آل عمران . وقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح .

فهؤلاء هم الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام) الواجب على كل إنسان معرفتهم ، وأن يلم بقصصهم ، لقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوسف .

وأن يؤمن بهم ؛ لأن الله تعالى جعل من كمال الإيمان الإيمان بهم جميعاً ، وألا يفرق بين أحد منهم ، فيؤمن ببعض ، ويكفر ببعض ، لقوله تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ البقرة .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ النساء .

وأولو العزم من هؤلاء الرسل ، هم : نوح ، وإبراهيم الخليل ، وموسى ، وعيسى ، محمد (عليهم صلوات الله وسلامه) وقد خصصنا لهم الجزء الثانى من هذا الكتاب إظهاراً لفضلهم ، ولشدة عزمهم .

قصة آدم (عليه السلام)

أبو البشر

اعلم يابنى : أن الله تعالى أوجد العالم من العدم ، فبعد أن خلق الأرض ، وجعل فيها كل مايقوم بأمر الحياة ويصلح للعمران ، اقتضت حكمته تعالى أن يخلق فيها النوع البشرى الإنسانى ، ويهب له من قوى العقل ومواهب الإدراك ما يصلح معه لأن يكون خليفة الله فى أرضه على سائر الكائنات التى هى دونه تتميماً وتكميلاً لنظام الكون .

فأول من خلق من البشر (آدم عليه السلام) وسمى بهذا الإسم لأن الله سبحانه وتعالى خلقه بيده من أديم الأرض ، أى من ترابها وصوّره وجعله بشراً سوياً ، ونفخ فيه الروح ، وأمر الملائكة بالسجود له لقوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ص .

سويته (أى جعلته على هيئة الإنسان) .

وفى آية أخرى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ

حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ الحجر .

« من صلصال ، أى من طين يابس إذا ضرب عليه يصلصل ، أى يصوت ومن حمأ مسنون ، أى من طين أسود مصبوب » .

ولقد خلق الله آدم فى أحسن صورة ، وأجمل قوام ، لقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين .

وقال الله سبحانه وتعالى للملائكة : إنى متخذ فى الأرض خليفة ليقوم بعمارتها ، وتتميم نظامها . فلما علموا ذلك ، وأدركوا أن الإنسان بطبيعته مجبول على الفساد ، سألوا الله من قبيل التعلم ، لا من قبيل الاعتراض عن حكمة تفضيل الله إياه عليهم فى إسناد الخلافة إليه مع قيامهم بعبادته وطاعته أحسن قيام كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ البقرة .

فأجابهم الله عز وجل : ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة

ثم أوحى الله إلى قلب آدم كل ما هو مستعد له النوع الإنسانى من الرقى الصورى والمعنوى ، وألهمه الأشياء بأسمائها ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

كُلَّهَا ﴾ وأمره بأن يسردها على الملائكة ، إظهاراً لاستعداد نوعه للقدرة على القيام بها

وامتحن الله الملائكة إذ يقول : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى أنكم أحق بالاستخلاف فى الأرض ، وأولى من آدم ، الذى هيأته لها وأعددته لمنصبه الرفيع

فلما عجز الملائكة عن ذلك اعترفوا بقصورهم ، ووقفوا عند حدهم

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ البقرة

فقال لآدم : ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ ﴾ الله تعالى للملائكة : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ البقرة

فكان ذلك تذكيراً لهم بشأن العلم ، ورفعاً لقدره ، وإعلاناً بكرامة آدم عليه السلام ، وأفضليته على الملائكة ، واستحقاقه الاستخلاف فى الأرض

ولما فهم الملائكة حكمة التفضيل ، وأنهم لا قِبَل لهم بخلافة الله فى الأرض لعدم استعدادهم للاشتغال بالأمور المادية ، أطاعوا أمر الله بالسجود لآدم (سجود تحية وتعظيم ، لا سجود صلاة وعبادة) فسجدوا إلا إبليس ، فإنه أبى واستكبر ، وكان من الكافرين ، لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة .

ولما سأل الله تعالى إبليس عن سبب امتناعه عن السجود لآدم عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ ص .

وقال له فى آية أخرى : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ الأعراف

فأخذ إبليس يختلق لنفسه الأعذار الباطلة والحجج الواهية :

و ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ الأعراف

و ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ الحجر .

وسُمِّيَ إبليس : لأنه أبلس من رحمة الله ، أى يئس ، وزعم بكبره وضلاله أن النار أقوى من الطين والفخار .

* * *

ولما ظهر خبث إبليس اللعين بتكبره عن طاعة أمر ربه وامتناعه عن السجود لآدم عليه السلام أمره بالهبوط من الجنة (أى النزول منها) وقال له :

ليس لك أن تتكبر فيها وتخرج عن طاعتى وأمرى لأنه لايسكن الجنة متكبر وعاصٍ لأمر ربه ، كما قال تعالى :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ الأعراف .

ثم قال له : اخرج منها صاغراً ذليلاً :

﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ الأعراف .

وقال له فى آية أخرى :

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ الحجر .

فخرج إبليس من الجنة مطروداً مرذولاً ، ورجمه الله باللعنة الساحقة فكان من ذلك الحين الشيطان الرجيم ، والمخلوق الخبيث اللئيم الذميم ، بعد أن كان ملكاً كريماً ، وأصبح معدن كل شر ، ومنبع كل خبث وفساد ، بين العباد .

ثم طلب من الله أن يمهله ولا يعاقبه على ما فعل إلى يوم البعث والنشور داعياً ربه :

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ الأعراف

فأجابه الله بأنك من الممهلين ، كما قال تعالى :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ الأعراف .

ثم قال إبليس لربه : يارب بسبب ما أضللتنى لأقعدن لهم مترصداً على طريقك المستقيم (وهو دين الحق) ثم لآتينهم من جميع جهاتهم بالتسويل والإضلال فلا تجد أكثرهم مطيعين شاكرين لأنعمك

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ الأعراف

قال الله لإبليس : اخرج من الجنة مذموماً مطروداً؛ وذلك قوله فى كتابه تعالى :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا ﴾ الأعراف .

ووعد الله بنى آدم بأن مَن اتبع عدو الله إبليس وأطاعه وصدّق ظنه أن يملأ منهم جهنم جميعاً ومن إبليس وذريته بقوله :

﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الأعراف .

ثم قال إبليس : رب بسبب ما أغويتنى لأزينن لهم الأمور الأرضية والميول الشهوانية ، ولأضلنهم أجمعين إلّا عبادك الذين أخلصتهم لطاعتك فلا سلطان لى عليهم كما بيّن سبحانه بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ الحجر .

فقال الله تعالى : إن تخليصهم هذا من إغوائك حق علىّ أن أراعيه لا أعدل عنه ، فإن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، فسلطانك ينحصر فيمن اتبعك من الضالين ، و إن جهنم لموعدهم أجمعين ، يتجلى ذلك من قوله تعالى :

﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الحجر .

« ملاحظة : لا يظن إنسان أن الله سبحانه وتعالى كان يخاطب الملائكة و إبليس وجهاً لوجه فهذا مستحيل ؛ لأن الله جلّ وعلا لا يُرَى للملائكة ولا لإبليس ، ولا يستطيع كائن من كان أن يجادله وأن يخاطبه ، و إنما أراد الله تصوير مافعله الملائكة والشيطان حيال آدم وما جاش بصدورهم عنه فأتى بتلك الآيات البينات » .

ولما أسبغ الله تعالى على آدم عليه السلام من واسع فضله وجزيل عطائه وكرمه ، وأسكنه الجنة كان يقيم فيها وحيداً لا جليس له ولا أنيس فاقتضت إرادة الله أن يخلق (حواء) من أحد أضلاعه اليسرى لتكون زوجاً له (وسميت حواء لأنها خلقت من شيء حيّ) .

وقد خلقها الله تعالى لتسكن إلى آدم ويسكن إليها ، ويأنس بها ، وذلك قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ الأعراف .

وقد وضع الله فى قلبيهما من المودة والرحمة ما به يتم لهما السعادة فى اجتماعهما لقوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ الروم .

ولمّا أسكن الله تعالى آدم وحواء (عليهما السلام) الجنة أباح لهما أن يرتعا فيها حيث شاءا ، ويأكلا من ثمارها ما طاب لهما ، ونهاهما عن الأكل من شجرة واحدة (الله أعلم باسمها وحقيقتها) وقد ابتلاهما الله بالنهى عنها ، وتحريمها اختباراً وامتحاناً لآدم بخطر هذه الشجرة ليكون ذلك سبيلاً لنفاذ قضائه ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ البقرة .

فكانت هذه الشجرة حيلة الشيطان التى زينها لآدم وزوجه (عليهما السلام) فأغراهما بها و ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ؟ ﴾ طه . ـ قال آدم عليه السلام : نعم .

قال إبليس اللعين له : كُل من هذه الشجرة : فقال آدم عليه السلام :

نهانى ربى عنها . فقال إبليس : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، فأبى آدم أن يقبل منه .

فأخذ إبليس اللعين يبذل ما فى وسعه ، ويسلك كل سبيل إلى تحسينها فى عينيهما ، وما زال بهما حتى اغترا بقسمه : أنه لهما من الناصحين . ونسى آدم عليه السلام ما كان من فعلة إبليس معه حين أبى السجود له إطاعة لأمر ربه ، ونسى أيضاً وصية ربه ، وظن أن الأكل من هذه الشجرة هو الذى سيجعلهما من الخالدين ، وتلك سنة الله فى آدم وسنته من بعده : (الأمل الطويل فى الحياة ، والرغبة الأكيدة فى طول الأجل) ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ الأعراف

فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما ، أى يجمعان عليهما ، من ورق الجنة ، ليواريا به سوآتهما ، ويغطيان ما بدا من عورتهما ، التى كشفتها معصيتهما لربهما ، واغترارهما بنصح عدوهما الشيطان ، وكذلك يفعل الشيطان مع بنى آدم يغشهم ، ويغويهم بكذبه وبهتانه ، فيظنون غشه نصحاً ، وكذبه وبهتانه صدقاً وحقاً . قال تعالى :

﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ الأعراف .

فلما وقع بآدم وزوجه من مصيبة المعصية ما وقع ناداهما ربهما قائلاً : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ؟ ألم أقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟ قال الله تعالى :

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ الأعراف .

فلما ناداهما بهذا النداء أفاقا عندئذ من الغشية ، وانتبها من الذهول وذكرا بعد النسيان ، وعلما أنه لا نجاة من الله ، ولا مفزع إلّا إليه :

و ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف .

وكذلك الشأن فى العقلاء من بنى آدم كما قال الله فى وصفهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ الأعراف .

ولما كانت الجنة دار الأتقياء البررة الطاهرين من كل رجس فلا بد أن يذوق آدم فى الأرض من عناء الحياة ومشاق العمل فى الزرع والحرث والكدّ ما يغسل عنه الصغيرة ، ويطهره من هذه المعصية ، ويهيئه لدخولها خالداً فيها أبداً ، فأمرهما بالهبوط إلى الأرض ، قال تعالى :

﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ البقرة

ولما هبط آدم من الجنة إلى الأرض كما أمره ربه ، واستقر جالساً فزع من ذلك فزعاً شديداً فذكر الجنة وما كان فيها من الراحة فخر مغشياً عليه .

قال ابن عباس (رضى الله تعالى عنهما) : بكى آدم وحواء على مافاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة ، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين سنة ، ولم يقرب آدم حواء مائة سنة .

فلما أراد الله تعالى أن يرحم عبده آدم لقنه كلمات كانت سبب قبول توبته ، كما قال تعالى :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة

ثم إن الله أرسل جبريل (عليه السلام) إلى آدم فعلمه الزراعة ، وصارت حواء معه يقاسيان هموم الدنيا ، وقضى الله على آدم أن يأكل خبزه بعرق جبينه ، وعلى حواء بمشقات الحمل والولادة

وكانت حواء تلد فى كل بطن ذكراً وأنثى ، فكان كل ذكر من بطن يتزوج الأنثى من بطن آخر ، وولدت منه كثيراً من الأولاد ، وماتا بعد أن عاش آدم نحو ألف سنة .

روى البخارى عن النبى (صلى الله عليه وسلم) : أن الله خلق آدم يوم الجمعة ، وفيه أهبط إلى الأرض ، وفيه تاب عليه ، وفيه توفى

فلما حضرته الوفاة بعث الله إليه بحنوطه وكفنه من الجنة ، فلما رأت حواء الملائكة ذهبت لتدخل دونهم إليه فقال لها : خلى عنى وعن رسل ربى ، فإنى ما لقيت ما لقيت إلاّ منك ، ولا أصابنى ما أصابنى إلاّ منك ، فلما قُبض غسلوه بالسدر والماء وتراً وكفنوه فى وتر من الثياب ثم لحدوا له فدفنوه ، ثم قالوا : هذه سنة ولد آدم من بعده .

قيل : دفن (بالهند) وقيل : دفن بمكة فى غار (أبى قبيس) .

وعاشت حواء بعده سنة ثم ماتت ودفنت معه ، والله أعلم .

٢ - قصة إدريس (عليه السلام)

إدريس عليه السلام ، هو جد أبى نوح ، كما رواه البخارى ، وهو أول من أعطى النبوة من بنى آدم فيما زعم ابن إسحق ، وأول من خط بالقلم وكتب الصحف ، وأنزل عليه ثلاثون صحيفة ، وأول من ركب الخيل وجاهد فى سبيل الله ، ونظر فى علم النجوم والحساب ، والحكمة والمنطق ، وأسرار الفلك ، ورسم عمارة المدن ، وسُمى إدريس لكثرة درسه الكتب وصحف آدم وشيث عليهما السلام

وأول من قطع الثياب وخاطها ولبس المخيط ، وكان قبل الناس يلبسون جلود الحيوانات ، وكان لايغفل عن ذكر الله أثناء خياطته ، وهو الذى سُمى المثلث ؛ لأنه ملك ، وحكيم ، ونبى

وقد ارسله الله تعالى لبنى (قابيل) حيث اتبعوا آباءهم فى الفجور حتى أدى فجورهم إلى عبادة الأصنام ، وأمر إدريس قومه ووعظهم وأمرهم بطاعة الله عز وجل ، ومعصية الشيطان ، فلم يقبلوا منه ، وكانت العصابة بعد العصابة من ولد (شيث) تنزل إلى ولد قابيل ، وفى زمانه عملت الأصنام ، ورجع من رجع عن الإسلام ، وقد خصص إدريس ثلاثة أيام فى الاسبوع يأمر فيها بنى قابيل وينهاهم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث عليهما السلام فأمره الله تعالى أن يقاتلهم ، وكان ذا قوة وبأس شديد ، ولذا سموه (هرمس الهرامسة) أى أسد الأسود

وقد أعطاه الله درجات عظيمة فى الدنيا والآخرة

وقال الله تعالى لخاتم أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ مريم

أى اذكر يامحمد فى هذا القرآن الذى أوحينا إليك به أن إدريس (كان صديقاً) لا يقول الكذب (نبياً) نوحى إليه من أمرنا ما نشاء (ورفعناه مكاناً علياً) أى مكاناً عالياً من الكمال

وقال بعض المفسرين : لما كشفت له أسرار الملكوت ، واشتاق إلى الملأ الأعلى أكرمه الله برفعه إلى السماء الرابعة ، وقيل : بل إلى السماء السادسة

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه رفع إلى السماء السادسة . والله تعالى أعلم

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أربعة من الأنبياء أحياء وهم :

إدريس ، وعيسى (فى السماء) وإلياس والخضر (فى الأرض) ، وكلهم يموتون إلا إدريس فإنه إذا مات الخلق يبقى حيًّا .

وقيل : هو الذى يجيب الله تعالى إذا مات الخلق وقال : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟﴾ فيقول إدريس : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الأنبياء

وقد روى البخارى وغيره عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : فلما مرّ جبريل (عليه السلام) فى ليلة الإسراء بالنبى صلى الله عليه وسلم بإدريس قال : مرحباً بالنبى الصالح ، والأخ الصالح ، فقلت : مَن هذا ؟ قال : هذا إدريس

وروى مسلم وأبو داود والنسائى عن معاوية بن الحكم السلمىّ قال : قلت يارسول الله ومنا رجال يخطون ؟ قال : كان نبى من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك

قيل هـذا النبى : هو إدريس عليه السلام ، وكان يخط فى الأرض خطوطاً يستخرج منها علوماً ومعارف بتعليم إلهى فموافقته الآن مستحيلة

فالخط أو الحرف الذى يسميه العـامة (ضرب الرمل) حرام لأنه دجل وكذب ، ورجم بالغيب

والله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور ، وهو علام الغيوب .

٣ - قصة نوح (عليه السلام)

مذكورة فى الجزء الثانى مع أولى العزم من الرسل

٤ - قصة هود (عليه السلام)

سيدنا هود عليه الصلاة والسلام هو نبى من نسل (سام بن نوح) عليه السلام ، أرسله الله سبحانه وتعالى إلى قوم عاد ، وهم قوم كانوا يسكنون الجبال فى أرض (الأحقاف) وهى تقع فى شمال (حضرموت) من بلاد اليمن ، وكانوا ماهرين فى العمارة فبنوا فى بلادهم أبنية لطيفة متينة ، وكانوا يعبدون الأوثان من دون الله تعالى كما كان من قبلهم قوم نوح يعبدون الأصنام ، فدعاهم هود إلى عبادة الله ، وأمرهم أن يوحدوه ، وأن يكفوا عن ظلم الناس قائلاً لهم :

ياقوم ، اعبدوا الله وحده لا شريك له ، دون ما تعبدون من الآلهة والأوثان ، واعلموا أنكم ما لكم من إله غيره ، ولا معبود سواه ، فأخلصوا له العبادة ، واعلموا أنه فى إشراككم معه الآلهة والأوثان مفترون مكذبون تختلقون الباطل .

قال تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ هود

وكان هو يبين لهم أنه لا يطلب على نصيحته لهم أجراً يأخذه منهم ، وأنه لا يطلب الأجر على ذلك إلا من الله تعالى الذى خلقه ، ويقول لهم : افهموا وتعقلوا أنى لو كنت أبتغى بدعايتكم إلى الله غير النصيحة وطلب السعادة لكم فى الدنيا والآخرة لالتمست منكم على ذلك بعض أعراض الدنيا، وطلبت منكم الأجر والثواب .

قال تعالى ﴿ يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هود .

ثم أخذ يقول لهم : إن الواجب عليكم أن تتقوه ، وأن تتوبوا إليه ، وأن تستغفروه ، حتى يرسل عليكم المطر من السماء ، يدرُّ لكم الغيث وقت حاجتكم إليه ، فتحيا بلادكم من الجدب والقحط ، ويرزقكم المال والبنين ، فتزداد قوتكم وسعادتكم ، فلا ترجعوا عما دعوتكم إليه من توحيد الله ، ولا تكونوا مجرمين كافرين بالله .

قال تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ هود .

وكان فى قوم عاد ناس قد عتوا ورأوا كبراً على أنفسهم أن يمتنعوا عن عبادة الأوثان ، وغلبت عليهم الشقاوة والكفر ، وكانوا الجمهور

الأعظم ، فسفهوا هوداً وكذبوه ، ولم يأخذوا بأقواله ، وقالوا له : إنّا لنراك فى سفاهة ، ونظن أنك من الكاذبين

قال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ الأعراف

ثم قالوا له : ياهود ما جئتنا ببيان ولا برهان على صحة ما تقول ، فنسلم لله ، ونقرّ بأنك صادق فيما تدعونا إليه من توحيد الله ، والإقرار بنبوتك ونحن لا نترك آلهتنا لمجرد قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ومصدقين بما تدعى من النبوة والرسالة

قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ هود

فراجعهم هود وقال لهم : ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، لأبلغكم رسالة ربى ، وما كان الله ليرسل إلى عباده بسفيه يكون الضرر برسالته أكبر وأعظم من النفع بها ، وإنى لكم ناصح أمين ، وأخلص الناصحين ، فاقبلوا نصيحتى فإنى أمين على وحى الله وعلى ما ائتمننى الله عليه من الرسالة ، لا أكذب فيه ، ولا أزيد عليه ولا أبدل .

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ الأعراف

ثم قال لهم : هل أخذكم العجب أن الله أنزل وحيه بتذكيركم ماأنتم عليه مقيمون من الضلالة على رجل منكم لينذركم بأس الله ويخوفكم عقابه ؟

قال تعالى : ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ الأعراف .

وذكرهم هود ماحل بقوم نوح من العذاب إذ عصوا رسولهم وكفروا برأيهم ، وقال لهم : إن الله جعلكم خلفاء فى الأرض بعد قوم نوح لما أهلكهم ، فاتقوا الله وخافوا أن يحل بكم ماحل بهم من العقوبة فيهلككم ويبدل منكم غيركم ، سنته فى قوم نوح قبلكم ، على معصيتكم إياه وكفركم به مع أنه زادكم فى الخلق بسطة ، فزاد فى أجسادكم طولاً وعرضاً وعظماً ، على أجسام قوم نوح ، وفى قوامكم على قوامهم نعمة منه بذلك وفضلاً عليكم ، فاذكروا نعمة الله وفضله ، واشكروا الله على ذلك بإخلاصكم العبادة له ، وترك الإشراك به ، وهجر الأوثان والأنداد لعلكم تفلحون ، فتنالوا البقاء والخلود فى دار النعيم فى الآخرة .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الأعراف

فقالوا لهود : أجئتنا تتوعدنا بالعذاب من الله على مانحن فيه من الدين كى نعبد الله وحده ، وندين له بالطاعة خالصاً ، ونهجر عبادة الآلهة

والأصنام التى كان آباؤنا يعبدونها ، ونتبرأ منهـا ، فلسنا فاعلين ولا متبعين دعوتك ، فإن كنت صادقاً فيما تدعيه فأتنا بما تعدنا من العقاب والعذاب

قال الله تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ الأعراف

فأجابهم هود : لقد حل بكم سخط وغضب من الله ، هل تجادلوننى فى الأصنام التى سميتموها أنتم وآباؤكم وهى لا تضر ولا تنفع ؟ وما جعل الله لكم فى عبادتها من حجة ولا معذرة ، لأن العبادة لا تكون إلا لمن ضرّ ونفع ، وأثاب على الطاعة وعاقب على المعصية ، ورزق ومنع ، فأما الجماد من الحجارة والحديد والنحاس ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، فانتظروا حكم الله فينا وفيكم ، إنى معكم من المنتظرين حكمه وفصل قضائه .

قال تعالى : ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ الأعراف

ازداد قوم هود فى تكذيبه ، واتهموه فى عقله ، وقالوا له : إن الذى حملك على ذم آلهتنا ، والنهى عن عبادتها ، هو أن يكون قد أصابك منها خبل وجنون ، فأنت عندنا فى حكم أهل العته والجنون

قال تعالى : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ هود

سمع هود ذلك منهم فقال لهم : إنى أشهد الله تعالى وأشهدكم إنى برىء من تلك الآلهة التى تزعمون أن لها القدرة على أن تمسنى بسوء ، فاحتالوا أنتم جميعاً وآلهتهم فى ضررى و إيذائى ، ثم انظروا هل يمكنكم أن تصيبونى بسوء ؟ كما تزعمون أنه أصابنى سوء من آلهتكم

قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ هود

واعلموا بأنى متوكل على الله الذى خلقنى وخلقكم ، وواثق بأنه لا يصيبنى منكم أو من غيركم سوء بغير إذنه ، فإنه ليس من شىء يدب على وجه الأرض إلاَّ والله مالكه ، وقابض على ناصيته ، وتحت سلطانه ، ذليل خاضع له ، وأنه المقيم على جميع خلقه ، عادل فى حكمه ، يجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، لا يظلم أحداً منهم شيئاً ، ولا يقبل منهم إلا الإسلام والإيمان

قال تعالى : « إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هود

ثم أعلنهم هود (عليه السلام) بأنهم إذا تولوا وأدبروا معرضين عما يدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الأوثان ، فإنه قد قام بالواجب من

إبلاغهم رسالة ربه ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ وأن الله تعالى بعد ذلك سيهلكهم ، ويَسْتَخْلِفُ قوماً غيرهم يوحدونه ويخلصون له العبادة ، وأنهم لا يضرونه شيئاً ، إذا أراد إهلاكهم ، فهو الحفيظ على كل شيء وكل شيء فى قبضته وقدرته .

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ هود

لم يزل هود ينصح لقوم عاد ، ويعلمهم أنه رسول أمين ، ويحذرهم ويقول لهم : ألا تخافون الله ، وتحسبون لبطشه حساباً ؟ ويكرر القول لهم : أن اتقوا الله وأطيعونى ، وما أسألكم على هدايتكم للطريق القويم أجراً فإن أجرى على الله رب العالمين . أتبنون بكل طريق أعلاماً للعبث ، لأنكم فى غير حاجة إليها ؟ وتتخذون قصوراً فخمةً لسكناكم رجاء أن تعيشوا فيها مخلدين . وإذا أخذتم قوماً فى حرب ، أو بقصد فتح أو غزو ، أخذتموهم بعنف الجبابرة وقسوة النمارذة ، فاتقوا الله وأطيعونى وخافوا الله الذى أمدكم من النعم بما تعلمونه أمدكم بمواشٍ وأولادٍ وجناتٍ تحيطُ بها العيون الكثيرة الغزيرة المياه . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الأهوال شديد المخاوف

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ الشعراء .

فقالوا له : إننا لدعوتك مكذبون ، سواء علينا أوعظتنا أم لم تكن من الواعظين ، وما الذى نحن عليه من الأخلاق والعادات إلاَّ خلق الأولين وعاداتهم ، جرينا وجرى الناس عليها ، وما نحن بمعذبين عليها كما تنذرنا به .

قال تعالى : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ الشعراء .

فلما استكبر قوم عاد على ربهم ، وعصوا رسوله هوداً ، وتجبروا فى الأرض تكبراً وعتواً بغير ما أذن الله لهم به وقالوا : مَن أشد منا قوة ؟ وكانوا بآيات الله يجحدون ، ولم ينظروا أن الذى خلقهم وأعطاهم ما أعطاهم من عظم الخلق ، وشدة البطش ، هو أشد منهم قوةً وبطشاً فيحذروا عقابه ، ويتقوا سطوته ، لكفرهم به ، وتكذيبهم رسله ، وجحدهم بآياته ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً ، أى ريحاً شديداً ، فى أيام نحسات (أى أيام مشئومات متتابعات) أذاقهم فيها

عذاب الخزى فى الحياة الدنيا وأعدّ لهم فى الآخرة عذاباً أخزى لهم وأشد إهانة، وإذلالاً فلا ينصرهم الله يوم القيامة ولا ينقذهم منه.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ فصلت.

وقد أرسل الله عليهم الريح الشديدة فى مدة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً وأهلكهم عن آخرهم، فلم تبق منهم أحداً، وكان القوم فيها صرعى، مذهولين مما أصابهم، وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية (أى أصول نخل قد خوت) فلا يرى لها من أثر.

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ الحاقة.

وهؤلاء القوم الذين جحدوا بأدلة الله وحججه، وعصوا رسله واتبعوا كل جبار عنيد، قد أحل الله بهم نقمته، واستحقوا لعنة الله وغضبه، وسخطه فى الدنيا، وسيتبعهم يوم القيامة لعنة مثلها؛ لأنهم كفروا بنعمة ربهم، فأبعدهم الله من الخير.

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ هود .

وصار يضرب بهم المثل فى شدة العذاب حيث يقال :

(ألم تر كيف فعل الله بعاد أصحاب إرم ذات العماد ، أى رفيعة القدر التى لم يوجد مثلها فى البلاد) .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ الفجر .

ولقد نجى الله تعالى هوداً والذين آمنوا معه برحمة من ذلك العذاب الغليظ فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ هود .

وقوم عاد الذين هلكوا هم عاد الأولى ؛ وأما عاد الثانية فهم سكان اليمن من قحطان وسبأ .

ويقول أهل حضرموت : إن هوداً عليه الصلاة والسلام سكن ببلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات ودفن فى شرق بلادهم على بضعة مراحل من مدينة (تريم) والله أعلم .

العبرة من قصة هود عليه الصلاة والسلام مع قوم عاد

يستخلص من قصة هود عليه السلام ، أنه كان إنساناً وقوراً ، رزيناً يزن الكلام قبل إلقائه ، وأنه كان رجلاً حليماً كريماً ، لا يقابل الشر بمثله ، بل يستعمل اللين فى كلامه مع قومه ، والتلطف فى إسداء النصيحة الخالصة لهم ، ابتغاء وجه الله لا يريد جزاء ولا شكوراً .

وأنه كان حكيماً فى تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وترغيبهم فى الإيمان ، ودعوتهم إلى سبيل الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ مبيناً لهم ما أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم من أموال و بنين ، و بساتين وأنهار ، وأنه زادهم بسطةً فى الخلق وجعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، وأن ايمانهم يستوجب رضاء الله تعالى عنهم ، فيرسل السماء مدراراً لسقى زروعهم و إنبات الكلأ ، وأنه تعالى يزيدهم قوةً إلى قوتهم وعزاً إلى عزهم .

وأنه مع مشاكستهم له ، وافترائهم عليه ، وتكذيبهم إياه ، ورميهم إياه بالجنون والسفه ، لم يزد فى جوابه على أن قال لهم : لم يكن بى سفاهة و إنى أشهد الله ، وأشهدكم أيضاً إنى برئ مما تشركون ، و إن اعتمادى وتوكلى على الله ربى وربكم ، القابض على كل شىء ، والآخذ بناصية كل دابة على وجه الأرض .

إن الذى يتولى عظة الناس وإرشادهم والنصح لهم ، ينبغى أن يكون مثل سيدنا هود عليه السلام فى سعة الصدر والتسامح ، وعدم مقابلة الشر بمثله ، وتحمل الأذى ، رجاء أن يظفر ببغيته ، ويفوز بهدايتهم أو هداية بعضهم ، وأن يكون جوابه عند اليأس والفشل بعد بذل الجهد واستنفاد أساليب الترغيب والنصح والإرشاد ما قاله هود عليه السلام : إنى قمت بالواجب علىّ من تبليغ رسالات ربى (وما على الرسول إلّا البلاغ) وأن ربى على كل شىء حفيظ ، فهو القادر وحده على أن يستخلف قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً .

أما عاد الذين كفروا بربهم ، وعصوا رسوله هوداً فكانت عاقبتهم الهلاك والدمار ، واستحقوا عذاب الله ولعنته ونقمته .

٥ - قصة صالح عليه السلام

سيدنا صالح (عليه السلام) هو ابن عبيد ، بن جابر ، بن ثمود وثمود هو جد القبيلة التى سميت باسمه . وهو ثمود ، بن عامر ، بن إرم ، بن سام ، ابن نوح .

وكانت مساكنهم (بالحجر) وهى المعروفة (بمدائن صالح) بين الحجاز والشام فى الجنوب الشرقى من أرض (مدين) وهى مصاقبة (أى مجاورة) لخليج العقبة .

وكانوا يتخذون من الجبال بيوتاً ، وكانوا يعبدون الأصنام كقوم عاد فأرسل الله إلى ثمود أخاهم (صالحاً) من أوسطهم نسباً ، وأكرمهم حسباً فقال لهم : ياقوم اعبدوا الله وحده لاشريك له ، وأخلصوا له العبادة دون ما سواه من الآلهة ، فما لكم من إله غيره ، وهو الذى أنشأكم من الأرض ، ومنحكم من القوى الجسدية والعقلية ما يمكنكم من عمرانها فاستغفروه من ذنوبكم ، ثم توبوا إليه فإنه قريب الرحمة ، مجيب لمن دعاه .

قال تعالى ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ هود .

فقالوا له : ياصالح لقد كنت فينا قبل هذا محل رجائنا ، لما نرى

فيك من علامات الحكمة وأصالة الرأى، أتنهانا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا ؟ إننا لفى شك مما تدعوننا إليه إنه يوجب الريبة .

قال تعالى ﴿ قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ هود

فقال لهم : ياقوم خبرونى ، هل لو كنت على برهان وبيان من الله قد علمته وأيقنته وآتانى النبوة والحكمة والإسلام ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى بنصرتكم إياى لو عصيته إلا خساراً .

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ هود .

ثم أخذ صالح يمحض لهم النصح ويقول لهم : ياقوم ألا تخشون ربكم فتطيعوا أمره وتعبدوه ؟ إنى لكم منه رسول أمين عليكم ، حفيظ على مصالحكم ، فاحذروا الله وأطيعونى ، واست بمطالبكم بجُعل أو أجر على صلاح أموركم ، فما أجرى إلا على رب العالمين ، أخُيل لكم أنكم تهملون فى دياركم آمنين ، وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر والظلم المبين وتتركون راتعين فى جنات وعيون وزروع ونخل ثمرها لطيف بين ، وتنحتون من الجبال بيوتاً نشيطين ؟ فخافوا الله وأطيعونى ، ولا تتبعوا وسوسة المسرفين على أنفسهم ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ الشعراء

قالوا له : إنما أنت من الذين سحروا مرات متعددة ففسد عقلهم وما أنت إلا رجل مثلنا ، فأت بمعجزة إن كنت من الصادقين .

قال تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ الشعراء .

فقال لهم : معجزتي هذه الناقة التي أخرجها الله دليلاً على نبوتي وصدق مقالتي ، وهي من المعجزات التي لا يقدر على مثلها إلا الله ؛ لأنه خلقها على خلاف سنته تعالى في خلق الإبل وصفاتها ، إذ لم يخلق في الإبل سواها ناقة تختص بالشرب يوماً ، وأهل ذلك الماء يومًا آخر ، وتعرف يومها الخاص ، ولا تقرب الماء في يوم أهلها ، فلا تمسوها بسوء وإلا حاق بكم العذاب .

قال تعالى : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ الشعراء

ثم أخذ يحذرهم بألاَّ يتعرض أحد من ثمود لهذه الناقة ، وألا يمسها بسوء فى نفسها ، ولا فى أكلها ، ولا فى شربها من الماء الخاص بها ، الذى كان قسمةً بينهم وبينها ، وأنذرهم بالوعيد ، والعذاب الشديد ، الذى يحل بهم متى اعتدوا عليها فى أحد هذه الأشياء .

قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الأعراف .

وفى آية أخرى : ﴿ وَيَا قَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ هود

وبذل صالح الجهد فى تذكيرهم بأنهم خلفاء من بعد قوم عاد ، وأن الله أنزلهم فى الأرض وجعل لهم فيها مساكن وأزواجاً يتخذون من سهولها قصوراً ، وينحتون من الجبال بيوتاً ، وذكرهم بنعمة الله عليهم ، وحذرهم بألاَّ يعيثوا فى الأرض مفسدين ، وألاَّ يستكبروا عن عبادة الله .

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف .

فقال السادة الذين استكبروا من قوم صالح عن اتباعه والإيمان بالله و به للذين استضعفوا من أتباع صالح والمؤمنين به : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه أرسله الله إلينا و إليكم ؟

قال الذين استضعفوا وآمنوا بصالح : إنّا بما أرسل الله به صالحاً من الحق والهدى مؤمنون مصدقون ، مقرون أنه من عند الله وأن الله أمره به .

فقال المستكبرون : إنّا أيها القوم بالذى آمنتم به كافرون ، ومنكرون الذى جاء به ولا نصدقه ولا نقره .

قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ الأعراف .

وأمسكوا الناقة التى أمرهم الله ألاّ يمسوها بسوء فعقروها (أى نحروها) متجاوزين حدود الله وأوامره ، وقالوا لسيدنا صالح : ائتنا بما توعدنا به من العذاب إن كنت من المرسلين .

قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ الأعراف .

فقال لهم : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ثم بعد ذلك ترون عذاب الله ، وهذا وعد غير مكذوب .

قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ هود .

فأخذتهم (الرجفة) أى الزلزلة والصيحة التى زعزعتهم وحركتهم للهلاك ، فأصبح الذين أهلكهم الله من ثمود فى دارهم أى فى أرضهم التى هلكوا فيها ، خامدين هامدين لا يتحركون .

قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ الأعراف

وفى آية أخرى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ هود .

فأعرض عنهم صالح وقال لهم : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى وأديت إليكم ما أمرنى به ربى ، ونصحت لكم وحذرتكم بأسه و بطشه بإقامتكم على كفركم به ، وعبادة الأوثان ؛ ولكن لا تحبون الناصحين لكم فى الله .

قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ الأعراف .

ولما جاء ثمود عذاب الله ، نجى صالحاً والذين آمنوا معه برحمة وفضل من الله ، ومن خزى ذلك اليوم ، فإن الله هو القوى العزيز ، فلا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ هود .

وقيل : إن الذين نجو مع صالح كانوا مائة وعشرين ، وأنهم ذهبوا إلى الرملة ونواحى فلسطين ، ويقول أهل حضرموت : أنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها ؛ لأن أصلهم من تلك الناحية ، ولأنهم من أهل (الأحقاف) وهناك قبر يزعمون أنه لصالح عليه السلام ، وبعضهم يقول : أنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بها إلى أن ماتوا ، والله ورسوله أعلم .

٦ - قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

مذكورة فى الجزء الثانى

٧ - قصة لوط عليه السلام

لوط عليه السلام هو ابن أخى (إبراهيم الخليل) عليه السلام ، وقد هاجر معه من أرض بابل إلى أرض الشام المباركة لقوله تعالى :

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء

وهى الأرض المقدسة التى بعث الله منها أكثر الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين)

وقد أرسله الله تعالى إلى أرض (سدوم) وكانت أرض كفر وفحش ، وكان قوم لوط من المجرمين الفاسقين ؛ وكانوا يقطعون الطريق على السابلة ، وقد ذهب ماء الحياء من وجوههم ، فلا يستقبحون قبيحاً ، ولا يرغبون فى حسن ، كما قال الله تعالى :

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ العنكبوت

وكانوا قد ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من الخلق ، وذلك أنهم كانوا يأتون الذكور شهوة من دون النساء يستعلنون بذلك

ولا يسترون ، ولا يرون فى ذلك سوءاً أو قبحاً ، وأن لوطاً عليه السلام قد وعظهم ونصحهم ونهاهم عن هذا الفعل الذميم ، وخوفهم بأس الله تعالى و بطشه ، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى ، فلم يسمعوا لقوله ، ولم يرتدعوا .

فلما ألحّ عليهم بالعظات والإنذار هدّدوه تارةً بالرجم ، وطوراً بالإخراج من بينهم إلى أن جاء إلى لوط الملائكة .

فلما جاءت الملائكة لوطاً ساءه مجيئهم ، فضاق بهم ذرعاً ، لأنه علم أنه سيحتاج إلى المدافعة عن ضيوفه ضد قومه المجرمين ، ولذلك قال فى نفسه : هذا يوم عصيب ، أى يوم شديد .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ هود .

وأقبل قومه إليه مسرعين ، طالبين ضيوفه الحسان ليفعلوا بهم الفاحشة كما هى عادتهم من قبل ، فقال لهم : (يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فتزوجوا بهن (وأراد نبى الله أن يقى أضيافه ببناته) .

ذكر بعض المفسرين أن البنات هنا لسن بناته لصلبه ، بل يريد البنات من جميع أمة الدعوة بعرض التزوج منهن شرعاً (إن كنتم فاعلين) وهذا خير لكم مما تريدون من الفاحشة من الرجال ، فاخشوا الله واتقوه ، ولا تفضحونى فى ضيفى ، ولا تذلونى بإتيان السوء معهم ، أليس فيكم رجل عاقل رشيد يعرف الحق ، وينهى عن المنكر ؟

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ هود .

فأجابوه : لقد علمت يا لوط إن بناتك لسن لنا أزواجاً بحق ، وأنت تعلم ما نريد ، إنا نريد الرجال لا النساء .

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ هود

فلما لم يتناهوا عن غيِّهم ، ولم يردعهم قوله ، ولم يقبلوا منه شيئاً مما عرض عليهم من أمر بناته ؛ قال لوط : لو أن لى بكم قوة ، أى لو أن لى أنصاراً تنصرنى عليكم ، وأعواناً تعينني ، أو آوى إلى ركن شديد ، أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعنى منكم ، لحلت بينكم وبين ما جئتم به تريدونه منى فى أضيافى .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ هود .

وقيل : إن لوطاً لما قال ذلك وجدت الرسل عليه وتكدرت وقالوا : إن ركنك لشديد .

وقالت الملائكة للوط لما سمعوا هذا القول منه ، ورأوا ما لقى من الكرب بسببهم : إنا رسل ربك أرسلنا لإهلاكهم ، وأنهم لن يصلوا إليك

بسوء ، ولا إلى ضيفك بمكروه ، فهوِّن عليك الأمر ، فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك فى جوف الليل ، ولا يلتفت أحد منكم إلَّا امرأتك ، فإنه سيحل بها من السخط والعذاب ما حلَّ بهم ، لأنهـا كانت كافرةً غير مؤمنة (والتفتت إليهم وأعجبها حسنهم) وأن موعد هلاكهم الصبح . فاستبطأ ذلك لوط ، وطلب منهم تعجيل الهلاك فقالوا له : أليس الصبح بقريب ؟ وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ هود .

ولما جاء أمر الله بهلاكهم جعل عالى قريتهم سافلها ، وأمطرها حجارةً من (سجيل) أى من طين (منضود) أى متتابع بعضه إثر بعض (مسوَّمة) معلمة عند الله . فأهلكها بمن فيها وما حولها من المؤتفكات ، ونجى الله لوطاً ومن معه من أهله إلا إمرأته فإنها هلكت فيمن هلك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ هود .

٨ - قصة إسماعيل (عليه السلام)

جاء فى قصة سيدنا إبراهيم الخليل أن زوجته السيدة الطاهرة (سارة) كانت عاقراً لا تلد، وكان ملك مصر قد أعطاها جارية مصرية اسمها (هاجر) فوهبتها له، فولد منها (إسماعيل) عليه السلام.

ولكن الله سبحانه وتعالى القادر على كل شىء أرسل الملائكة إلى سيدنا إبراهيم فقالوا له: إنا جئنا لنبشرك بغلام عليم. فراجعهم قائلاً: أبشرتمونى على أن مسنى الكبر، وصار لا يرجى لمن كان مثلى أن يلد، وامرأتى عاقر قد بلغت سن اليأس.

وكانت السيدة (سارة) تسمع كلام الملائكة لسيدنا إبراهيم، فضحكت من هذه البشرى العجيبة وقالت: كيف ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً؟ وأبدت غاية الاستغراب، فقال الملائكة: إن هذا وعد من الله القادر، وذلك قوله:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ. قَالَتْ

يَا وَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ هود .

فلم يحل الحول على (سارة) وهى بنت تسعين سنة حتى حملت (باسحٰق) ولما ولدته أسمته (يصحق) وترجمتها (يضحك) تريد أن كل من سمع بولادة هـذا الولد من أبوين شيخين يضحك لما فى هذه الولادة من الغرابة ؛ وقد آل أمره إلى أن يكون نبياً لقوله تعالى : فى سورة الصافات .

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وستأتى قصته .

وقد أخذت السيدة (سارة) الغيرة من (إسماعيل بن هاجر) وهى تود أن يرث ابنها إسحٰق وحـده إبراهيم دون إسماعيل كما هى غيرة النساء ، لأنها إمرأة تحب لابنها مالا تحب لابن ضرتها ، فطلبت من إبراهيم أن يبعـد عنها هاجر وابنها إسماعيل ، وأصرّت على ذلك ، فأوحى الله إلى إبراهيم عليـه السلام أن يأتى بالسيدة هاجر وابنها إسماعيل إلى مكة ، فذهب بهما حتى قدم مكة ، فوضعهما هناك فى هـذه البقعة التى لا نبات ولا ماء ولا أنيس فيها ، ورجع إلى فلسطين بعـد أن دعا لهما أن يتولاهما الله بعنايته وحفظه ، قال الله تعالى على لسان إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ إبراهيم .

ولما نفد الماء من هاجر عطشت ، وانقطع لبنها ، فعطش الصبى (إسماعيل) فنظرت ، أى الجبال أدنى من الأرض ؟ فصعدت (الصفا) فتسمعت ، هل تسمع صوتاً أو ترى أنيساً ؟ فلم تسمع فانحدرت ، فلما أتت على الوادى سعت فنظرت ، أى الجبال أدنى من الأرض ؟ فصعدت (المروة) فتسمعت ، هل تسمع صوتاً أو ترى أنيساً ؟ فسمعت صوتاً فقالت : قد أسمعتنى صوتك ، فأغثنى فقد هلكت وهلك من معى . فجاء الملك وجاء بها حتى انتهى بها إلى موضع (زمزم) فضرب بقدمه ففارت عين فعجلت (هاجر) فجعلت فى شنتها (زمزميتها) أى لما أبصرت هاجر الماء ، قامت واستقت لنفسها ولابنها إسماعيل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس فى هذا الحديث : « رحم الله أم إسماعيل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عيناً معيناً تجرى إلى يوم القيامة » .

وقال لها الملك : لا تخافى الظمأ على أهل هذا البلد ، فإنما هى عين لشرب ضيفان الله « ومن وقتها إلى الآن يشرب الحجاج من ماء زمزم ويأخذون معهم جزءاً منه تبركاً به » .

ومن وقتها إلى الآن والحجاج يسعون بين الصفا والمروة سبع مرات لأنها صارت سنة مشروعة

وقال : إن أبا هـذا الغلام (إبراهيم عليه السلام) سيجىء فيبنيان لله بيتاً هـذا موضعه . قال : ومرت قافلة من (جرهم) تريد الشام فرأوا الطير على الجبل فقالوا : إن هـذا الطير لعائف على ماء فهل علمتم بهذا الوادى من ماء ؟ فقالوا : لا . فأشرفوا فإذاهم (بهاجر) فأتوها فطلبوا إليها أن ينزلوا معها فأذنت لهم . قال : وأتى عليهـا (أى على هاجر) ما يأتى على هؤلاء الناس من الموت فماتت

زواج إسماعيل وزيارة والده له

وتزوج إسماعيل عليـه السلام امرأة منهم ، فجاء إبراهيم فسأل عن منزل إسماعيل حتى دل عليه فلم يجده ، ووجد امرأةً له فظة غليظة القلب فقال لها: إذا جاء زوجك فقولى له جاء هٰهنا شيخ من صفته كذا وكذا ، وأنه يقول لك : إنى لا أرضى لك عتبة بابك فحولها ، وانطلق

فلمـا جاء إسماعيل أخبرته ، فقال ذاك أبى وأنت عتبة بابى فطلقها ، وتزوج امرأةً أخرى منهم ، وجاء إبراهيم حتى انتهى إلى منزل إسماعيـل فلم يجده ، ووجد امرأةً له سهلة بشوشة فقال لهـا : أين انطلق زوجك ؟

فقالت : انطلق إلى الصيد . « وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيتصيد ثم يرجع » قال : فما طعامكم ؟ قالت : اللحم والماء . قال : اللّهم بارك لهم فى لحمهم ومائهم . اللّهم بارك لهم فى لحمهم ومائهم (قالها ثلاثاً) وقال لها : إذا جاء زوجك فأخبريه وقولى له : جاء ههنا شيخ من صفته كذا وكذا ، وأنه يقول لك : قد رضيت لك عتبة بابك فأثبتها

فلما جاء إسماعيل أخبرته : قال ذاك إبراهيم أبى ، فلبث ما شاء الله أن يلبث ، وأمره الله ببناء البيت فبناه هو وإسماعيل . فلما بنياه قيل : أذّن فى الناس بالحج ، فجعل لا يمرّ بقوم إلاّ قال : أيها الناس إنه قد بنى لكم بيت فحجوه ، فجعل لا يسمعه أحد ولا صخرة ولا شجرة ولا شىء إلا قال (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك) وأصبح الحج فرضاً على كل مسلم أن يؤديه متى استطاع لذلك سبيلاً

أولاد إسماعيل (عليه السلام)

وقد رزق إسماعيل عليه السلام اثنى عشر ولداً وكانوا رؤساء قبائل وسميت (بالعرب المستعربة)

بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة (البيت الحرام)

لما أمر الله إبراهيم (عليه السلام) ببناء الكعبة سار من الشام إلى مكة

وقدم على ابنه إسماعيل عليه السلام وقال له : يا إسماعيل إن الله تعالى قد أمرنى أن أبنى له بيتاً

فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك

فقال إبراهيم : وقد أمرك أن تعينني عليه . فأجابه : سمعاً وطاعةً

فقام معه إسماعيل وصدعا بالأمر ، وبنيا الكعبة ، وكان إبراهيم عليه السلام يبنى ، وإسماعيل يحمل الحجارة على رقبته ويناولها لوالده ، إلى أن رفعا قواعد البيت وأتما بناءه وهما يدعوان الله قائلين :

« ربنا تقبل منا أعمالنا إنك أنت السميع للداعين ، العليم بأحوالهم »

« ربنا اجعلنا مخلصين لك ، واجعل من ذريتنا أمةً مخلصةً لك ، وأرشدنا إلى طرق عبادتك ، واغفر لنا ذنوبنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم »

وسألا الله بأن يبعث فى الناس رسولاً منهم (وهو محمد صلى الله عليه وسلم) ليعلمهم كتاب الله (القرآن الكريم) والحكمة (أى الدين والفقه) وأن يطهرهم من الشرك بالله وعبادة الأوثان ، وأن يغرس فيهم حب الطاعة ، والإخلاص لله ، والاعتراف بأنه هو القوى العزيز ، الحكيم فى تصرفاته وأفعاله ، وذلك قوله تعالى .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ

مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

البقرة

وقد أجاب الله دعاءهما ، وجعل هـذا البيت الحرام مرجعاً للناس، ومعاذاً يأتونه كل عام للحج ويرجعون إليه ، كما أنه جعـله أمناً لهم يأوون إليه من المخاوف لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً ﴾ البقرة

وأنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم آية باتخاذ مقام إبراهيم (وهو الحجر الأسود الذى قام عليه حين ارتفع بناء البيت وضعف عن رفع الحجارة وقيل: هو مقامه المعروف فى المسجد الحرام) مُصَلًّى يصلون عنـده عبادةً لله وتكرمةً منه لإبراهيم عليه السلام ، قال تعالى :

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ البقرة

وعهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل تطهير هـذا البيت الحرام من عبادة الأصنام للطائفين الذين يأتونه ويطوفون به ، سواء كانوا غرباء أو من

أهله ، وللعاكفين الملازمين له ، والركع السجود ، أى أهل الصلاة القائمين بها خير القيام ، لقوله تعالى :

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ البقرة .

ودعا إبراهيم ربه قائلاً : رب اجعل هـذا البلد (أى مكة) بلداً آمناً من الجبابرة وغيرهم أن يسلطوا عليه ، ومن عقوبة الله أن تناله كما تنال سائر البلدان من خسف وانتقال وغرق .

وقيل : ان مكة منذ وُجدت حرم آمن عقوبة الله وسطو الجبابرة وقيل : ان إبراهيم سأل ربه ذلك ، لأنه أسكن فيه ذريته وكان غير ذى زرع ولا ضرع ، فاستعاذ ربه من أن يهلكهم بهـا جوعاً وعطشاً ، ودعاه أن يؤمنهم مما حذر عليهم منه ، كما أنه دعاه أن يرزق المؤمنين من أهل مكة من الثمرات دون كافريهم .

فأجاب الله دعاءه وقال له : أجبت دعاءك ، وسأرزق مع مؤمنى أهـل هذا البلد كافرهم أيضاً ، فأمتعه قليلاً برزق من الثمرات فى الدنيا إلى أن يأتيه أجله ، ثم أدفعه إلى عذاب النار ، وأسوقه سحباً وجراً على وجهه ؛ وهذا المصير السيء لكل كافر ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ

مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ البقرة

فكانت الكعبة أول بيت وضع للناس للعبادة فى حين أن بقية الشعوب والقبائل فى سائر أنحاء الأرض كانوا يبنون البيوت لعبادة الأصنام والتماثيل .

وكان هذا البيت الحرام مباركاً وهدًى للعالمين ، ومآباً لعبادة العابدين ، وطواف الطائفين ، تعظيماً وإجلالاً لله ، وفيه علامات وآيات بينات ، وهى مقام إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) والمشعر الحرام ، وكل من دخله كان آمناً على نفسه من المخاوف ، ومن عذاب النار ، لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ آل عمران

طاعة إسماعيل لوالده إبراهيم (عليهما السلام)

لذبحه امتثالاً لأمر ربه وشجاعته

جاء فى القرآن الكريم قصة ذبح إبراهيم لولده إسماعيل عليهما السلام ، وقيامه بذلك امتثالاً لأمر ربه إلى أن أوحى إليه بالامتناع

عن ذبحه وفدائه بكبش عظيم عوضاً عنه وهى :

أن سيدنا إبراهيم عليه السلام رأى فى منامه أنه يقدم على ذبح ولده إسماعيل ليقدمه قرباناً لله ، فصدع بالأمر الصادر إليه فى المنام (ومنام الأنبياء وحى من الله فهو صدق وحق)

ولما عرض الأمر على ولده إسماعيل عليه السلام تقبله بالرضاء ، وقال لوالده : يأبتِ افعل ماتؤمر ، ستجدنى إن شاء الله مطيعاً لأمر ربى ، وستجدنى من الصابرين ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

الصافات

فلما استسلما لأمر الله ، وصرع إبراهيم ولده إسماعيل على وجهه ليذبحه نودى يابراهيم لقد صدقت الرؤيا بالحق فكف عن ذبح ولدك . فالتفت فإذا بكبش كبير ، فأخذه وذبحه وأخلى سبيل ابنه ، وأكبَّ على ابنه يقبله وهو يقول : اليوم يابنى قد وُهبت لى ، ويقول الله ما معناه : إنا كما جزيناك خيراً وإحساناً منا لطاعتك لنا يابراهيم كذلك نجزى الذين أحسنو وأطاعوا أمرنا وعملوا على مرضاتنا ، قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ

الرُّؤْيَا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ الصافات

وإن أمرنا إياك يابراهيم بذبح ابنك لهو اختبار منا لك ، يظهر لمن فكر فيه أنه بلاء شديد ومحنة عظيمة .

وقد فديناه بكبش عظيم ، وأنقذناه من الذبح ، وأبقينا له الثناء الحسن فى الآخرة ، وتلك مِنَّة من الله لإبراهيم أن يذكره من بعده بالذكر الجميل ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

الصافات

واليهود يزعمون أن الذبيح هو إسحٰق لا إسماعيل ، وهذا خلاف ماقرره العلماء ، والله تعالى أعلم .

صدق إسماعيل (عليه السلام) ووفائه

إن إسماعيل عليه السلام كان صادقاً لا يكذب ، ووفياً لا يخلف وعده ، ولذا قال الله فى حقه لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ مريم

أى اذكر يا محمد فى القرآن الذى أوحيناه إليك ، أن إسماعيل بن إبراهيم كان لا يكذب ، ولا يخلف وعده ، فكان إذا وعد ربه أو عبداً من عباده وعداً ، قام وأوفى به .

قال سهيل بن عقيل : إن إسماعيل عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه . فجاء ونسى الرجل ، فظل إسماعيل وبات حتى جاء الرجل فى الغد ، فقال له : ما برحت من ههنا ؟ قال : لا . قال الرجل : إنى نسيت . قال إسماعيل : لم أكن لأبرح حتى تأتى .

فهكذا يكون الصدق والوفاء فى الأنبياء وغيرهم .

وكان إبراهيم عليه السلام ، يأمر أهله بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وكان عمله هذا عند ربه مرضياً محموداً ، لقوله تعالى :

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾

مريم

رسالة إسماعيل إلى الناس

وقد أرسل الله تعالى إسماعيل عليه السلام إلى قبائل اليمن ، وإلى العماليق (١) ليدعوهم إلى وحدانية الله وعبادته ، وكانت العمالقة ساكنين فى جزيرة العرب من جهة الشام .

---

(١) العماليق جمع عملاق وهو الرجل الطويل القامة

ولما تكاثر نسله ، وبارك الله فيه ، وجعل له القوة على غيره ، أخرج العماليق فانتشروا فى جهات كثيرة ، وكانت لهم اليد العليا فى كل ناحية وصلوا إليها .

عمر إسماعيل ووفاته ومحل موته

قيل : إن إسماعيل عليه السلام عاش ١٣٧ مائة وسبعاً وثلاثين سنة .

وقيل : إنه مات بفلسطين ، ولكن مؤرخو العرب قالوا : إنه مات بمكة ، ويظن أنه دفن (بالحجر) الذى بجوار البيت الحرام هو وأمه ، والله تعالى أعلم .

٩ - قصة إسحاق (عليه السلام)

سيدنا إسحٰق عليه السلام ويقال له (يصحق) بالعبرانية، ومعناها يضحك؛ هو ابن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام من زوجته السيدة (سارة) وإنما سمى بذلك لأن أمه ضحكت فى نفسها حينما بشرها الملك بأن يكون لها ولد، وهى قد شاخت وفاتت سن الولادة، و لذلك إبراهيم قد بلغ من العمر مائة سنة، ولكن لما كان وعد الله لإبراهيم بإقامة النسل من ولده إسحٰق لم يخلف الله وعده، وولد إسحٰق سنة ٢١٠٨ قبل الميلاد، وكان به لوالديه فرح لا يوصف.

ولما رأت السيدة سارة أنه قد صار لها ابن كبر عليها أن يشترك معه فى ميراث أبيه إسماعيل ابن جارتها (هاجر) فطلبت من إبراهيم أن يقصيه وأمه عنها، وأراد الله ما طلبته كما مرّ ذلك فى قصة إسماعيل عليه السلام.

ولم يذكر فى القرآن الكريم من قصة إسحٰق عليه السلام إلّا البشارة به، وأنه غلام عليم، وأنه نبى من الصالحين، وأن الله بارك عليه لقوله تعالى:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ الصافات.

ولما تكاثر نسله ، وبارك الله فيه ، وجعل له القوة على غيره ، أخرج العماليق فانتشروا فى جهات كثيرة ، وكانت لهم اليد العليا فى كل ناحية وصلوا إليها .

عمر إسماعيل ووفاته ومحل موته

قيل : إن إسماعيل عليه السلام عاش ١٣٧ مائة وسبعاً وثلاثين سنة .

وقيل : إنه مات بفلسطين ، ولكن مؤرخو العرب قالوا : إنه مات بمكة ، ويظن أنه دفن (بالحجر) الذى بجوار البيت الحرام هو وأمه ، والله تعالى أعلم .

٩ - قصة إسحاق (عليه السلام)

سيدنا إسحٰق عليه السلام ويقال له (يصحق) بالعبرانية، ومعناها يضحك؛ هو ابن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام من زوجته السيدة (سارة) وإنما سمى بذلك لأن أمه ضحكت فى نفسها حينما بشرها الملك بأن يكون لها ولد، وهى قد شاخت وفاتت سن الولادة، و لذلك إبراهيم قد بلغ من العمر مائة سنة، ولكن لما كان وعد الله لإبراهيم بإقامة النسل من ولده إسحٰق لم يخلف الله وعده، وولد إسحٰق سنة ٢١٠٨ قبل الميلاد، وكان به لوالديه فرح لا يوصف.

ولما رأت السيدة سارة أنه قد صار لها ابن كبر عليها أن يشترك معه فى ميراث أبيه إسماعيل ابن جارتها (هاجر) فطلبت من إبراهيم أن يقصيه وأمه عنها، وأراد الله ما طلبته كما مرّ ذلك فى قصة إسماعيل عليه السلام.

ولم يذكر فى القرآن الكريم من قصة إسحٰق عليه السلام إلّا البشارة به، وأنه غلام عليم، وأنه نبى من الصالحين، وأن الله بارك عليه لقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحٰقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ الصافات.

وأنه من عباد الله المخلصين ، ومن أهل القوة والطاعة على عبادته ، ومن ذوى العقول الراجحة الذين خصهم الله بحسن الذكرى فى الدار الآخرة ، فعملوا لها فى الدنيا ، وأنه من الذين اصطفاهم الله من الأخيار ، واختارهم لطاعته ورسالته إلى خلقه ، لقوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ ص .

وأن الله سبحانه وتعالى وهبه وتفضل به على إبراهيم ليكون من الرجال العاملين بطاعة الله ، المجتنبين لمحارمه ، وجعله من الأئمة الذين يهدون الناس إلى طريق الحق ، ويقتدى بهم فى العمل بأمر الله ، والدعوة إلى عبادته من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لقوله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ الأنبياء .

هذا ما جاء فى القرآن الكريم من ذكر قصة إسحٰق عليه السلام .

أما قصته فى التوراة فملخصها ، نقلاً عن كتاب قصص الأنبياء لفضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار (ص ٨٨) ما يأتى :

إن إبراهيم (عليه السلام) لما شاخ أتى بعبده المستولى على بيته وأحلفه على أنه لايأخذ لابنه إسحٰق زوجة من بنات الكنعانيين الموجودين فى (فلسطين) بل يأخذ له زوجة من عشيرته وبنى أبيه ، فذهب العبد إلى (آرام) التى بها أسرة (ناحور) أخى إبراهيم وخطب له فتاة حسنة وهى (رفقة) بنت (بتوئيل) فأجابه والدها إلى ما طلب وذهب بها إلى ديار سيده وكانت (رفقه) عزاء لإسحٰق بعد موت أمه ، وقد رزق منها بتوأمين هما (عيسو) أوعيص (ويعقوب) وكان خروجهما من بطنها بهذ الترتيب

وكان عيسو فى كبره مغرماً بالصيد ، ويعقوب وادعاً ، فأحب إسحٰق عيسو ، وأحبت رفقة يعقوب لكثرة برّه بها ، وكان فى ذلك الزمن للبكر امتياز على غيره فى الميراث بحق البكورية ، فجاء عيسو يوماً متعباً لم يظفر بصيد ، وقد هيأ يعقوب طعامه من عدس ، فأراد أن يأكل منه ، فأبى عليه ذلك ، إلّا أن ينزل له عن حق البكورية ففعل

تغرب إسحٰق

وقد جاء فى التوراة أيضاً ، أنه حصلت مجاعة فى الأرض فى عهد إسحٰق كما حصلت فى عهد إبراهيم ، فذهب إسحٰق من (بئر سبع) إلى (جرار) عند أبى مالك ، وقالت رفقة عن زوجها إسحٰق : إنه أخى ،

وهو أيضاً قال : إنها أختى . ورأى الرجل إسحٰق يلاعبها . فعلم أنها زوجته ، فعاتب إسحٰق ، وحصل لهما كما حصل فى شأن إبراهيم وسارة .

ومما يذكر أن إسحٰق أعطاه الله هناك أى فى (جرار) أموالاً كثيرة ، وعبيداً حتى حسده الأهالى حسداً شديداً ألجأه إلى الخروج من بينهم ، فرجع الى (بئر سبع) وتوطن هناك

وقد توفى إسحٰق بعد أن عاش ١٨٠ مائة وثمانين سنة ، ودفن بمغارة فى (جيرون) وهى مدينة الخليل اليوم

١٠ - قصة يعقوب (عليه السلام)

يعقوب عليه السلام هو ابن إسحٰق بن إبراهيم عليهما السلام ، وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم أنه نبى صالح ، وأن الله هداه كما هدى نوحاً من قبل ، لقوله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾

الأنعام

أما فى التاريخ فقيل :

قد بعث الله تعالى يعقوب نبياً إلى أهل (كنعان) وكان ملكهم يومئذ (سلجم) من ولد (دارا) فلما نزل يعقوب عليه السلام بأرض (كنعان) وبنى بها داراً واسعةً نزل بها هو وأولاده ، قيل : هى مدينة (نابلس) وهناك مرعاه (لأنه كان صاحب زرع وماشية) فبلغ الملك ذلك فخرج بجميع جنوده يريد إهلاكه . فلما بلغ إلى مكان يعقوب نظر إلى دار وهنة فندم على المجىء إلى هناك واجتمع مع يعقوب وجلس بين يديه وقال له : مَن أنت ؟ وكيف نزلت فى هذا المكان بغير إذنى ؟ فقال : أنا يعقوب بن إسحٰق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله ، ونزلت فى هذا المكان بإذن الله تعالى ، وإنى بعثت لأدعوك وقومك إلى الإيمان بالله تعالى ، والإقرار بأنى عبده ، فإن

أجبت ، وإلا جاهدتك فى الله حق جهاده . فغضب الملك وقال له : لِمَ تجاهدنى وليس معك جند ؟ فنظر يعقوب إلى أولاده الاثنى عشر ، وكانوا قياماً على رأسه فقال : أجاهدك بالله ، وملائكته ، وهؤلاء الأولاد . فغضب الملك وانصرف إلى حصنه ، وأخذ يعقوب يدعوهم إلى دين الإسلام فلم يقبلوا ، ولم يؤمنوا ، فأمر أولاده بالجهاد ، فقال (شمعون) : يا نبى الله أنا أكفيك أمر هذا الحصن ، فأذن له فوقف على باب الحصن وقال : اللهم افتح لنا وأنت خير الفاتحين ، بسم الله إله إبراهيم وإسحق ويعقوب . وضرب برجله اليمنى باب الحصن فتدكدك الحصن ، وسقطت حيطانه ومات أكثر من فيه من الخوف ، ودخل يعقوب إلى الحصن وأولاده وانهزم الملك ، وغالب جنوده ، وغنموا كل ما فيه .

ثم هاجر يعقوب وسار إلى خاله (لابان) فى (فلسطين) فكان يسير بالليل ، ويكمن بالنهار ، فسُمى لذلك : إسرائيل .

فبينما هو يسير أدركه النوم فى بعض الطرق فبات متوسداً حجراً ؛ فرأى رؤيا (ورؤيا الأنبياء وحىٌ من الله) أن الله أوحى إليه : أنى أنا الله لا إله إلا أنا إلهك وإله آبائك ، وقد أورثتك هذه الأرض المقدسة وذريتك من بعدك ، وباركت فيك وفيهم ، وجعلت فيكم الكتاب ، والحكم ، والنبوة ؛ فسار إلى خاله (لابان) وكان له بنتان (ليا ، وراحيل) فتزوجهما وكان الناس يومئذ يجمعون بين الأختين ، وقد حرم الله ذلك فيما بعد لقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ النساء .

وكان يعقوب فى غبطة وسرور منهما ، وكان لهما جاريتان أختان : (بَلْهَة وزِلْفا) فوهبته كل واحدة منهما جاريتها ، فجمع بين أختين حرتين ، وأختين أمتين فولد له من (لَيَّا) ستة من الأسباط وهم : روبيل[١] . ويهوذا[٢] . وشمعون[٣] . ولاوى[٤] . وإيساخر[٥] . وزبولون[٦] .

وولد له من (راحيل) يوسف عليه السلام وأخوه بنيامين .

وماتت (راحيل) من نفاس (بنيامين) ودفنت خارج بيت المقدس على الشارع الذى بقرب (بيت لحم) .

وولدت كل من الجاريتين رهطين من الأسباط وهم : (دانا[٧]) . (ونفتالى[٨]) من بَلْهَة جارية (راحيل) ، وجاد[٩] . وأشير[١٠] من زِلْفا جَارِيةَ ليَّا .

وسمُّوا بالأسباط لأن كل واحد منهم ولد له قبيلة .

والسبط فى كلام العرب الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان .

ثم اشتاق (يعقوب) لرؤية أمه وسار بأهله وأولاده ، وهم اثنا عشر ذكراً ، إلى أرض (كنعان) ، وكان أخوه (عيسو) ذا سلاح وقوة ، وكان قد سمع بوصول أخيه فاستقبله فتلاقيا وتعانقا .

---

١ ـ روبيل (أى العظيم) ـ ٢ يهوذا (أى الشاكر) ـ ٣ شمعون (أى الطائع) ٤ ـ لاوى (أى التام) ـ ٥ إيساخر (أى حاضر الرجاء) ـ ٦ زبولون (أى النجاة من هول الليل) ـ ٧ دانا (أى الحكم) ـ ٨ نفتالى (أى المتضرع) ـ ٩ جاد (أى الحظ) ـ ١٠ أشير (أى المجد) (عن مجانى الأدب) .

وكان ليعقوب مواش كثيرة ، فأعطى العشر من غنمه لأخيه ، فانتقل بها إلى بلاد الروم ، فاستوطنها فهو (أبو الروم) .

وقيل : إن يعقوب وعيسو ، ماتا فى يوم واحد ، وقيل عاش يعقوب عليه السلام فى أرض مصر بعد أن اجتمع بولده يوسف سبع عشرة سنة وكان عمره ١٤٧ مائة وسبعاً وأربعين سنة ، وتوفى بمصر ، وحمله ابنه يوسف عليه السلام ودفنه عند قبر أبيه إبراهيم عليه السلام .

وصية يعقوب لأولاده

وقد جاء فى القرآن الكريم أن سيدنا يعقوب عليه السلام أوصى بنيه بما أوصى به إبراهيم عليه السلام بنيه من الحث على طاعة الله ، والخضوع له ، واتباع قواعد الإسلام ، لقوله تعالى :

﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ البقرة .

وهذه الوصية تنحصر فى قوله لهم : إن الله اصطفى لكم الدين القيم الذى قد عهد إليكم فيه ، فاتقوا الله ولاتموتوا إلا وأنتم مسلمون ، كما قال الله تعالى :

﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

البقرة

١١ - قصة يوسف الصديق

عليه السلام

يوسف الصديق عليه السلام ، سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكريم ، بن الكريم ، بن الكريم ، بن الكريم ، فهو يوسف بن يعقوب ابن إسحٰق ، بن إبراهيم عليه السلام

كان جميل الصورة ، حسن الوجه ، وكان أبوه يعقوب يؤثره بزيادة المحبة على إخوته ، وكان ذلك سبباً فى حقد إخوته عليه ، وسبباً فى محنته التى كانت خيراً ، وبركة عليه وعلى مصر ، وعلى الأمم القريبة من مصر .

وقد ذكرت قصة يوسف فى القرآن الكريم فى سورته المعلومة ، وهى مشروحة فيما يأتى :

إن يوسف عليه السلام رأى فى منامه أن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر تسجد له فقصّ هذه الرؤيا على أبيه، وكان عمره وقتئذ اثنتى عشرة سنة. فقال له أبوه : يا بُنىّ لا تخبر إخوتك بهذه الرؤيا فيدبروا حيلةً لإهلاكك ، لأن الشيطان للإنسان عدوّ مبين ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

وكما أن الله اصطفاك فأراك هذه الرؤيا ، يصطفيك للنبوة والملك ويعلمك تعبير الرؤيا ، ويتم نعمته عليك بالنبوة ، وعلى آل يعقوب بالتقوى والصلاح ، كما أتمها على أبويك إبراهيم وإسحٰق من قبل ، إن ربك عليم بأهل الفضل ، حكيم لا يقضى إلاَّ ما ينبغى أن يكون ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

حسد إخوته وحقدهم عليه واتفاقهم على قتله

ولما رأى أبناء يعقوب شدة حب أبيهم ليوسف وإيثاره عليهم اشتد بهم الغيظ والحسد والحقد ، وهم فى شرخ الشباب ، وطيش الحداثة ، فأضمروا له الشر ، وسعوا فى التفريق بينه وبين أبيه ، فقالوا : إن يوسف وأخاه (بنيامين) من أمه أحب إلى أبينا منا ، ونحن جماعة أقوياء أشداء نافعون له ، وأحق بمحبته ، وأجدر بمعونته ، إن أبانا إذاً لفى خطإ عظيم

فى إيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبة .

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

وأجمعوا أمرهم على قتله ، وقال بعضهم لبعض : اقتلوا يوسف أو ألقوه فى أرض من الأراضى يخل لكم وجه أبيكم عن شغله بيوسف ، فإنه قد شغله وصرف وجهه عنا إليه ، وتكونوا من بعده قوماً صالحين بتوبتكم من قتله .

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ .

قال قائل منهم وهو « يهوذا » وبعضهم قال : (أرويل) وكان أكبر القوم وأفضلهم ، وأرجحهم عقلاً : لا تقتلوا يوسف ، فإن القتل ذنب عظيم ، بل ألقوه فى قعر بئر يلتقطه بعض المارة إن كنتم ولا بد فاعلين .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

وأخذ عليهم العهود أنهم لا يقتلونه ، فأجمعوا عند ذلك على أن يدخلوا على يعقوب ويكلموه فى إرسال يوسف معهم إلى البرية ، وأقبلوا عليه ، ووقفوا بين يديه ، فلما رآهم قال لهم : ما حاجتكم ؟

قالوا : يا أبانا مالكَ لا تأمنا على يوسف ؟ والحال أننا عليه مشفقون ، وله ناصحون ، أرسله معنا إلى الصحراء يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون ، نحفظه حتى نرده إليك سالماً .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وكان يعقوب قد أحسَّ بالشر الذى يضمره بنوه لأخيهم يوسف ، ولم يرد أن يظهر لهم تخوفه من جانبهم ، فقال لهم : إنه ليحزننى أن تذهبوا بيوسف ، لأنى لا أطيق وقع فراقه على نفسى ، وأخاف أن يختطفه الذئب منكم فيأكله وأنتم عنه لاهون « والله يعلم أنه يتخوف عدوانهم على ولده أكثر مما يتخوف من عدوان الذئب » .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ .

فأجابوه قائلين : لئن أكله الذئب ونحن جماعة كثيرون نكون إذاً عاجزين هالكين .

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ .

تنفيذ مؤامرتهم بإلقاء يوسف فى غيابة الجُبِّ لهلاكه

فلما سمع يعقوب منهم ذلك اطمأن إليهم وأرسله معهم . فلما ذهبوا به إلى البرية ، أجمعوا رأيهم ، وعزموا على إلقائه فى غيابة الجُبِّ ، وأظهروا له العداوة ، وجعل بعض إخوته يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ، ولم يجد منهم أخاً رحيماً ، وجعلوا يضربونه ، حتى كادوا يفتكون به ؛ فأخذ يصيح ويقول : يا أبتاه ! (يايعقوب) لو تعلم ما صنع بابنك بنو الإماء . فلما كادوا يقتلونه قال لهم يهوذا : أليس قد أعطيتمونى موثقاً ألاّ تقتلوه ، فانطلقوا به إلى الجُبِّ ليطرحوه فيه ، وأوثقوه كتافاً ، ونزعوا قميصه ، وألقوه فيه

فقال لهم : يا إخوتاه ردوا علىّ قميصى أتوارى به فى الجُبِّ .

فقالوا : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك .

قال : إنى لم أرَ شيئاً . فأدلوه فى الجُبِّ حتى إذا بلغ نصفها ألقوه حتى يموت ، وكان فى البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فيها فقام عليها ، ثم نادوه فظن أنهم رحموه فأجابهم ، فأرادوا أن يرجموه بالحجارة ، فمنعهم يهوذا ثم أوحى الله إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون بالوحى

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

تلطيخ قميصه بدم كذب لإخفاء الجريمة

ثم عمدوا إلى سخلة (جدى) من الغنم فذبحوها ، ولطخوا قميص يوسف بدمها ، ورجعوا إلى أبيهم يعقوب فى العشاء ، وكان ينتظر مجيئهم لتعلق قلبه بيوسف

فلما دنوا منه صرخوا صراخ رجل واحد ، ورفعوا أصواتهم بالبكاء والعويل ، فعلم يعقوب أنهم قد أصيبوا بمصيبة

فلما أقبلوا عليه اجتمعوا وتقدموا بين يديه ، وأكثروا من البكاء ، فقزع يعقوب وقال لهم : ما لكم يابنى ، وأين يوسف ؟

قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا للسباق والنضال ، والرمى بالسهام ، وتركنا يوسف عند متاعنا ، فأكله الذئب ، وأنت لست بمصدقنا ولو كنا صادقين

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾

فبكى الشيخ وصاح بأعلى صوته وقال : أين القميص ؟ فجاءوه بالقميص عليه دم كذب ، فأخذ القميص وطرحه على وجهه ، ثم أخذ يبكى حتى تخضب وجهه من دم القميص ، ولما لم يجد بالقميص تمزيقاً ولا قطعاً قال لهم متهكماً : ما أحلم هذا الذئب الذى افترس ولدى ولم يمزق

قميصه ، ولم يُعمِل فى قميصه ناباً ولاظفراً ، ثم قال لهم : لقد سوّلت لكم أنفسكم ارتكاب ذنب عظيم ، فصبر جميل ، وربى المعين على احتمال ماتقولون .

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

إنقاذ يوسف من الجُبّ

وأقام يوسف فى الجُبّ ثلاثة أيام وكان قليل الماء ، وجاءت سيّارة (قافلة) فبعثوا من يستقى لهم ، فأدلى دلوه فى البئر الذى به يوسف فتعلق به ، فلما نزع الدلو بحسبها قد امتلأت ماء فإذا بهـا غلام وسيم (حسن الوجه) فاستبشر الرجل وقال : يا بشرى هذا غلام !

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾ .

واتفق وارد القوم الذى أدلى دلوه ومن معه من أصحابه من رفقته بالقافلة ، على أن لا يقولوا أنهم اشتروه من سادته أصحاب المـاء خيفة أن يطلبوا منهم الاشتراك معهم فيه ، فقال : إن أهل الماء استبضعونا هذا الغلام . والله عليم بما يعمله باعة يوسف ومشتروه فى أمره .

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ .

بيع يوسف لعزيز مصر

ثم جاء (يهوذا) بطعام ليوسف حسب عادته فلم يره فى الجب فنظر فرآه عند مالك فى المنزل فأخبر إخوته بذلك ، فأتوا مالكاً وقالوا له : هذا عبد (آبق) هارب منا ، فاشتراه منهم بثمن بخس قيل : عشرون درهماً ، وكانوا فيه من الزاهدين .

ثم ذهبوا به إلى مصر وعرضوه للبيع فاشتراه (إطفير) عزيز مصر وكان وزيراً على خزائن مصر ، وكان الملك على مصر يومئذ (الريان بن الوليد) رجل من (العماليق) ثم مضى به العزيز وقال لامرأته (راعيل أو زليخا) : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا إذا فهم الأمور ، أو نتخذه ولداً ، لأنه لم يكن له ولد ، وليس عنده ميل للنساء .

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ .

ولما رأى فى يوسف الذكاء والأمانة والعلم جعله صاحب أمره ونهيه ، والرئيس على خدمه ، والمتصرف فى بيته بحيث لم يكن لأحد ممن فى الدار كلمة

أعلى من كلمة يوسف سوى كلمة سيده وسيدته ، وهـذا إكرام من الله له ، وحسن جزائه إليه

ولما أنقذ الله يوسف من أيدى إخوته (وقد همّوا بقتله بالقائه فى الجب) وأخرجه من الجب صيره إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر ، ومكن له فى الأرض وجعله على خزائنها ، وتولاه بالهداية والتربيـة والتوفيق ، وعلمـه من لدنه علماً عظيماً ، وهو (تعبير الرؤيا) والله غالب على أمره ، فعّال لما يريد ، ولكن أكثر الناس الذين زهدوا فى يوسف وباعوه بثمن بخس ، والذين صار معهم من أهـل مصر لايعلمون ما الله صانع بيوسف

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ولما بلغ يوسف منتهى شدته وقوته فى شبابه ، آتاه الله حكماً وعلماً ، وجزاه أحسن الجزاء ، وكذلك يجزى الله المحسنين من عباده القائمين بأمره ، المهتدين إلى طاعته

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

محنة يوسف بحب امرأة العزيز له

وما حصل له معها

كانت نعمة الله تعالى على يوسف بالحسن والجمال الرائع سبباً فى محنته . من حيث أن امرأة العزيز لما نظرت إليه ، ورأت حسنه وجماله شغفها حبه وعشقته ، فأخذت تداعبه ، وهو يعرض عنها لشدة إيمانه بالله ، ومخافة عصيانه ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ولطهارة أخلاقه ، تلك الطهارة التى ورثها عن أبيه وجده وجد أبيه ، ولأمانته وعدم قبوله خيانة سيده الذى ائتمنه على ماله وعرضه ، ومكّن له فى بيته ، وجعله المتصرف فى أمواله وخدمه ، ووثوقه به ثقةً عظيمةً

كل ذلك كان كافياً لحفظ سيده فى أهله ، والابتعاد عن تدنيس شرفه وكرامته ، وإعراضه عن امرأته التى هاج بها الغرام ، فراودته عن نفسها ، وأخذت عدتها لتنفيذ رغبتها ، وغلقت الأبواب ، وقالت ليوسف : هيت لك (فهلم بنا) فأبى عليها ذلك ، وقال لها : معاذ الله ، أعتصم بالله ، وأستجير بالله من هذا الفعل المنكر ، إن سيدى (أى بعلها) أحسن منزلتى وأكرمنى وائتمننى فلا أخونه فى أهله ، والله ، إن الذى تدعيننى إليه لظلم فاحش ولا يفلح الظالمون ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ

وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

ولما همَّت بيوسف امرأة العزيز ودعته إلى نفسها أراد أن يهمَّ بها إجابة لنداء الطبيعة البشرية القاهرة ، لولا أنه نظر بعين البصيرة ، فرأى البرهان الساطع ، والدليل القاطع ، وهو عصمة الأنبياء ، من ارتكاب الفحشاء ، فاستعصم ، وحرص كل الحرص على طاعة ربه ، وتمسك بآداب آبائه ، وأخلاقهم الطاهرة الزكية ، ولذا صرف الله عنه السوء والفحشاء وجعله من عباده الصالحين ، المخلصين فى عبادته وطاعته .

وقد اعترفت امرأة العزيز نفسها بأنها هى التى راودته عن نفسه فاستعصم كما سيجىء ذكره ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

وقام يوسف مولياً وجهه شطر الباب هارباً مما أرادته ، فاتبعته وأدركته وتعلقت بقميصه من خلفه ، فجذبته إليها مانعةً له من الخروج ، فخرقت قميصه ، وشقته من خلفه ، لأن يوسف كان الهارب ، والمرأة كانت الجاذبة الطالبة ، واستبقا الباب فوجدا سيدها العزيز وابن عمها معه قائمين على باب البيت ، فلما رأته هابته وقالت له : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا

أن يسجن أو يعذب عذاباً أليماً ، ولطخته مكانها بالسيئة خوفاً من أن يتهمها صاحبها بالفجور

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

تبرئة يوسف مما اتهمته به امرأة العزيز

فلما سمع يوسف عليه السلام ذلك اضطر إلى تبرئة نفسه الطاهرة الزكية فقال : هى راودتنى عن نفسى فهربت منهـا ، فأدركتنى فقدّت قميصى من خلف (أى قطعته وشقته طولاً)

فقال ابن عمها : تبيان هذا فى القميص ، فإن كان قُدَّ من أمام فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قُدَّ من خلف فكذبت وهو من الصادقين، فأتى بالقميص فوجده قُدَّ من دبر (خلف) فقال : إن هـذا الفعل من كيدكن ، إن كيدكن عظيم

« وقيل : إن الشاهد كان صبيًّا فى المهد »

فقال زوجها ليوسف : يوسف أعرض عن هذا (أى لا تذكر ما كان منها لأحد)

ثم قال لزوجتـه : استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين المذنبين

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

وذنبها طلبها الفحشاء من يوسف ، وافتراؤها عليه بأنه هو الذى راودها عن نفسه وأراد بها السوء والفحشاء .

شيوع الخبر فى المدينة وتحدث النساء به

ثم شاع أمر يوسف وامرأة العزيز بين الناس فى أرجاء المدينة ، وأكثر بعض نساء الأشراف من التحدث بهذه الحادثة ، ووجهن سهام الطعن والملام ضدها قائلات : إنها فى ضلال عظيم .

فلما بلغ امرأة العزيز اغتيابهن لها أخذت فى الكيد لهن ليعذرنها فيه ، ولا يعذلنها ، فأرسلت إليهن ، وهيأت لهن مكاناً أنيقاً ، فيه من النمارق والوسائد ما يتكئن عليه ، وقدمت إليهن طعاماً مما يحتاج قطعه إلى السكين ، قيل : أنه التفاح وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، وبينما هن يقطعن ماهيأت لهن أمرت يوسف أن يخرج عليهن .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ .

فلما خرج يوسف عليهن ورأينه بهرهن جماله ، وشغلهن حسنه عن قطع الفاكهة التى كانت بأيديهن ، فصرن يقطعن أيديهن ، وهن لا يشعرن بألم الجرح ، وأعلنّ إكبارهن وإعظامهن لذلك الجمال الرائع وقلن : حاش لله ليس هذا بشراً ، ولكنه ملك كريم .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

عند ذلك باحت امرأة العزيز بحبها وشغفها بيوسف وقالت لأولئك النسوة :

هذا هو الذى لمتننى فى حبى إياه ، وشغف فؤادى به ، وقلتنّ قد شغف امرأة العزيز فتاها حباً ، ونسبتن إلىّ الضلال .

ثم اعترفت وأقرت لهن بأنها هى التى راودته عن نفسه ، وأن الذى تحدثن به عنها فى أمره حق ، وقالت : لقد راودته عن نفسه فاستعصم وامتنع ،

فإن لم يطاوعنى ويجبنى إلى ما أدعوه إليه من قضاء شهوتى ليحبسنّ فى السجن ويكون ذليلاً صغيراً .

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ .

ولما توعدته بالسجن والحبس إن لم يفعل ما دعته إليه اختار السجن على معصية الله وقال : ربِّ السجنُ أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ؛ ثم دعا ربه وقال : إن لم تدفع عنى يا رب فعلهن الذى يردن أن يفعلنه بى وهو مراودتهن إياى عن نفسى أخاف أن أميل إليهن وأتابعهن فى إغوائهن لى ، وأكون حينئذ من الجاهلين ، أى جاهلاً إذا ارتكبت معصيتك .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

فاستجاب له ربه ، وصرف عنه كيدهن ، ونجاه من ارتكاب المعصية معهن ، وكان الله سميعاً لدعائه ، عليماً بمطلبه وحاجته ، وما يصلحه ، وبحاجة جميع خلقه وما يصلحهم ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

ولما يئست امرأة العزيز من موافقة يوسف لها شكت لزوجها وقالت له : إن هذا الفتى قد فضحنى بين الناس .

فرغماً مما رآه العزيز من الآيات الدالة على إجرام امرأته وهى قَدُّ القميص ، وشهادة الشاهد من أهلها ، وتقطيع النسوة أيديهن ، واعترافها بأنها هى التى راودته عن نفسه أمامَهنَّ ، بدا له ولمشيريه أنه لا يخلصهم من العار الذى لحقه ولحق زوجته ، ويكفّ ألسنة الناس عنه وعنها ، إلا زج يوسف فى السجن ، ليعتقد الناس أنه ما حبس إلا لأنه آثم كاذب فى ادعاء البراءة ، وأن زوجة العزيز بريئة مما قذفت به ، وهذا مصداق قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَى حِينٍ ﴾ .

ما حصل ليوسف فى السجن ودعوته لدين الله

أُدخل يوسف السجن بدون جريمة ارتكبها ، ودخل معه السجن فتيان : أحدهما صاحب شراب الملك ، والثانى صاحب طعامه وخبزه (قيل إن الملك غضب على خبازه لأنه بلغه أنه يريد أن يسمه فحبسه ، وحبس صاحب شرابه ظناً منه أنه مالأه على ذلك فحبسهما مع يوسف) فسألاه عن صنعته وعمله فقال لهما : أنا أفسر الأحلام ، وأعبر الرؤيا .

فقال أحد الغلامين لصاحبه : هَلمَّ نجرب هذا العبد العبرانى ، فأتاه صاحب شراب الملك وأخبره : أنه رأى فى منامه أنه يعصر فى كأس الملك خمراً ؛ وجاء الخباز وقال له : إنى رأيت فوق رأسى طبقاً من الخبز والطير تأكل منه ، وطلبا إليه أن ينبىء كل واحد منهما بتأويل ما رأى فى منامه ، وقالا له : إنا نراك من المحسنين لنا إن عبرت لنا رؤيانا .

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

فاغتنم يوسف الفرصة وأخذ ينوه بشأن نفسه أمامهما ، حتى يجذب نفوسهما نحوه ، ليمكنه دعوتهما إلى الإيمان ، وذلك هو أعظم ما يبتغيه وأخذ يقول لهما : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . فقالا له : هذا فعل الكهنة والسحرة . فقال لهما : ما أنا بكاهن ولا بساحر ، ولكن ذلك مما علمنى ربى بتركى ملة الأقوام الكفار الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، واتباعى ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فكنا نعبد الله وحده لا نشرك به أحداً ، فليس لأحد أن يشرك بالله شيئاً ، وذلك كله من فضل الله علينا وعلى الناس إذ أرسلنا إليهم دعاةً إلى توحيده وطاعته ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضل الله عليهم بما أنعم به عليهم من عبادته :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم أن يوسف (عليه السلام) سأل صاحبيه (الغلامين) قائلاً لهما : أعبادة أرباب شتى متفرقين ، وآلهة لا تنفع ولا تضر خير ، أم عبادة المعبود الواحد القهار ، الذى لا ثانى له فى قدرته وسلطانه ، الذى قهر كل شىء فأذله وسخره ، فأطاعه طوعاً ؟

قيل : إن يوسف عليه السلام قال لهما هذا القول ، لأنه كان يعلم أن أحدهما مشرك فدعاه بهذا القول إلى الإسلام ، وترك عبادة الآلهة والأوثان ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ؟ ﴾

ثم قال لهما : إنكم لا تعبدون من دون الله فى الواقع إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من دليل ولا حجة ، ولكنها اختلاق وافتراء منكم ومنهم ، واعلموا أن الحكم لله الواحد القهار ، الذى أمر أن لا تعبدوا أنتم وجميع خلقه إلاَّ إياه ، وذلك هو الدين القيم الذى دعوتكما إليه ، لا اعوجاج فيه ، والحق الذى لا شك فيه ، ولكن أكثر أهل الشرك بالله يجهلون ذلك ، فلا يعلمون حقيقته .

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ

الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وبعد أن فرغ وانتهى من دعوتهما إلى دين الله ابتدأ يفسر لهما رؤياهما لما ألحا عليه فقال : أما أحدكما فيسقى ربه (أى سيده) خمراً ، وهو الذى رأى أنه يعصر الخمر ، أى يعود إلى منزلته التى كان عليها عند الملك ، وأراد به الساقى صاحب الشراب

وأما الآخر ، وهو الذى رأى أن على رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، فيصلب وتأكل الطير من رأسه ، وأراد به صاحب الطعام

فلما سمعا قول يوسف عليه السلام قالا : ما رأينا شيئاً إنما كنا نلعب ونهزل ، ونجرب علمك ، فقال لهما : قضى الأمر الذى عنه تسألان ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

ثم إن يوسف عليه السلام رأى أن يجدَ الفرج من السجن والخلاص مما هو فيه من الضيق على يد الذى ظنَّ أنه ناجٍ منهما وهو الساقى فقال له: اذكرنى عند سيدك ، وأخبره بمظلمتى وأنى محبوس بغير جرم ، ولكن الشيطان أنسى الساقى ذكر ذلك فأوحى الله إلى يوسف : أاتخذت من دونى وكيلاً ؟ لأطيلن حبسك

فلبث يوسف فى السجن بضع سنين ، والمشهور أنه لبث بعد ذلك سبع سنين وتحقق تأويل المنام

وجاء عن الحسن قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : رحم الله يوسف لولا كلمته ما لبث فى السجن طول ما لبث (يعنى قوله : اذكرنى عند ربك) ولكن إنما عوقب باستشفاعه على ربه ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

الفرج ليوسف من السجن

لما قرب الفرج من السجن ليوسف عليه السلام رأى ملك مصر — وهو الريان ابن الوليد — رؤيا عجيبة هالته وفزع لها

وذلك : أنه رأى سبع بقرات سمان ، وسبع بقرات عجاف ، قبيحة المنظر ، خرجت من النهر فأكلت البقرات الأولى السمينة ؛ ثم استيقظ من منامه ، ثم عاد إلى رقاده فرأى سبع سنابل خضراء حسنة طالعة فى ساق واحد ، وخلفها سبع سنابل يابسات قد عدت على السنابل الخضر فأكلتها .

فلما أصبح الصباح جمع السحرة والكهنة وكل من له علم بتعبير

الرؤيا وتفسير الأحلام وسألهم عن تأويل هـذا المنام فلم يجد عند أحد منهم جواباً ، وقالوا له : هذه أخلاط أحلام كاذبة لا حقيقة لها ، وما نحن بتأويل الأحلام الكاذبة بعالمين ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ . قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾

فتذكر الساقي الذي نجا من القتل ، وهو أحد الغلامين اللذين كانا مع يوسف في السجن ، ما كان نسي من أمر يوسف ، وذكر حاجته للملك التي كان قالها له عند تعبير رؤياه وهي : اذكرني عند ربك بعد حين ، وقال : أنا أنبئكم بتأويله ، فأرسله الملك إلى يوسف في السجن ليقص عليه رؤياه

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

فلما التقى الساقي بيوسف قال له : يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات تأكل الخضر لعلي أظفر منك بجواب ، فأرجع إلى القوم فأخبرهم بتفسير هذه الرؤيا ليعلموها

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

فأجابه يوسف بتأويل هذا قائلاً : إن مصر يأتى عليها سبع سنين مخصبات يكثر فيها الخصب والرخاء فتجود الأرض فيها بالغلات الوافرة ، ثم يأتى بعدها سبع سنين مجدبة يحصل فيها الجدب والقحط وفرط الغلاء ، فتأتى على المخزون من السنين السبع التى تقدمتها ، ثم بعد ذلك تأتى أعوام الخصب والرغد ؛ وإن على أهل مصر أن يقتصدوا فى سنى الخصب ، ويخزنوا ما فضل من القوت فى سنابله ، حتى إذا حل الجدب والقحط وجدوا فى مخازنهم ما يسد الرمق ويمسك عنهم الضيق ، حتى يأتى الله بالخصب والغيث

فوصف البقرات السمان بسنى الخصب ، والبقرات العجاف بسنى الجدب والمحل ، وكذلك السنبلات الخضر والسنبلات اليابسات

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ . ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

فلما عاد الساقى إلى الملك وأخبره بما قاله يوسف عليه السلام من تأويل رؤياه ، ووقع فى قلب الملك أن الذى قاله يوسف مناسب ومتفق مع الرؤيا أمر بإحضار يوسف وقال : ائتونى بالذى عبر هذه الرؤيا لأجعله من المقربين إلىّ .

فلما جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام أبى أن يخرج معه حتى يعرف حقيقة أمره بما كانوا قذفوه به من شأن امرأة العزيز ، وأراد ألاّ يخرج من السجن إلا وهو ثابت البراءة ، مرفوع الرأس ، أبيض الصحيفة ، فقال للرسول : ارجع إلى سيدك فاسأله عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن فإن الله عليم بكيدهن .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ .

فرجع الرسول إلى الملك وأخبره بما قاله يوسف ، فدعا الملك النسوة اللاتى قطعن أيديهن وامرأة العزيز وقال لهن : ما خطبكن ؟ أى ما كان شأنكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ فأجبنه وقلن : حاشَ لله ما علمنا عليه من سوء ، وأنكرن أن يكن سمعن شيئاً يشينه وشهدن ببراءته .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ .

ولما رأت امرأة العزيز أن يوسف الذى زجت به فى السجن ظلماً وعدواناً قد أكرمه الله تعالى لعصمته وطهارته حتى صار من اهتمام الملك به أن يستدعيه ليستخلصه لنفسه ، أقرت واعترفت بما اقترفته وباحت بما كتمته عن زوجها ، فقالت : الآن حصحص الحق وظهر وانكشف ، وأنا التى راودته عن نفسه فاستعصم ، وإنه صادق فى دعواه .

﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ .

فلما سمع يوسف هذا الاعتراف منها قال : ليعلم الملك أننى لم أخن سيدى فى زوجته بالغيب (أى لم أرتكب فعل الفاحشة فى حال غيبته عنى) وأن الله لا يسدد كيد الخائنين ، وإنى ما فعلت ذلك تزكية لنفسى وعجباً بها ، فإن النفس لأمارة بالسوء ، إلا النفوس التى يرحمها الله فيعصمها من ارتكاب المعصية .

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يوسف بحضرة الملك

لما تبين للملك طهارة يوسف عليه السلام ، وعرف أمانته وبراءته وكفايته وعلمه وعقله قال : ائتونى به أستخلصه لنفسى (أى أجعله من خلصائى دون غيره) وحينئذ رأى يوسف أن ليس هناك مانعاً من الخروج ، فخرج مرفوع الرأس ، طاهر الذيل ، وجاء إلى الملك وكلمه فسرّ الملك من كلامه ، وأعجبه عقله وحسن تعبيره للرؤيا ، وقال له : إنك لدينا ذو مكانة ، ومؤتمن على كل شىء .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ .

ثم سأله عن أى عمل يرضاه لنفسه ، ويكون فيه سروره ؟

فقال يوسف : اجعلنى على خزائن الأرض ، فإنى حفيظ وأمين على ما يخرج منها من الغلات والخيرات ، عليم بوجوه تصريفها .

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ومن فضل الله على يوسف ورحمته أنه مكّن له فى الأرض مكاناً علياً (وهى أرض مصر) يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الحبس والضيق ، كما أن الله يصيب برحمته من يشاء من خلقه ، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ، فأطاع ربه ، وعمل بما أمره به ، وانتهى عما نهاه عنه ، وأن ثواب الله فى الآخرة

خير للذين صدقوا الله ورسوله مما أعطى الله يوسف فى الدنيا من تمكينه له فى أرض مصر وكانوا يتقون الله ويخافون عقابه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

زواج يوسف عليه السلام بامرأة العزيز

جاء فى كتاب تاريخ الكامل لابن الأثير : أن الرَّيان ملك مصر زوَّج يوسف (راعيل أو زليخا) امرأة سيده العزيز (التى كانت مشغوفة بحبه) فلما دخل بها قال لها : أليس هذا خير مما كنت تريدين ؟

فقالت : أيها الصديق ، لا تلمنى فإنى كنت امرأة حسناء ، جميلة فى ملك ودنيا ، وكان صاحبى لا يميل إلى النساء ، وكنت كلما أنظر فى صورتك وحسن هيئتك ، تغلبنى نفسى (الأمارة بالسوء) .

فلما بنى بها يوسف وجدها بكراً عذراء ، ورزق منها بولدين : (افرايم ومنسا) وقد باركهما جدهما عليه السلام ودعا لهما ، وجعلهما صاحبى نصيبين كأولاده الصلبيين فى الأرض المقدسة التى يملكها بنو إسرائيل وهى أرض فلسطين .

إخوة يوسف يتجرون (يمتارون)

لما اطمأن يوسف عليه السلام فى ملكه ، وخرج من البلاء الذى كان فيه ، وخلت السنون المخصبة التى كان أمرهم بالاقتصاد فيها للسنين المجدبة التى أخبرهم بها أنها حاصلة ، جهدَ الناس فى كل وجه وخرجوا إلى أرض مصر يلتمسون بها الميرة من كل بلد . وكان يوسف حين رأى ما أصاب الناس من الجهد قد ساوى بينهم ، وكان لايحمل للرجل إلا بعيراً واحداً ، ولايحمل للرجل الواحد بعيرين ، عدلاً بين الناس وتوسيعاً عليهم ، فقدم إخوته فيمن قدم عليه من الناس يلتمسون الميرة من مصر ، فعرفهم وهم له منكرون ، لما أراد الله أن يبلغ يوسف عليه السلام ماأراد ، فلما نظر إليهم قال : أخبرونى ما أمركم فإنى أنكر شأنكم ؟ قالوا : نحن قوم من أرض الشام . قال : فما الذى جاء بكم إلى هنا ؟ قالوا : جئنا نمتار طعاماً . قال : كذبتم ، أنتم جواسيس (عيون) كم أنتم ؟ قالوا : عشرة . قال : أنتم عشرة آلاف كل رجل منكم أمير ألف فأخبرونى خبركم ؟

قالوا : إنا إخوة بنو رجل صديق ، وإنا كنا اثنى عشر ، وكان أبونا يحب أخاً لنا ، وأنه ذهب معنا إلى البرية فهلك منا فيها ، وكان أخانا من أبينا

قال : فإلى مَن سكن أبوكم بعده ؟ قالوا : إلى أخ لنا أصغر منه . قال : فكيف تخبرونني أن أباكم صديق ، وهو يحب الصغير منكم دون الكبير ؟ ائتوني بأخيكم هذا حتى أنظر إليه فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ، ولا تقربوا بلادي . قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . ثم قال لهم : ضعوا أحدكم رهينةً حتى ترجعوا ، فوضعوا (شمعون) . ولما حمَّل يوسف لإخوته جمالهم من الطعام أوفر لكل رجل منهم بعيره وقال لهم : ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم لأحمل لكم بعيراً آخر ، ألا ترونَ أني أوفي الكيل لكم ولا أبخسه ؟

وأنا خير من أنزل ضيفاً على نفسه

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ . قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾

وقال لغلمانه : اجعلوا بضاعتهم التي دفعوها ثمناً للطعام في أوعيتهم فإنهم يعودون بها إلينا لأنهم لا يقبلون ما ليس لهم

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

إخوة يوسف عند أبيهم وطلبهم أخاهم (بنيامين)

فلما رجع إخوة يوسف عليه السلام إلى أبيهم بحمالهم قالوا له : يا أبانا إن عزيز مصر قد أكرمنا إكراماً زائداً ، وإنه ارتهن (شمعون) وقال ائتونى بأخيكم الصغير الذى عطف عليه أبوكم بعد أخيكم الذى هلك ، فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ، ولا تقربوا بلادى ، فأرسل معنا أخانا (بنيامين) يكتل لنفسه كيل بعير آخر ، زيادةً على كيل أباعرنا ، وإنا لحافظون له من أن يناله مكروه فى سفره .

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

فقال لهم أبوهم يعقوب : هل آمنكم على أخيكم من أبيكم الذى تسألوننى أن أرسله معكم إلا كما أمنتكم على أخيه يوسف من قبل ؟ فالله أرحم راحم بخلقه ، يرحم ضعفى على كبر سنى ووحدتى بفقد ولدى ، فلا يضيعه ، ويحفظه حتى يرده علىّ لرحمته بى ، فهو خير الحافظين .

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

ولما فتحوا أمتعتهم وجدوا بضاعتهم (أى فضتهم) التى كانوا دفعوها ليوسف فى مقابل ما أخذوه من الطعام كما هى لم تمس ، فقالوا لأبيهم : يأبانا ما نبغى ؟ (أى ماذا نريد بعد هـذا ؟) هذه بضاعتنا ردت إلينا فإذا سمحت بأخينا (بنيامين) ليذهب معنا فإننـا نمير (أى نشترى طعاماً لأهلنا) ونحفظ أخانا ، ونزداد على أحمالنا من الطعام حِمْل بعير يُكال لنا ، وهذا شىء يسير عند الملك الذى طلب أخانا .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ .

فقال يعقوب لبنيه : لَن أرسل أخاكم معكم إلى ملك مصر حتى تعطونى ميثاقاً وعهداً من الله بأنكم تأتوننى بأخيكم إذا لم يصبكم أمر يذهب بكم جميعاً فيكون ذلك عذراً لكم عندى .

فلما أعطوه عهدهم على الوفاء بما اشترطه عليهم قال يعقوب : إن الله على ما نقول (أنا وأنتم) وكيل (أى شهيد علينا بالوفاء) .

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ

إلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

فلما أرادوا الخروج من عند أبيهم إلى مصر ليمتاروا الطعام أوصاهم — بعد أن أذن لأخيهم فى الرحيل معهم — وقال لهم : يا بنىّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وكانوا ذوى جمال وأبهة فخاف عليهم الحسد من أعين الناس لهيبتهم ، ولأنهم أبناء رجل واحد ، ثم قال لهم : لا أقدر أن أدفع عنكم من قضاء الله الذى قد يكون قدّره عليكم من شىء صغير ولا كبير ، لأن القضاء والحكم لله دون سواه .

فلا رادّ لقضائه ، ولادافع لقدره ، فعليه توكلت ، ووثقت به فى حفظكم حتى يردكم إلىّ سالمين ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

رجوعهم إلى مصر ومعهم بنيامين ودخولهم على يوسف

فدخلوا مصر كما أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة ، وما كان ذلك ليمنع عنهم قضاء الله فيهم ، إنما هى حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، أى أنهم قضوا وطراً ليعقوب ، وأنه لذو علم لما علمه الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه (أى ضم إليه أخاه لأبيه وأمه) لأنه عرفه ، وأنزلهم منزلاً رحباً ؛ وأجرى عليهم الطعام والشراب وأكرم ضيافتهم ، وقال لأخيه : أنا أخوك فلا تحزن على ما كانوا يعملونه فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا ، ولا تعلمهم شيئاً مما قلته لك .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

حيلة يوسف فى إبقاء أخيه (بنيامين) عنده

ولما حمّل يوسف إبل إخوته ما حملها من الميرة وقضى حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل السقاية (الإناء الذى يشرب فيه الملك ويكيل به الطعام) فى رحل أخيه (أى فى متاع أخيه) وهو لا يشعر ، فلما ارتحلوا مسافة قصيرة نادى مناد قائلاً : أيتها العير (أى القافلة التى فيها الأحمال) إنكم لسارقون قفوا ، وانتهى إليهم رسول يوسف ووكيله وأخذ يوبخهم ويقول لهم : ألم نكرم ضيافتكم ونوفكم كيلكم ونحسن منزلتكم ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم وأدخلناكم علينا فى بيوتنا وأنتم تسرقون ؟

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾

قال إخوة يوسف : ما الذى تفقدون ؟ قالوا : نفقد صُواع الملك (الإناء الذى يشرب فيه) فمن جاء به له حمل بعير من الطعام ، وأنا الكفيل بالوفاء إليه

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾

فقال إخوة يوسف : والله ما جئنا لنفسد فى الأرض ، وما نحن بسارقين

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾

وقال أصحاب يوسف لإخوته : ما جزاء من توجد فى متاعه سقاية الملك إن كنتم كاذبين ؟

قالوا : جزاء من توجد فى رحله سقاية الملك أن يؤخذ عبداً له فكذلك جزاء الظالمين

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

ففتش الرسول أوعيتهم ورحالهم قبل وعاء أخيه (بنيامين) مبتدئاً بالكبير ومنتهياً بالصغير، فوجد السقاية فى وعاء أخيه فاستخرجها منه، فأخذ برقبته وانصرف به إلى يوسف

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾

ويقول الله تعالى ذكره: كذلك علمنا يوسف هذا التدبير الذى به حصل على أخيه، وما كان ليستطيع أن يأخذه على مقتضى شريعة ملك مصر لأنه لم يكن من حكم ذلك الملك وقضائه أن يسترق أحداً بالسرقة، فلم يكن ليوسف أخذ أخيه إلا أن يشاء الله بكيده الذى كاده له، حتى طابت أنفس إخوته بحكمهم عليه بالتسليم

وقد رفع الله درجة يوسف فوق درجة إخوته (وفوق كل عالم من هو أعلم منه) ويعنى بذلك أن يوسف أعلم إخوته، وأن فوق يوسف من هو أعلم منه، حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى:

﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

فقالوا - وقد ملئوا غيظاً على بنيامين لما أوقعهم فيه من الورطة تأنيباً له:

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

ويقصدون بذلك السرقة التى نسبوها ليوسف وهى : أنه رأى صنماً فى بيت بعض أقاربه من جهة أمه ، فأخذه وكسره وأتلفه ، واعتبروا ذلك سرقةً جهلاً بحقيقتها :

فأخفى يوسف هذه التهمة فى نفسه ولم يجاهرهم بها ، وقال فى نفسه أيضاً : أنتم شر منزلة إذ سرقتمونى من أبى ، والله أعلم بمبلغ صدقكم فيما تقولون

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

ولما أراد يوسف عليه السلام أن يحبس أخاه (بنيامين) عنده ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه منه ، سألوه أن يطلقه ويعطوه واحداً منهم مكانه بدلاً منه ، وقالوا ليوسف : يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً متعلقاً به ، كلفاً بحبه ، فخذ أحداً منا بدلاً من (بنيامين) وأخل سبيله ، إنا نراك من المحسنين لنا إن فعلت ذلك

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

فقال يوسف لإخوته : معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده

فإذا أخذنا غيره نكون إذاً من الظالمين .

وقال لهم : إذا أتيتم أباكم فأقرئوه السلام ، وقولوا له : إن ملك مصر يدعو لك أن تعيش حتى ترى ابنك (يوسف)

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾

فلما يئس إخوة (يوسف) من أخذ أخيهم بطريق المبادلة ، وأن يجيبهم إلى ما سألوه ، خلا بعضهم ببعض يتفاوضون ويتشاورون ، ثم قالوا : ماذا ترون ؟ قال كبيرهم فى العقل والعلم ، لا فى السن ، وهو (روبيل) إن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله لتأتنه به إلا أن يُحاط بكم ، ومن قبل فعلتم هذه الفعلة بتفريطكم فى (يوسف) فلن أبرح الأرض التى أنا بها (وهى مصر) ولا أفارقها حتى يأذن لى أبى ، أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين (أى خير مَن حكم وعدل بين الناس)

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾

ثم أشار عليهم بالرجوع إلى أبيهم ، وإخباره بما كان من سرقة أخيهم (بنيامين) لصواع الملك ، وأنهم ما شهدوا عليه بالسرقة إلاَّ بما علموا عن مشاهدة ، إذ وجدوا الصواع فى أمتعته ، ولم يكن لهم علم بما هو كائن لهم فى الغيب

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾

وقولوا له : إن كنت مُتَّهِماً لنا ، لا تصدقنا على ما نقول من أن ابنك سرق ، فاسأل القرية التى كنا فيها (وهى مصر) والقافلة التى أقبلنا فيها عن خبر ابنك ، وحقيقة ما أخبرناك عنه من سرقته ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

رجوع إخوه (يوسف) إلى أبيهم بعد حبس (بنيامين)

فرجع إخوة (يوسف) إلى أبيهم وتخلف (روبيل) فأخبروه خبر (بنيامين) على حقيقته فلم يدخل عليه هذا القول ولم يصدقهم ، وقال لهم يعقوب عليه السلام : بل زينت لكم أنفسكم أمراً هممتم به وأردتموه فصبرى على ما نالنى من فقد ولدى صبر جميل لا جزع فيه ولا شكاية عسى الله أن

يأتينى بأولادى جميعاً (وهم يوسف و بنيامين ورو بيل وغيرهم) فيردهم إلىَّ ، إنه هو العليم بوحدتى ، و بفقدهم وحزنى عليهم

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

ثم أعرض يعقوب عنهم وقال : ياحزناً على يوسف ! إن الأسف عليه لشديد ، وأخذ يبكى بكاء حارًا حتى ابيضَّت عيناه من الحزن وضعف بصره من شدة البكاء والحزن ، وهو كاظم غيظه لا يتكلم

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

فلما رأى ذلك أولاده قالوا له : لا تزال تذكر يوسف ، ولا تفتر عن حبه حتى تكون حرضاً (أى تكون مريضاً مشرفاً على الهلاك ، ويذيبك الحزن عليه) أو تكون من الهالكين

﴿ قَالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾

فلما رأى يعقوب غلظتهم وجفوتهم وسوء لفظهم قال : لستُ أشكو إليكم همى وحزنى ، و إنما أشكو ذلك إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون

ثم قال لهم : يا بنىَّ اذهبوا إلى الموضع الذى جئتم منه ، وخلفتم إخوتكم به

وتحسسوا والتمسوا يوسف ، وتعرفوا من خبره وأخيه (بنيامين) ولا تقطنوا من أن الله يذهب عنا ما نحن فيه من الحزن على يوسف ، والغم على أخيه بفرج من عنده ، فإنه لا ييأس من روح الله (أى لا يقنط من فرجه ورحمته ويقطع رجاءه منه) إلّا القوم الكافرون ، الذين يجحدون قدرته على مايشاء ، فإنه على ما يشاء قدير ، وإليه المصير .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

تعرف يوسف بإخوته ، وعطفه عليهم ، واعترافهم بذنبهم

جاء إخوة يوسف إلى مصر كما أمرهم أبوهم ، وقصدوا يوسف فى مقر ملكه ، فلما دخلوا عليه قالوا : (يأيها العزيز) ـ رجاء أن يرحمهم فى شأن أخيهم ـ (مسنا وأهلنا الضر) أى الشدة من الجدب والقحط (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى قليلة لا تبلغ ما كانوا يتبايعون به إلا أن يتجاوز لهم فيها (فأوف لنا الكيل) أى أعطنا بها ما كنت تعطينا قبل بالثمن الجيد والدراهم الجائزة الوافية التى لا ترد (وتصدق علينا) أى لا تنقصنا من سعر طعامك لرداءة

بضاعتنا (إن الله يجزى المتصدقين) إن الله يثيب المتفضلين على أهل الحاجة بأموالهم .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ .

فلما سمع يوسف من إخوته هذا الكلام رقّ قلبه وَحَنَّتْ عواطفه عليهم ، وباح لهم بما كان يكتمهم من شأنه ، وقال لهم : هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ فرقتم بينهما ، وصنعتم ماصنعتم ، وأنتم جاهلون بعاقبة ماتفعلون بيوسف ، وما إليه صائر أمره وأمركم ؟

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ .

فعند ذلك ذهبت سكرتهم ، وتيقظوا وعرفوا الحقيقة ، وقالوا : إنك لأنت (يوسف) فقال : نعم (أنا يوسف) وهذا أخى قد منّ الله علينا بأن جمعنا بعد ما فرقتم بيننا .

فما أكبر قول يوسف لهؤلاء الإخوة تحدثاً بنعمة الله ، وما أعظم نصحه لهم بقوله : إنه من يتق الله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ، أى إن الله لا يبطل ثواب إحسانه وجزاء طاعته إياه وصبره على بلواه .

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ

عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

عند ذلك لم يسعهم إلا الخضوع والامتثال ، والاعتراف له بأنه قد انتصر عليهم انتصاراً باهراً ، وارتفع قدره ، ولذلك قالوا : تاللهِ لقد فضلك الله علينا بما أعطاك وحبّاك ، وآثرك علينا بالعلم والحلم والفضل ، وما كنا فى فعلنا الذى فعلناه بك و بأخيك إلّا خاطئين .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ .

فقال لهم : لا لوم عليكم اليوم عندى فيما صنعتم ، عفا الله عنكم وغفر لكم ذنوبكم ، فهو أرحم الراحمين بمن تاب من ذنبه ، وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته .

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

سؤال يوسف عن أبيه وتوقع الفرج بلقائه

ثم سألهم يوسف عن حال أبيه من بعده فقالوا له : قد هزل جسمه وضعف بصره من شدة البكاء والحزن ؛ فأعطاهم قميصه وقال لهم : اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يرتدّ بصيراً ، وجيئونى بأهلكم جميعاً .

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

فلما خرجت القافلة ، وانفصلت عن أرض مصر ، متوجهةً إلى (كنعان) وكانت نفس يعقوب مطمئنة ، ولم يتسرب إليها اليأس ، وكان يتوقع الفرج بلقاء ابنه يوسف بعد طول بعاده وحزنه عليه ، هبت ريح ، فذهبت بريح قميص يوسف إلى يعقوب ، فقال لمن حوله من جماعته : إنى لأشم ريح يوسف ، ولولا خوفى من أنكم تكذبونى وتسفهوننى وتنسبون إلىّ ضعف العقل لأخبرتكم بأنى أتوقع الفرج بلقائه ، وأنه قريب منا .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ .

فقال له أولاده : أيها الرجل ، تالله إنك من حب يوسف وذكره لفى خطئك القديم ، بعيد عن الصواب فى اعتقادك أن يوسف باقٍ إلى اليوم .

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ .

البشارة بقرب اجتماع يوسف بأبيه

ولم يطل به الانتظار حتى جاء البشير إلى يعقوب من عند ابنه (يوسف) وهو المبشر برسالة يوسف وقيل : هو (يهوذا) فألقى القميص على وجهه فعاد

مبصراً بعينيه ، بعد ما كان قد أصيب بضعف البصر ، فقال لهم عند ذلك :

ألم أقل لكم إنى أعلم من الله أنه سيرد علىّ يوسف ويجمع بينى وبينه ، وأنتم لا تعلمون من ذلك ما كنت أعلمه ، لأن رؤيا يوسف كانت صادقة ؟

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فقالوا له : يا أبانا اطلب لنا من ربك أن يعفوَ عنا ، ويغفر لنا ذنوبنا التى أذنبناها فى حقك وحق يوسف ، فلا يعاقبنا بها يوم القيامة ، إنَّا كنا فى خطإٍ عظيم فيما فعلناه ، وقد اعترفنا بذنوبنا .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ .

فقال يعقوب لهم : سوف أستغفر لكم ربى ، إنه هو الذى يغفر الذنوب جميعاً ، ويتوب على من تاب ، لأنه رحيم بالعباد .

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

لقاء يوسف لأبيه وإخوته وتفسير رؤياه

استعد يعقوب عليه السلام هو وأولاده وجميع آله فسافروا إلى مصر ، فلما جاءوا إليها دخلوا على يوسف فآوى إليه أبويه (أى يعقوب وزوجه

خالة يوسف) لأن أمه كانت قد ماتت وهو صغير ؛ وقابلهم جميعاً بالاحترام الجزيل ، وقال لهم : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين مما كنتم فيه من الجدب والقحط .

ورفع أبويه على العرش (أى على السرير فى أعلى مكان من مجلسه) فخرّوا له سجداً (أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر) سجود تحية لا سجود عبادة .

وكانت تحيتهم بالانحناء حسب عادة قدماء المصريين فى ذلك الزمن وأخذ يحدثهم بتاريخ حياته منذ فارقهم .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ .

ثم قال لأبيه : يأبتِ هذا تأويل رؤياى من قبل (أى أن السجود الذى سجدته أنت وأمى وإخوتى لى هو تأويل الرؤيا التى كنت رأيتها من قبل) وهى رؤية الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر لى ساجدين ، قد حققها ربى بسجودكم جميعاً .

(وقيل إن المدة التى كانت بين رؤيا يوسف عليه السلام وبين تأويلها أربعون سنة) .

ثم قال : قد أحسن بى ربى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البادية من بعد ما أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، وهـذا كله من لطف الله بى وبكم ، إن ربى لطيف التدبير لما يشاء ، عليم بوجوه المصالح ، حكيم يفعل كل شىء على أقصى وجوه الإحكام

﴿ وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

شكر يوسف لربه على ما أنعم به عليه

ثم إن يوسف عليه السلام بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته ، وبسط عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكنه فى الأرض ، أخذ يشكر الله تعالى معلناً نعمته عليه ، وما منحه من ملك وعلم قائلاً : يارب قد آتيتنى من ملك مصر ، وعلمتنى تأويل الرؤيا ، يا فاطر السموات والأرض (أى ياخالقها وبارئها) أنت ولىي فى دنياى على مَنْ عادانى وأرادنى بسوء بنصرك ، وتغذونى فيها بنعمتك ، وترحمنى فى الآخرة بفضلك ورحمتك ،

اقبضنى إليك مسلماً ، وأنا مُسَلِّمٌ لك أمرى ، وألحقنى بالصالحين من آبائى إبراهيم و إسحٰق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

ثم توفاه الله تعالى ، وكان عمره وقتئذ عشراً ومائة سنة ، وقد أوصى قبل وفاته أن يحمل من مصر و يدفن عند آبائه ، فحمله موسى لما خرج ببنى إسرائيل إلى الشام ودفنه بالقرب من (نابلس) وقيل : عند الخليل إبراهيم عليه السلام ، والله تعالى أعلم

العبرة من قصة يوسف عليه السلام

إن من يقرأ سورة يوسف عليه السلام ، وقصته هذه بإمعان الفكر ، وتحكيم العقل ، وثاقب النظر ، يرى أنها عبرة العبر ، وعظة العظات ، لأنها مورد غزير المادة ، لمن يريد أن يستنبط الأخلاق الفاضلة الطاهرة ، ويشرح الاستقامة ، وعفة النفس ، والصدق والأمانة ، والشفقة ، والرحمة

هذا يوسف عليه السلام قد تغذى بلبان النبوة ، وتعهده أبوه بالأخلاق الكريمة ، فنشأ نشأةً صالحةً ، وأحسَّ من صغره بمجد آبائه وأجداده ، فسار على منهجهم ، وتمسك بآدابهم وأخلاقهم ، فأنعم الله عليه بالعلم والحكمة ، والعصمة من الوقوع فى الدنايا والرزايا .

لقد برهن عليه السلام على أنه ذو نفس كريمة أبية ، وروح طاهرة وعزيمة قوية ، وأنه حقيقةً من أولى العصمة المؤمنين حقاً

لقد اعتمد على مولاه عند كل ضائقة فنجاه ، والتجأ إليه عند كل مُلمة فأكرم مثواه ، كادله إخوته فأغرقوه والله أنقذه وأعلاه ، كادت له أمرأة العزيز واتهمته بالخيانة ؛ ولكن الله أظهر براءته ، توعدته بالسجن ووافقها زوجها تستراً على عرضه فسجن ؛ ولكن الله نصره ورفع شأنه

وكان عليه السلام فى السجن داعياً إلى الله باذنه ، معلناً أن دينه دين التوحيد ، هو الدين القيم ، وأخذ يحث الناس على عبادة الله فقام بالرسالة عليه السلام خير قيام

كان محافظاً على شرفه ، وكان عنده إباء وشمم ، فلم يشأ أن يقال عنه : مجرم ، وأبى أن يخرج من السجن إلّا بعد أن يثبت أنه برىء الساحة نقى الصحيفة ، فأرسل إلى الملك يبسط ظلامته ، ويطلب إليه إعادة التحقيق فيما نسب إليه ، فلما أجرى الملك التحقيق على وجهه الحقيق وظهرت براءته رضى بالخروج مرفوع الرأس ، موفور الكرامة

كان يوسف عليه السلام ، متحلياً بفضيلة الصبر ، وضرب للناس المثل الأعلى فيها ، فصبر على إيذاء إخوته له ، وتجريدهم إياه من ثوبه ، ولطمه ولكزه ، وإلقائه فى الجبّ بقصد إهلاكه ، صبر على استرقاقه وبيعه بيع الرقيق فى بلاد غير بلاده ، وفى قوم يخالفونه لغةً ودِيناً وخلقاً ، بل صبر على أكثر من ذلك ، حيث اعتبروه شريراً خائناً ، إذ باعه ملتقطوه بأبخس الأثمان . وشكر على نعمة الله حيث جعله أميناً على خزائن الملك ، فلم يسئ استعمال المال بصرفه على الشهوات ، بل شكر الله ولسيده ؛ وصبر عن شهوة الفرج ، وقد تهيأت له الأسباب المغرية عليها ، الدافعة إليها ، فاستعصم ، وجزع حتى سلم منها ، متوجاً بتاج العفة والصبر عن الشهوات ، وقاوم نفسه وقهرها لتمسكه بالدين ، وكرم النفس ، والوفاء ، وعدم خيانة الأمانة

كان عليه السلام عفوًا حليماً ، لأنه عفا عن إخوته حينما أظهروا ندمهم واعترفوا بذنبهم ، وطلب إليهم الغفران من ربه

كان عليه السلام متحلياً بفضيلة الشكر متحدثاً بنعم الله تعالى عليه فإنه لما جاء أبواه رفعهما على العرش ، وخرّ له أبواه وإخوته سجداً سجود تحية فقال : يا أبتِ هذا تأويل رؤياى من قبل (وهى رؤيتى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) وقد جعلها ربى حقًا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البادية بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم

كل هذا الاعتراف منه بشكر الله على نعمه عليه

والخلاصة : أن هذه القصة الجميلة الجليلة عبرةٌ لأولى الألباب ، وعظة بالغة وهدى ورحمة لكل عبد أواب ، ولقد سمّاها الله (أحسن القصص) وقال فى ختامها :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

١٢ - قصة أيوب (عليه السلام)

أيوب عليه السلام هو نبى من الأنبياء المذكورين فى القرآن الكريم ؛ وقد ذكر المؤرخون أنه رجل من ولد (عيص بن إسحٰق بن إبراهيم)

وجاء فى الحديث عن وهب : أنه كان رجلًا من الروم قد اصطفاه الله ونبأه وابتلاه فى الغنى بكثرة المال والولد ، وبسط له فى الدنيا فوسع عليه فى الرزق ، وكانت له أراض واسعة فى الشام

وكان له فيها من أصناف المال كله من الإبل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه فى العدة والكثرة ، وقد أعطاه الله أهلاً وولداً من رجال ونساء

وكان برًّا تقيًّا رحيماً بالمساكين ، يطعم الفقراء ، ويعين الأرامل ، ويكفل الأيتام ، ويكرم الضيف ، ويبلغ ابن السبيل ، وكان شاكراً لأنعم الله ، مؤدياً لحق الله فى الغنى ؛ ولكن مع هذا كله قد ابتلاه الله بفقد ماله ، وهلاك أولاده ، فصبر على ذلك الصبر الجميل ، ولم ينقطع عن عبادة ربه وشكره ، ولذا لقب بالصديق ، وضرب به المثل فى الصبر ، وفوق ذلك قد ابتلاه الله فى جسمه ببلاء عظيم بين الجلد والعظم ، حتى ابتعد عنه الأهل والصديق ، ولم يبق له مال ولا ولد

ولا رفيق ، ولا أحد يقرب منه غير زوجه (رحمة بنت أفرايم أومنس بن يوسف وقيل : أليا بنت يعقوب) فإنها صبرت معه بصدق وإخلاص وقامت بخدمته ، فكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله معه وأيوب لا يفتر عن ذكر الله والحمد والثناء عليه ، والصبر على ما ابتلاه ، ولم يزده هذا البلاء إلا رغبةً وحباً فى الله لصدق يقينه وإيمانه .

وقد لزمه المرض سبع سنين وهو لم يضجر ، ولم يغفل عن ذكر الله فعند ذلك نادىٰ ربه وشكا إليه ما نزل به من الضر ، وسأله الرحمة ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾
الأنبياء

فاستجاب الله دعاءه ، وكشف عنه ضره ، وأعاد له ضعف ما كان ذهب من ماله وولده ، وقد جعل الله ذلك اختباراً له ، وعبرةً لأهل البلاء ، وعزاء للصابرين ، وتذكرةً للعابدين ، ليعتبروا ، وليعلموا أن الله قد يبتلى أولياءه ومن أحبّ من عباده فى الدنيا ، بضروب من البلاء فى نفسه وماله وأهله من غير هوان به ؛ ولكن اختباراً من الله له ليبلغ بصبره ، وحسن يقينه ، وإيمانه ، منزلته التى أعدها له الله تبارك وتعالى من الكرامة عنده فى الدار الآخرة ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ الأنبياء.

ولما استغاث أيوب من الشيطان الذى مسّه بالبلاء فى جسده وعذبه وأحزنه بذهاب ماله وولده ، نادى ربه فاستجاب له وقال : اركض برجلك (أى حركها وارفعها) فلما ركض برجله نبعت عين ماء فاغتسل منها ، فأذهب الله عنه كل ما كان به من البلاء ، وشرب منها فكان له فيها تمام الشفاء.

ووهبه الله ما فقده من أهله ومثله معه ، رحمةً من الله به ، وعبرة لأولى الألباب ليعتبروا ويتعظوا ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ ص

وقيل : قد حصل خلاف بين أيوب عليه السلام وزوجته فتكلمت بكلام أغضبه وكدره ، فحلف إذا شفى وبرئ من مرضه ليضربها مائة جلدة ، ولما أراد أن يبرّ بيمينه أمره الله أن يأخذ مائة عود من أصول السنبل ويجمعها حزمةً واحدةً ، ويضرب بها زوجته ضربةً واحدةً فلا يحنث فى يمينه.

ولقد شرع الله تعالى ذلك رحمةً به وبها لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها ، وهى رخصة فى الحدود أكرمه الله بها وحده.

وقد أوحى الله إليه بذلك لما يعلمه عنه من الصبر على تحمل البلاء وعدم الخروج عن طاعة الله ، ولذا قال عنه : « نعم العبد إنه أوّاب » (أى مقبل على طاعتى) .

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ص .

وصار أيوب بعد ذلك فى أرغد عيش إلى أن توفاه الله .

وقيل إن عمره كان ٩٣ ثلاثاً وتسعين سنة .

وخلف أيوب ولداً اسمه (بِشر) نبأه الله من بعده ، وكنّاه (ذا الكفل) وسيأتى الكلام على قصته .

١٣ - قصة ذى الكفل (عليه السلام)

ذو الكفل (عليه السلام) هو ابن سيدنا أيوب عليه السلام ، واسمه فى الأصل بِشرٌ ، وقد بعثه الله نبياً بعد أبيه ، وسماه ذا الكفل كما تقدم .

وجاء ذكره فى القرآن فى سورة الأنبياء ، فى قوله تعالى :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الأنبياء .

وجاء فى تفسير الطبرى عند ذكر هذه الآية ما يأتى :

يعنى الله تعالى ذكره بإسماعيل (إسماعيل بن إبراهيم صادق الوعد) و بإدريس (أخنوخ) و بذى الكفل (رجلاً من بعض الناس ، إما نبى ، و إما ملك من صالحى الملوك ، تكفل بعمل من الأعمال ، فقام به من بعده ، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به ، وجعله من المعدودين فى عباده مع من حمد صبره على طاعة الله وأدخله فى رحمته معهم) .

وجاء فى الأخبار والأحاديث عنه ، أن نبياً من الأنبياء قال : مَن يتكفل لى أن يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ولا يغضب ؟ فقام شاب فقال : أنا . فقال : اجلس ، ثم عاد فقال : مَن يتكفل لى أن يقوم الليل و يصوم النهار ولا يغضب ؟ فقام ذلك الشاب فقال : أنا : فقال : اجلس

ثم عاد فقال : مَن يتكفل لى أن يقوم الليل ويصوم النهار ولا يغضب ؟ فقام ذلك الشاب ، فقال : أنا . فقال : تقوم الليل وتصوم النهار ولا تغضَب . فمات ذلك النبى ، فجلس ذلك الشاب مكانه يقضى بين الناس ولا يغضب

فجاءه الشيطان فى صورة إنسان ليغضبه وهو صائم ، يريد أن يقيل (أى ينام بعد الظهر) فضرب الباب ضرباً شديداً فقال : من هذا ؟ فقال : رجل له حاجة ، فأرسل معه رجلاً فقال : لا أرضى بهذا الرجل ، فأرسل معه آخر ، فقال لا أرضى بهذا ، فخرج إليه وأخذ بيده وانطلق معه حتى إذا كان فى السوق خلاه وذهب فسمى (ذا الكفل)

وجاء فى كتاب أخبار الدول ، وآثار الأول للقرمانى ، فى ذكر ذى الكفل عليه السلام : ما يأتى :

اسمه بِشْرُ بن أيوب عليه السلام ، بعثه الله تعالى بعد أبيه رسولاً إلى أرض الروم فآمنوا به وصدقوه

ثم إن الله تعالى أمرهم بالجهاد فكفوا عن ذلك وضعفوا وقالوا : يا بِشر إنا قوم نحب الحياة ونكره الممات ، ومع ذلك نكره أن نعصى الله ورسوله ، فلو سألت الله تعالى أن يطيل أعمارنا ، ولا يميتنا إلا إذا شئنا لنعبده ونجاهد أعداءه ، فقال بِشْرُ بن أيوب : لقد سألتمونى أمراً عظيماً ، وكلفتمونى شططاً جسيماً ، ثم قام وصلى ودعا ربه وقال :

« إلٰهى أمرتنى تبليغ الرسالة فبلغتها ؛ وأمرتنى أن أجاهد أعداءك وأنت تعلم أنى لا أملك إلاَّ نفسى ، وإن قومى قد سألونى فيما أنت أعلم به منى ، فلا تؤاخذنى بجريرة غيرى »

فأوحى الله تعالى إليه : يا بِشرُ إنى سمعت مقالة قومك ، وإنى قد أعطيتهم ما سألونى ، وطوّلت أعمارهم فلا يموتون إلا إذا شاءوا ، فكن كفيلا لهم بذلك ، فبلغهم بِشرٌ رسالة الله تعالى وأخبرهم بما أوحى إليه ، وتكفل لهم كما أمره الله تعالى ، ولذا سمى (ذا الكفل)

ثم انهم توالدوا وتناسلوا وكثروا حتى ضاقت عليهم بلادهم وتنغصت عليهم معيشتهم ، وتأذوا بكثرتهم ، فسألوا بِشراً أن يدعوا الله تعالى أن يردهم إلى آجالهم ، فردهم إلى أعمارهم فماتوا . ولذلك كثرت الروم حتى يقال : إن الدنيا درهم خمسة أسداسها الروم ، وسُموا روماً لأنهم نسبوا إلى جدهم (روم ابن العيص بن إسحٰق)

وكان بِشرٌ مقيماً بالشام حتى مات وكان عمره ٧٥ خمساً وسبعين سنة وقبره فى قرية (كفل حارس) من أعمال (نابلس)

١٤ - قصة شعيب (عليه السلام)

قيل : إن شعيباً من ولد مدين بن إبراهيم ؛ وقيل : إنه لم يكن من ولد إبراهيم ، إنما هو من ولد بعض من آمن بإبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى الشام ؛ ولكنه ابن بنت لوط .

وقد أرسله الله سبحانه وتعالى إلى أهل مدين ، وكانوا أهل كفر بالله ، وسوء معاملة للناس ، يبخسون الناس أشياءهم فى المكاييل والموازين ويفسدون أموالهم ، وكان الله قد وسع عليهم فى الرزق ، وبسط لهم فى العيش ، استدراجاً لهم منه مع كفرهم به ، فقال لهم شعيب : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فهو الذى خلقكم ، وبيده نفعكم وضركم ، ولقد جاءتكم علامة وحجة من الله بحقيقة ما أقول ، وبصدق ما أدعوكم إليه ، فلا تنقصوا الكيل والميزان ، ولا تظلموا الناس حقوقهم ، ولا تفسدوا فى الأرض (لا تعملوا فى أرض الله بالمعصية) بعد أن قد أصلحها لكم ببعث الأنبياء فيكم ليأمروكم بالمعروف ، وينهوكم عن المنكر ، فإن ذلك خير لكم فى دنياكم وأخراكم إن كنتم مؤمنين بقولى :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف .

وكانوا من قطاع الطريق على من يريد الإيمان ، يجلسون فى الطريق يخوفون الناس ، ويخبرونهم أن شعيباً كذاب ، فيصدون الناس عن الإيمان به . فنهاهم شعيب عن ذلك وقال لهم : لا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتردون عن طريق الله من آمن بالله وصدق به ووحده ، وتلتمسون لمن سلك سبيل الله وعمل بطاعته طريقاً معوجاً بعيداً عن الحق ، مائلاً إلى الزيغ والضلال .

وذكرهم شعيب بنعمة الله عليهم بأن كثّر جماعتهم بعد أن كانوا قليلاً عددهم ، وأن رفعهم من الذلة والخسة ، ودعاهم إلى شكر الله الذى أنعم عليهم بذلك ، والإخلاص له فى العبادة إتقاء لعقوبته بالطاعة إليه ، وحذراً من نقمته بترك المعصية ، ووجّه نظرهم إلى عاقبة المفسدين قائلاً لهم : انظروا ما نزل بمن كان قبلكم من الأمم حين خرجوا على ربهم ، وعصوا رسله من العذاب والنقم ، وكيف كانت عاقبة عصيانهم إياه ؟ ألم يهلك بعضهم غرقاً بالطوفان ، وبعضهم رجماً بالحجارة ، وبعضهم بالصيحة والصواعق المحرقة ؟ ونصح إليهم بالاعتبار بأحوالهم إذا لم يريدوا أن ينتهوا إلى مثل نهايتهم ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف :

ثم قال لهم : إن كان جماعة منكم صدّقوا بالذى أرسلت به من إخلاص العبادة لله وترك معاصيه ، وظلم الناس وبخسهم فى المكاييل والموازين فاتبعونى على ذلك ؛ وجماعة أخرى لم يُصدِّقوا بذلك ولم يتبعونى عليه ، فاصبروا حتى يحكم الله ، فهو خير من يفصل ويعدل بيننا وبينكم ، وهو خير الحاكمين .

﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ الأعراف .

مجادلة أهل مدين لشعيب ومحاجته لهم

لما قام شعيب بدعوة أهل مدين إلى الله وإلى توفية المكيال والميزان بالقسط ، وحفظ حقوق الناس وعدم أكلها بالباطل ، ونهاهم عن الفساد فى الأرض قائلاً لهم : إنى أراكم بخير ؛ وقد وسع الله عليكم ، ورزقكم وإنى أخاف عليكم بمخالفتكم أمر الله أن ينزل بكم عذاب يحيط بكم ، وأن ما أبقاه الله لكم من المباحات خير لكم من المحظورات التى نهاكم عنها . قالوا له متهكمين به : أصلاتك تأمرك أن نترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام وألّا نتصرف فى أموالنا على ما نشاء من كسر الدراهم وقطعها وبخس الناس فى الكيل والوزن ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد الذى لا يحمله الغضب على أن يفعل ما لم يكن ليفعله فى حالة الرضا .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ هود .

فحاجَّهم شعيب وقال لهم : يا قوم أرأيتم إن كنت على بيان وبرهان وحجة من ربى فيما أدعوكم إليه من عبادته والبراءة من عبادة الأوثان والأصنام وفيما أنهاكم عنه من إفساد المال ، ورزقنى منه رزقاً حسناً حلالاً طيباً ، وما أريد أن أنهاكم عن أمر ثم أفعل خلافه ، بل أفعل ما آمركم به ، وأنتهى عما أنهاكم عنه ؛ لأنى لا أريد إلَّا إصلاحكم وصلاح أمركم ما استطعت ، حسب قدرتى لئلا ينالكم من الله عقوبةٌ شديدةٌ وأسأل الله أن يوفقنى لما فيه صلاحكم وصلاح أمركم فإنه هو المعين لى على ذلك ، فقد فوضت أمرى إليه ، وجعلت اعتمادى وتوكلى عليه .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ هود .

وأخذ يكرر لهم احتجاجه ويقول : يا قوم لا يحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر بالله وعبادة الأوثان وبخس الناس فى المكيال والميزان ، وترك الإنابة والتوبة ، فإنى أخشى عليكم أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق ، أو قوم هود من الريح ، أو قوم صالح

من الرجفة ، وما قوم لوط ببعيدين عنكم ، فإن فيما آلوا إليه عبرة لكم ، فاعتبروا بهؤلاء ، واحذروا أن يصيبكم بشقاقى ومعاداتى لكم مثلُ الذى أصابهم .

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾

هود

ثم طلب منهم أن يستغفروا ربهم ، وأن يتوبوا إليه فإنه رحيم بعباده محب لهم .

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

هود

فأكثروا جداله ، وجهدوا جهدهم فى إدحاض دعواه ، وقالوا له :

يا شعيب إنا لا نفهم ولا نعلم حقيقة كثير مما تقول وتخبرنا به ، وإنا لنراك ضعيفاً فينا ؛ ولولا أن عشيرتك عزيزة علينا لأنها تجمعنا وإياها لحمة النسب لرجمناك وقتلناك فأنت لست علينا بعظيم .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ هود .

فراجعهم شعيب وقال لهم : ياقوم ، أعشيرتى أعز عليكم من الله الذى أرسلنى

إليكم ، وقد جعلتم أوامره منبوذةً وراء ظهوركم، لا تأتمرون بأمره ولا تخافون عقابه ، ولا تعظمونه حق عظمته ، إن ربى محيط علمه بعملكم فلا يخفى عليه منه شىء ، وهو مجازيكم على جميعه عاجلاً وآجلاً

﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ هود

واختتم احتجاجه بقوله : ياقوم اعملوا كل ما تستطيعون عمله ضدى ، وأنتم على غاية تمكنكم منه ، فإنى عامل على الثبات ، ومصمم على الطلبات ، وهى الدعوة إلى الله ، وترك عبادة الأوثان ، وحسن معاملة الناس ، وعدم أكل حقوقهم بالباطل

وقصارى القول : أنكم سوف تعلمون أيُّنا الجانى على نفسه والمسىء إليها ، والمصيب فى فعله المحسن إليها ، ومَن منا أيها القوم الذى سيأتيه عذاب من الله يخزيه ويهينه ؟ ومَن منا الكاذب ؟ فانتظروا العذاب إنى معكم من المنتظرين

﴿ وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ هود

وكان شعيب فى محاجته لهم ونصحه إياهم كخطيب مصقع حتى إن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنه :

ذاك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه فيما يراد بهم . (كما رواه ابن إسحٰق عن يعقوب بن أبى سلمة)

تهديد أهل مدين لشعيب والمؤمنين معه بإخراجهم من القرية

لما أخرج شعيب قومه بدعائهم إلى الإيمان بالله وتوحيده وحسن المعاملة والاستقامة ، اجتمع طائفة من الرجال الذين تكبروا عن الإيمان بالله ، واتباع رسوله شعيب لما حذرهم بأسه على خلافهم وكفرهم وقالوا له : ياشعيب لنخرجنك ومن اتبعك وصدّقك وآمن بك وبما جئت به معك من قريتنا أو لترجعن أنت وهم فى ديننا وما نحن عليه

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فى مِلَّتِنَا ﴾ الأعراف

فقال لهم شعيب : أتخرجوننا من قريتكم وتصدوننا عن سبيل الله ولو كنا كارهين ذلك ؟

﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ الأعراف

ثم قال شعيب لقومه ؛ حينما دعوه إلى العود إلى ملتهم والدخول فيها وتوعدوه بطرده ومن تبعه من قريتهم إن لم يفعل ذلك : نكون قد

اختلقنا على الله كذباً ، وقلنا ما ليس بحق ، إن نحن عدنا فى ملتكم ورجعنا فيها بعد أن أنقذنا الله منها ، بأن هدانا إلى خطئها ، وصواب ما نحن عليه ولا يتسنى لنا أن نرجع فيها ، وندين بها ، ونترك ما نحن عليه من الحق إلا أن يشاء الله ، ويكون سبق لنا فى علم الله أننا سنعود فيها ، فينفذ فينا قضاء الله وتسير علينا مشيئته ، فإن علم ربنا وسع كل شىء ، فأحاط به ولا يخفى عليه شىء لا فى الأرض ولا فى السماء ، وإلا فنحن غير عائدين فى ملتكم وقد اعتمدنا فى أمورنا كلها على الله

ثم لما يئس من إذعان قومه له ، وانقطع رجاؤه منهم الطاعة والإقرار له بالرسالة وخاف على نفسه ، وعلى مَن تبعه من مؤمنى قومه ، دعا عليهم فقال : ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، أى احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل الذى لا ظلم فيه ولا جور ، فأنت خير الفاتحين الحاكمين ، وذلك قوله تعالى :

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ ﴾ الأعراف

فقال الجماعة الذين جحدوا آيات الله ، وكذبوا رسوله وتمادوا فى

غيهم وطغيانهم من قومه للآخرين منهم :

لئن اتبعتم شعيباً فيما يقول ، وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله ، وأقررتم بنبوته لتكونن إذاً خاسرين مغبونين فى فعلكم وتركتكم ملتكم وهالكين

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ الأعراف

فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والطرد من بلادهم وعتوا عن أمر الله أخذتهم (الرجفة) الزلزلة المحركة لعذاب الله ، فأصبحوا فى دارهم (جاثمين) راكعين على ركبهم ، وأهلكهم الله وأبادهم ، فصارت قريتهم خاوية منهم كأن لم ينزلوا فيها ولم يعيشوا فيها ؛ وكانوا الهالكين الخاسرين

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف

أما شعيب فقد نجاه الله والذين آمنوا معه برحمته ، فأدبر عنهم سخطاً حينما أتاهم عذاب الله ، وقال لهم لما أيقن بنزول نقمة الله بقومه الذين كذبوا وكفروا بآيات الله :

ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ، وأديت إليكم ما بعثنى به من تحذيركم غضبه على إقامتكم على الكفر ، وظلم الناس وأكل حقوقهم بالباطل ونصحت

لكم بطاعة الله ، ونهيتكم عن معصيته ، وإنى ليحزننى عدم قبولكم نصحى ، وأتألم لعذابكم

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ الأعراف

ثم عاد فقال : كيف أحزن على قوم جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسوله وأتوجع لهلاكهم ؟

﴿ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ الأعراف

شعيب وأصحاب الأيكة

بعد أن أهلك الله أهل مدين لكفرهم به ، وعدم اتباع رسولهم ، ونجى شعيباً والذين آمنوا معه ، أرسله إلى أصحاب الأيكة (وهى غيضة تنبت ناعم الشجر الملتف بالقرب من مدين تسكنها طائفة من عباد الله)

وكان شعيب أجنبياً عنهم ، وكانوا على مثل طريقة أهل مدين من تكذيب شعيب وعدم الاذعان لأمره إذ قال لهم : إنى لكم من الله رسول أمين على وحيه ، فاتقوا عقاب الله على خلافكم أمره وأطيعونى ترشدوا ولست أسألكم على نصحى لكم من جزاء أو ثواب فما جزائى

وثوابى على ذلك إلاَّ من رب العالمين ، فأوفوا الناس حقوقهم من الكيل ولا تكونوا من المخسرين ؛ وزنوا (بالقسطاس) بالميزان المستقيم الذى لا يبخس فيه الوزن على من وزتم له ، ولا تنقصوا الناس حقوقهم فى الكيل والوزن ، ولا تكثروا فى الأرض الفساد ، واتقوا الله الذى خلقكم وخلق من تقدمكم من الخلائق ، قال تعالى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾ الشعراء

فقالوا له : إنما أنت ياشعيب مختل العقل بالسحر المتكرر ، ولست ملكا ، وما أنت إلا بَشر مثلنا تأكل وتشرب ، وما نحسبك فيما تخبرنا وتدعونا إليه إلاَّ ممن يكذب فيما يقول ، وطلبوا منه برهاناً ودليلاً على ذلك بأن قالوا :

إن كنت صادقاً حقًّا فيما تقول بأنك رسول الله كما تزعم فأسقط علينا (كسفاً) قطعاً من السماء

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ الشعراء

فأجابهم شعيب قائلاً : إن ربى أعلم بأعمالكم ، محيط بها ، لا يخفى عليه شيء منها ، وهو مجازيكم عليها

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الشعراء

فلما كذبوه أخذهم الله بعذاب « يوم الظُّلَّةِ » بأن سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام حتى غلت مياههم ، ثم ساق إليهم سحابةً فاستظلوا تحتها من شدة الحرِّ المنبعث عليهم ، فأمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم وأهلكتهم وسُمى هذا اليوم (بيوم الظُّلَّة) وكان عذاب يوم الظُّلَّة عذاباً عظيماً لهم

وكان فى ذلك دليل وحجة لهم ، لو أنهم كانوا يرشدون ، وما كان أكثرهم بمؤمنين

وإن الله لهو العزيز فى نقمته ممن انتقم منه من أعدائه ، الرحيم بمن تاب من ، وأناب إلى طاعته

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الشعراء

١٧ - داود (عليه السلام)

نسبه - كما جاء فى الانجيل - داود بن يسى ، بن عوبيد ، بن يوعز ابن سلمون بن نجشون . بن عمينداب . بن آرام . بن حصرون . بن قارص . بن يهوذا . بن إسحٰق . بن إبراهيم عليه السلام

داود ملك قبل أن يكون نبياً

قد جعل الله داود ملكاً على بنى إسرائيل بعد قتل ملكهم (طالوت) والأصل فى تعيين (طالوت) ملكاً عليهم ، أنه كان قوم يقال لهم (العمالقة) ، يسكنون بين مصر وفلسطين ، غزوا بنى إسرائيل وأذاقوهم بأس الحرب ، وكان لهم ملك يقال له (جالوت) فطلب بنو إسرائيل من نبى لهم يقال له (صمويل أو شمويل) أن يعين لهم ملكاً يقودهم إلى قتال أعدائهم الذين أذلوهم دهراً طويلاً ، ويدافع عنهم ضد من يريد الإغارة عليهم

وكان (صمويل) عالماً بعقلية بنى إسرائيل وعادتهم وما انطوت عليه أنفسهم فقال لهم : أخشى إن كتب عليكم القتال أن تجبنوا ولاتقاتلوا وألا تقوا بما تعدون الله به من أنفسكم من الجهاد فى سبيله ، فإنكم أهل

غدر ، وقلة وفاء بما تعدون . فقالوا لنبيهم : وأى شىء يمنعنا أن نقاتل فى سبيل الله عدونا وعدو الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا بالقهر والغلبة ؟

فلما فرض عليهم قتال عدوهم ، والجهاد فى سبيله ، جبنوا وأدبروا مولين عن القتال ، وضيعوا ما سألوه نبيهم من فرض الجهاد إلَّا قليلاً منهم فقد ثبت على الجهاد ، والله عليم بمن ظلم نفسه منهم ، وأخلف وعده وخالف أمر ربه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ البقرة .

وقال لهم نبيهم (صمويل) : إن الله قد أعطاكم ما سألتم وبعث لكم (طالوت) ملكاً .

فلما قال لهم نبيهم ذلك : قالوا : أنَّى يكون (لطالوت) الملك علينا وهو من سبط (بنيامين بن يعقوب) وسبط بنيامين لا ملك فيهم ولا نبوة ؛ ونحن أحق بالملك منه ، لأننا من سبط (يهوذا بن يعقوب) ولم يؤت كثيراً من المال ؛ لأنه كان فقيراً ، وقيل : إنه كان سقاء أو دباغاً .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ البقرة :

فقال لهم نبيهم : إن الله اصطفاه عليكم ، واختاره لكم ، وبسط له فى العلم والجسم ، وآتاه من العلم فضلاً كبيراً على ما أوتى غيره ، وأن الله يؤتى ملكه من يشاء ، فيضعه عنده ويخصه به ، ويمنحه من أحب من خلقه ، فلا تستكبروا يا معشر القوم من بنى إسرائيل ، أن يبعث الله (طالوت) ملكاً عليكم ، وإن لم يكن من أهل بيت المملكة ، فإن المُلك ليس بميراث عن الآباء والأسلاف ؛ ولكنه بيد الله يُعطيه من يشاء من خلقه ، فلا تتخيروا على الله ، والله واسع فضله ، فينعم به على من أحب ، ويريد به من يشاء عليم بمن هو أهل لملكه .

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة .

فقالوا له : إئت لنا بآية تدل على ذلك إن كنت من الصادقين .

فقال لهم : إن آية مُلكه أن يأتيكم (التابوت) وهو الصندوق المحفوظ فيه التوراة الذى كان بنو إسرائيل إذا لقوا عدوًّا لهم قدموه أمامهم وزحفوا

معـه ، فلا يقوم لهم معه عدد ، ولا يظهر عليهم أحد على صورة خارقة للعادة وقيل : إنه رأس إنسـان على جسم سمكة محمولاً على أيدى الملائـكة فمتى رأيتموه سكن فؤادكم ، واطمأن بما فيـه من آثار الأنبياء مما ترك آل موسى وآل هارون . وإن ذلك لعلامة ودلالة أيها القوم على صدق فيما أخبرتـكم به إن كنتم مؤمنين بالله ورسوله .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة .

فحينما رأوا (التابوت) صدّقوا عند ذلك نبيهم ، وأقرّوا بأن الله قد بعث (طالوت) ملـكاً عليهم ، وأذعنوا له بذلك .

فلما خرج بهم (طالوت) بجنوده لقتال العدو من بيت المقدس ، وقيل : كان عددهم ٨٠ ثمانين ألف مقاتل ، ولم يتخلف من بنى إسرائيل عن الخروج معه إلا من كان ذا علة ، أو كبيراً لهرمه ، أو معذوراً لاطاقة له بالنهوض معه ، وقال لهم طالوت : إن الله ممتحن طاعتكم و إخلاصكم (بنهر) تصادفونه (وكان الوقت حراً وعطشوا وشكوا إليه قلة المياه بينهم و بين عدوهم ، وسألوه أن يدعو الله لهم أن يجرى بينهم نهراً) .

قيل : إنه نهر بين (الأردن وفلسطين) فمن شرب من مائه فليس هو من أهل الله ، ولا من المؤمنين به ، ولا بلقائه ، ومن لم يشرب الماء من ذلك النهر ولم يذقه ، فهو من أهل ولايته وطاعته ، إلا من اغترف منه غرفة بيده ، فتلك مسموح بها لتسكين شدة الظمأ .

فشرب القوم على قدر يقينهم ، أما الكفار فجعلوا يشربون فلا يروون ، وأما المؤمنون فجعل الرجل يغترف غرفة بيده فترويه .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ البقرة .

فلما رأى (طالوت) ذلك أخذ الذين صدقوا واتبعوا أمره ، وترك الذين لم يصبروا على ابتلاء الله إياهم وعبر بهم النهر .

فلما قربوا من جيش (جالوت) ملك العمالقة ، وأبصروا ما هم عليه من الكثرة واستكمال العدة قالوا : لا طاقة لنا اليوم بقتال هؤلاء فثبت الذين يعتقدون أنهم راجعون إلى ربهم أن استشهدوا فى القتال وقالوا :

كم من جماعة قليلة غلبت جماعة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً

كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة

ولما برزوا لجيش (جالوت) دعوا الله قائلين : ربنا أنزل علينا صبراً من عندك ، وثبِّت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزموهم بإذن الله

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ البقرة

قتل جالوت بيد داود

وكان من حاضرى الحرب (داود بن ايشى) وكان صغيراً يرعى الغنم لا فضل فيه للحرب ، ولكن أباه أرسله إلى إخوته الثلاثة الذين مع (طالوت) ليأتيه عنهم بما يطمئنه عليهم . فرأى (جالوت) وهو يطلب المبارزة والناس قد خافته لما ملأ نفوسهم من هيبته ، وتيقن كل مبارز له أنه هالك لا محالة

فسأل داود عما يكافأ به قاتل هذا العدو الجبار الفلسطينى ؟ فأجيب بأن الملك يعطيه نصف ملكه ، ونصف كل شىء يملكه

فانطلق داود إلى طالوت وقال له : إنك قد جعلت لمن يقتل جالوت نصف ملكك ، ونصف كل شىء تملكه أفلِيَ ذلك إن قتلته ؟ قال له : نعم

والناس يستهزئون بداود و إخوته أشد من هنالك عليه ؛ فألبسه (طالوت) درعاً وأمره أن يتقدم

فتقدم داود إلى (جالوت) و بعد كلام معه رماه بحجر فقتله

فقال داود لطالوت : أوف بما جعلت لى ؛ فأبى طالوت أن يعطيه ذلك

فانطلق داود فسكن مدينة من مدائن بنى إسرائيل حتى مات طالوت

فلما مات عمد بنو إسرائيل إلى داود فجاءوا به وملّكوه وأعطوه خزائن (طالوت) وقالوا : لم يقتل (جالوت) إلّا نبى . وكافأه الله بأن جعله ملكاً على بنى إسرائيل ، وأعطاه الحكمة ، وعلمه مما يشاء من صناعة الدروع ، قال تعالى :

﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ البقرة

داود نبى ، ومعجزاته ، ونعم الله عليه

لما ملك داود بنى إسرائيل جعله الله نبيًّا وملكاً ، وكانت بلاد القدس قاعدة ملكه ومقر سلطنته ، وأنزل عليه الزبور (وجميعه حكم ونصائح ومواعظ وأدعية وأناشيد ، وليس فيه شىء من الأحكام الشرعية) كما قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾

الإسراء

وكان يقرأ الزبور بصوت جميل ، فإذا سمع صوته مريض برئ وكانت تجتمع عليه الإنس والجن والوحوش عند ما يقرأ بصوته الجميل ويسكن الريح ويركد الماء ، وكان إذا سبح سبحت معه الجبال والطير أيضاً ، وكان إذا أمسك الحديد يلين فى يده ويصير كالطين المبلول ، يصرفه فى يده كيف يشاء بغير إدخال نار ولا ضرب بحديد .

وكان يصنع الدروع (وهو أول من صنعها) وصنع حلقاتها ونسجها من الصفائح ، ومع هذا كله كان يعمل هو وأتباعه بطاعة الله ، وكان الله بصيراً بما يعملون ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ سبأ .

وكان شديد الاجتهاد ، كثير العبادة ، فكان يقوم الليل ويصوم نصف النهار ، وكان مطيعاً لله ، يرجع عما يكرهه الله إلى ما يرضيه ، ولذا قد سخر الله الجبال تسبح معه من وقت العصر إلى الليل ووقت الضحى .

فكان إذا سبح سبحت معه الجبال ، وسخر له الطير يسبحن معه أيضاً محشورةً ومجموعةً له ، وكانت جميعها مطيعةً له ترجع إلى أوامره ، وقد حفظ الله ملكه وحرسه ، فكان يحرسه كل يوم وليلة أربعة آلاف ، وأعطاه الله النبوة والحكمة ، أى السُّنة والفصل فى الخصومات التى يختصم الناس فيها إليه وإصابة القضاء والبينات ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ ص .

قضاؤه وعدله

فمن القضايا التى نظرها وفصل فيها القضية الآتية وهى :

أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث أى زرع ، والثانى صاحب غنم ، فقال صاحب الزرع : إن غنم هذا الرجل أكلت زرعى فحكم داود على صاحب الغنم بأن يعطى لصاحب الزرع الغنم ، وكان ولده سليمان عليه السلام جالساً بجواره ، وكان عمره وقتئذ إحدى عشرة سنة ، فقال له أبوه : اقض أنت بينهما .

فأجاب سليمان أن يسلم لصاحب الزرع الغنم سنةً كاملةً ليعيش بنسلها ولبنها وصوفها إلى أن يرجع زرعه كما كان فإذا تمت السنة يردها لصاحبها ، فنفذوا حكم ولده سليمان عليهما السلام ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

الأنبياء

أما القضية الثانيـة فهى : أنه دخل عليه من سور غرفته فى يوم خلوته للعبادة والاحتجاب والحرس على الباب أناس ففزع منهم ، فقالوا له : لاتخف نحن خصمان مختصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننـا بالحق ولا تطغ فى الحكم واهدنا إلى العدل ، وشرحوا له القضية كما يأتى :

إن هذا أخى فى الدين له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة (وهى الأنثى من الضأن) فقال ملكنى إياها لتكمل نعاجى مائة ، وغلبنى فى الخطاب بفصاحة لسانه وقوة بطشه .

فأجاب داود قائلاً : لقـد ظلمك بطلب ضم نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء والشركاء والأصحاب ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل وجودهم الآن ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ

فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ . إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ . قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ ص .

الفتنة التى ابتلاه الله بها

لما جاء الخصمان ومن معهما فى غير وقت القضاء أضمر داود عليه السلام عقابهم ، لأنه ظن أنهم أهل بغى وشر وفساد وأذى ، ولكن لما علم عذرهم ، وأنهم على حق ، وأنهم مضطرون لما فعلوا لأن الحجّاب منعوهم من الدخول عليه من الباب .

لما علم ذلك كله ظن أنه ابتلاء من الله سبحانه وتعالى ، ليزيده الله بذلك إيماناً ويقيناً ، وصبراً واحتمالاً ، فيعظم له أجراً ، فاستغفر الله وأناب إليه ، وخرّ راكعاً مدةً طويلةً ، وهو يبكى على ما فرط منه ، إلى أن غفر الله له ذنبه ، وجعله من المقربين إليه فى درجة عالية ، وله حسن العاقبة فى الآخرة ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ص

« وجاء فى كتب الفقه أن سيدنا داود عليه السلام (أول من صلى صلاة الظهر) حيث تاب الله عليه وقت زوال الشمس ، فصلى أربع ركعات شكراً لله على قبول توبته »

ثم قال له ناصحاً ومذكراً : يا داود إنا جعلناك خليفةً لمن قبلك من الأنبياء ، فاحكم بين الناس بالعدل والإنصاف ، ولا تتبع هواك فيضلك عن سبيل الحق ، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله ؛ لأن الذين يميلون عن سبيل الله ، وذلك الحق الذى شرعه لعباده وأمرهم بالعمل به ، ويجورون فى الدنيا ، ويظلمون الناس ، لهم فى الآخرة عذاب شديد بما نسوا أمر الله ، وبما تركوا القضاء بالعدل يوم الحساب ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ ص

وفاة داود عليه السلام

وتوفى داود عليه السلام وعمره مائة سنة وستة أشهر ودفن فى بيت المقدس ، وكانت مدة خلافته أربعين سنة

العبرة من قصة داود عليه السلام

أولاً ـ أن الله أنعم عليه واختصه بأعمال عجيبة لم يكن لتصدُر من مثله ؛ لأنه كان غلاماً راعياً للغنم ، فقتل الله تعالى على يديه (جالوت) الجبار الذى تخافه الأبطال ، ولم يقاتله بسيف ولا رمح ، ولم ينزل إليه بدرع ولا ترس ، وإنما قتله بحجر أرسله من المقلاع ، فكان ذلك أدل على قهر الله تعالى للجبابرة بأحقر الأشياء على يد أضعف العباد

ثانياً ـ أن الشخص الضعيف لاينبغى له أن ييأس من النجاح ، وإحراز أسباب الفلاح ، مادام معتصماً بأسباب التقوى والشكر لنعم الله تعالى

ثالثاً ـ أن انتصار داود على (جالوت) لم يغير من طباع داود ، ولم يذهب به مذهب أهل الكبرياء ، بل لم يزده هذا الأمر إلا تواضعاً ، وكان الله يرفعه درجات كلما تواضع وشكر

رابعاً — أن طاعة الله تعالى وشكر نعمه مما يوجب المزيد ، لقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ فإن الله تعالى لما رأى طاعة داود وشكره زاده من نعمه ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع المسرودة المنسوجة لتحصن الناس من البأس

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ الأنبياء

وأنعم عليه بولده (سليمان) الذى ورثه ملكه وعلمه وحكمته ، لقوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ص

بناء بيت المقدس

قيل : أصاب الناس فى زمن داود عليه السلام طاعون جارف فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس . فلما وقف موضع الصخرة دعا ربه فى كشف الطاعون عنهم ، فاستجاب له ورفع الطاعون ، فاتخذوا ذلك الموضع مسجداً ، وكان الشروع فى بنائه لإحدى عشرة سنة مضت من ملكه

وتوفى قبل أن يتم بناءه ، وأوصى إلى (سليمان) ابنه بإتمامه ، وقتل القائد الذى قتل أخاه (إيشى بن داود) فلما توفى داود عليه السلام ودفنه سليمان تقدم بإنفاذ أمره ، فقتل القائد ، واستتم بناء المسجد بناء فاخراً ، فلما فرغ اتخذوا ذلك اليوم عيداً عظيماً وقرّب قرباناً فتقبله الله منه ، وكان ابتداؤه أولاً ببناء المدينة ، فلما فرغ منها ابتدأ بعمارة المسجد

١٨ - قصة سليمان (عليه السلام)

لما توفى داود عليه السلام ملك بعده ابنه (سليمان عليه السلام) على بنى إسرائيل ، وكان عمره ثلاث عشرة سنة ، فسأل الله أن يؤتيه ملكاً لاينبغى لأحد من بعده ، فاستجاب له وجمع له بين الملك والنبوة كأبيه وأنعم عليه بنعم كثيرة :

١ ـ فقد منحه الله الذكاء ، وإصابة الحكم منذ صباه ، وتدل على ذلك قصة الحرث الذى تفشت فيه غنم غير أهلة ، فقد وفق إلى الحكم الأصوب فيها ، وكان ذلك بحضور والده داود (وقد تقدمت فى قصته) وهناك قصة أخرى تعزى إليه ، وهى مدونة فى كتب المطالعة للأطفال : خرجت امرأتان ومعهما صبيان ، فعدا الذئب على صبى إحداهما فاختصمتا فى فى الصبى الباقى إلى داود عليه السلام فقصتا عليه القصة فحكم به للكبرى منهما

فاختصما إلى سليمان عليه السلام فقال : إئتونى بسكين أشق الغلام نصفين ، لكل منهما نصف ، فقالت الصغرى (وهى أم الغلام) أتشقه يارسول الله ؟ قال : نعم . قالت لاتفعل ؛ فنصيبى فيه لها ، وأشفقت على ولدها من القتل

فقال عليه السلام : خذيه فهو ابنك ، وقضى به لها .

فهذه القصة تدل على شدة ذكاء سليمان عليه السلام وفراسته ، وهو لم يكتسبها بكثرة التجربة ، وطول المدة ، بل حصلت بعناية ربانية وألطاف إلهية ، وإذا قذف الله تعالى شيئاً من أنوار مواهبه فى قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب ، ورجح على ذوى التجارب فى كثير من الأسباب .

٢ ـ قد سخر له الريح الشديدة العاصفة تحمل بساطه ، وتجرى بأمره إلى الأرض المقدسة التى بارك الله فيها ، وهى أرض الشام ، وذلك أنها كانت تجرى بسليمان وأصحابه إلى حيث شاء ، وتعود به إلى منزله بالشام ، وكان الله عالماً بما أعطاه من الملك ، وبما سخره له من الريح فهو على كل شىء قدير ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء وذلك قوله تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَالِمِينَ ﴾ الأنبياء .

وكانت هذه الريح تسير وقت الذهاب مسيرة شهر ، ومثلها فى وقت الرجوع ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ سبأ .

٣ ـ قد أخضع له من الشياطين من يغوصون فى البحار ، ويستخرجون له منها اللآلئ وكريم الأحجار ، ويعملون له أعمالاً من البنيان ، والتماثيل ، والمحاريب ، وكان الله لهم حفيظاً ؛ وذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ الأنبياء .

٤ ـ وقد أسال الله لسليمان (عين القطر) وهو النحاس المذاب .

٥ ـ وسخر له الجن فتطيعه وتنفذ أوامره ، ويعملون له ما يشاء بإذن ربه من عظيم المبانى وضخمها ، والعمارات ، والتماثيل ، والقدور الراسيات التى لا تتحرك من أماكنها يصنع فيها الطعام ، والجفان التى كانت واسعة جداً كالحياض ، بحيث أن من يعدل من الجن عن أمر ربه ويزيغ عن طاعة سليمان فإن الله يذيقه عذاب السعير فى الآخرة ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ سبأ

وقد ذكر الله آل داود بهذه النعمة ، وأمرهم بطاعته شكراً له على ما أنعم به عليهم من تلك النعمة التى خصهم بها دون سائر خلقه ؛ وقليل من

عباد الله المخلصون فى توجيده ، والقيام بواجب شكره ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ سبأ

٦ ـ أكرمه الله بالخيل الجياد (الصافنات) فكان يحبها ليس لأمر الدنيا وحب النفس و إنما كان يحبها لأمر الله تعالى ليستعين بها على الشدائد تقوية لدين الله وللغزو والجهاد فى سبيل الله .

وقد جلس وقت العصر وأمر بإحضار الخيل لعرضها عليه ، ثم أمر عليه السلام بتسييرها حتى غابت الشمس عن بصره وتوارت ، وقد نسى صلاة العصر (النافلة لا الفرض) فقال نادماً متأثراً : إنى أحببت وآثرت حب الخير عن صلاة العصر (النافلة) وقدمت استعراض الخيل وأنا ناس بل قدمته من غير قصد على الصلاة ، حتى توارت الشمس وغابت بالأفق عن العيون . ولما أتم استعراضها ووجد أنها شغلته ، وتذكر أن صلاة العصر النافلة فاتته عن وقتها أمر الجند الراكبين عليها أن يردوها إليه فلما عادت أخذ يمسح سوقها وأعناقها (كما يفعل الآن بعض الناس المولعين بحب الخيل) محبةً منه لها (كما جاء عن ابن عباس) وتشريفاً لها ، لكونها من أعظم الأعوان لدفع العدو .

ويقول بعض المفسرين : أنه أخذ يضرب سوقها وعنقها بالسيف لغيظه من فوات الصلاة بسببها ، ولا يعقل إن نبى الله يعذب حيواناً ويهلك مالاً بغير سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها .

ولا ذنب لها باشتغاله كما قال الطبرى .

وكان عليه السلام يفعل ذلك تواضعاً منه ، حيث أنه يباشر أكثر الأمور بنفسه ، ولأنه كان أعلم الناس بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها (كأعظم طبيب بيطرى) وكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها ليعلم ما فيها من مرض أو علة ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ ص

فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه

قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ ص

تفسير الآية السابقة

جاء فى الحديث الشريف عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« قال سليمان بن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ؛ فقال له صاحبه (الملك الذى يأتيه بالوحى) قل : إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون »

وعلى هذا الحديث يكون تفسير الآية المذكورة الكريمة (وقد ذكرها فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح خليفة فى مجلة الإسلام بالعدد ١٩ من السنة الثانية) كما يأتى :

قال الله تعالى ـ بعد مابين ما كان لسليمان عليه السلام من الملك والخبرة بالخيل ، وحب الغزو والرغبة فى الجهاد فى سبيل الله تعالى وإعداد العدة لذلك :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ بْنَ داود ﴾ عليهما السلام بعظم الملك ، وقوة الجسم ، وكمال الإيمان ، حتى وثق بربه كل الوثوق ، وجعل إذا طلب أمراً أو شرع فى شىء يعلم يقيناً أنه مجاب ، وأن هذا الأمر حاصل وواقع

تحفظاً له عليه السلام ، و إعلاء لدرجته ، وزيادةً فى إيمانه ، وتنبيهاً له على ألا يترك كل ما يكمله ، ولو كان مباحاً ، أو خلاف الأولى لم يجب قوله هذه المرة لتركه التفويض باللفظ و إن كان مفوضاً بالقلب

﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ أى شقاً نصف إنسان ، مع أنه طلب مائة أو تسعة وتسعين ، أو سبعين أو ستين ، أو أربعين ، فعلم عليه السلام أن الوثوق التام بالله تعالى من الإيمان ؛ ولكن الأولى والأجدر بالأنبياء هو التفويض التام باللفظ والقلب لله عز وجل فى كل الأمور .

ثم إنه عليه السلام بعد ما عرف ذلك ﴿ أَنَابَ ﴾ إلى ربه وتاب أن يقول إلاَّ مفوضاً له عز وجل بالقلب واللسان معاً كما قال الله تعالى .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ الكهف

و بعد أن تاب وأناب دعا ربه طالباً المغفرة والملك العظيم

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ ما كان منى ﴿ وَهَبْ لِي ﴾ من لدنك ﴿ مُلْكًا ﴾ عظيماً أزيد مما معى أستطيع به إعلاء كلمتك والدعوة إلى توحيدك ﴿ لَا يَنْبَغِي ﴾ أن يكون مثل هذا الملك ﴿ لِأَحَدٍ ﴾ من الأنبياء وغيرهم من بنى إسرائيل ﴿ مِنْ بَعْدِي ﴾ من الإسرائيليين ﴿ إِنَّكَ ﴾ يامولاى ﴿ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ كثير العطاء ، لك مَن فى الأرض والسماء .

فأجاب الله دعاءه ، وسخر له الريح والشياطين مما لم يكن لأحد من بعده من بنى إسرائيل .

ملاحظة ـ طلب المغفرة لا يدل على وقوع الذنب ، بل هو لأن الإنسان لا ينفك عن حديث نفس ، وحدوث خواطر، فهو يطلب المغفرة ليكون على أتم صفاء ، وخلوص قلب ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة ، فهذا الاستغفار من باب الذكر والعبادة ، وليس لحدوث ذنب ، قال الله تعالى :

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ المؤمنون .

وكل هذه النعم التى أعطاها الله له هى من عطاء ربه ، وهبها إليه وأمره أن يتصرف فيها كيف يشاء ، فيعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء بغير حساب عليه فى ذلك ، لأنه قد نال عند ربه الزلفى وحسن العاقبة .

٧ ـ إن الله تعالى علمه لغة الطير ، ومنحه من جميع النعم قسطاً وافراً ، وهذا هو فضل الله المبين يؤتيه من يشاء ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النمل :

٨ ـ وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فى مسير لهم يساقون ويتلاحقون حتى إذا أتى سليمان وجنوده على وادى النمل قالت نملة لإخوتها :

يا معشر النمل ادخلوا مساكنكم لا يهلكنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم ، فلما سمعها سليمان عليه السلام تبسم ضاحكاً من قول النملة وقال : رب اجعلنى بحيث أحتفظ بشكر نعمك التى تفضلت بها على وعلى والدى ، وأن أعمل عملاً صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ النمل .

وتعرَّف سليمان وفود الطير التى كانت تجتمع عنده ، فلما تفقدها لم يجد من بينها الهُدهُد فقال : مالى لا أرى الهُدهُد أهو حاضر ولست أراه لشىء يستره عنى أم كان من الغائبين ؟

ووعد بأن يعذبه عذاباً شديداً أو يذبحه عقاباً له ، وزجراً لأمثاله أو يأتيه بحجة بينة تظهر له عذره .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ النمل

سليمان وملكة سبأ (بلقيس)

لما جاء الهُدهُد بعد أن غاب أمداً غير بعيد ، سأله سليمان عليه السلام عن سبب غيبته وتخلفه عن الحضور ، فقال له : عَلِمْتُ ما لم تعلم وجئتك من (سَبَأ) بخبر يقين ؛ ثم قال الهُدهُد أيضاً : يانبى الله إنى وجدت امرأة تملك بنى سَبأ (وهى بلقيس بنت شراحيل) وقد آتاها الله من كل شىء يحتاج إليه الملوك فى ترفهم ، ولها عرش عظيم فيه أنواع الزينة ، والجواهر الثمينة ، وجدتها وقومها وثنيين يعبدون الشمس ، وقد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فمنعهم أن يتبعوا الطريق المستقيم ، وهو دين الله الذى بعث به أنبياءه ، فهم لا يهتدون إلى سبيل الحق ، ولا يسلكونه ؛ ولكنهم فى ضلالهم الذى هم فيه يترددون ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ النمل

فلما سمع سليمان كلام الهُدهُد أراد أن يختبره ليعلم إن كان صادقاً فى خبره أم كاذباً ؟ فأعطاه كتاباً ليوصله إلى الملكة وقال له : اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تنحّ عنهم وانظر ماذا يقولون ؟

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

النمل

فذهب الهُدهُد بكتاب سليمان عليه السلام فألقاه على سريرها فأخذته ؛ ولما قرأته قالت لقومها : يامعشر القوم إنى أُلقى إلىّ كتاب كريم مكتوب فيه « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » فالقصد ألاّ تتكبروا علىّ وأتونى منقادين لله بالوحدانية والطاعة

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

النمل

لم ترد الملكة أن تستبد بالإجابة ، فجمعت رجال دولتها وأهل مشورتها من الأقيال وغيرهم ، وأعلمتهم بالكتاب ، وقالت لأشراف قومها : يأيها الملأ أشيروا علىّ فى أمرى الذى قد حضرنى من أمر

صاحب هـذا الكتاب الذى أُلقى إلىَّ فإنى لا أقضى أمراً فى ذلك دون مشورتكم فيه .

﴿ قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ النمل .

فأعربوا أنهم لا شأن لهم بالسياسة ، وأنهم رجال طعان لا غير ، وقالوا : نحن ذوو القوة على القتال ، والبـأس الشديد فى الحرب ، والأمر أيتهـا الملـكة إليك فى القتال وفى تركه ، فانظرى من الرأى ما ترين ونحن طائعون لأمرك .

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ النمل .

كانت الملـكة عاقلة فنظرت فى الأمر بعين الروية والفطنـة ، ولم تغتر بما أبداه رجالها من الحماسة ، فقالت لهم : إن الملوك إذا دخلوا قرية عنوة وغلبة أفسدوها وخربوها ، وجعلوا أعزة أهلهـا أذلة ، وذلك باستعبادهم الأحرار واسترقاقهم إياهم ، وكذلك يفعلون ، كما قال الله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ النمل .

ثم عرضت عليهم رأياً آخر وجـدته أقرب إلى الصواب ، وقالت لهم :

إنى مرسلة إلى سليمان بهدية لنختبره بذلك ، ولنعرف إن كان هو ملكاً أم نبياً ؟ فإن يكن نبياً لم يقبل الهدية ، ولم يرضه منا إلا أن نتبعه على دينه ؛ وإن يكن ملكاً قبل الهدية وانصرف ، فلننظر ماذا يقول رسلى عند رجوعهم ؟ أبقبول وانصراف عنا ، أم برد الهدية والثبات على مطالبتنا باتباعه على دينه ؟

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾

النمل

فلما جاءت رسلها إلى سليمان بالهدية لم يقبلها ، وأظهر أنه ليس فى حاجة إلى أموالهم ، وأنه فى حالة حسنة ، واسباع ثروة ، أحسن مما فيه الملكة وقومها ، وقال لهم : إن الله آتانى من المال والدنيا أكثر مما أعطاكم منها وأفضل ، وإنى لا أفرح بهديتكم التى أهديتموها إلىّ ؛ بل أنتم تفرحون بالهدية التى تهدى إليكم ؛ لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا ومكاثرة بها ، وليست الدنيا وأموالها من حاجتى ، لأن الله تعالى مكننى منها وملكنى فيها ما لم يملك أحداً .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ النمل .

ثم توعدهم وملكتهم بأن يرسل إلى بلادهم بجنود لا قبل لهم بها ،

وأن عاقبة ذلك إخراجهم من بلادهم أذلةً صاغرين ، وقال لرسول الملكة :

ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم ، ولا طاقة لهم بها ، ولا قدرة لهم على دفعهم عما أرادوا منهم ، ولنخرجن مَن أرسلكم من أرضكم أذلةً وهم صاغرون إن لم يأتونى مسلمين طائعين مقرّين بوحدانية الله .

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ النمل .

فلما جاء الخبر مع الرسل إلى الملكة ، وعلمت عظمة سليمان وقوة ملكه ، وأشفقت على قومها استقر رأيها على الذهاب إليه فى جمع من رجال دولتها ، وجاءت إلى (أورشليم) بيت المقدس بهدية عظيمة .

فلما علم سليمان بعزم ملكة سبأ على زيارته فى عاصمة ملكه شيَّد لها قصراً عظيماً فخماً لا عهد لأهل اليمن برؤية مثله .

ولما قربت من ديار سليمان ، أراد سليمان أن يظهر لها من دلائل عظمته ونعم الله تعالى عليه ما يبهرها ، وأن ترى بعينها ما لم تره فى الأحلام بفعلة عجيبة ظاهرة ، وهى : أن يأتيها بعرشها الجميل ليكون جلوسها عليه فى ذلك الصرح ، فسأل جنوده عن رجل قوى يأتيه بذلك العرش ، وقال لهم : أيها الملأ أيكم يأتينى بعرش هذه الملكة قبل أن يأتونى طائعين مسلمين ؟ فقال عفريت من

الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنى عليه لقوى أمين .

قال سليمان : أنا أريد أعجل من ذلك .

قال رجل من الإنس (عنده علم من الكتاب فيه اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب) أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك (أى قبل أن يرجع إليك البصر إذا فتحت العين) فدعا باسم الله الأعظم وهو عنده ، فاحتمل العرش احتمالا حتى وضع بين يدى سليمان .

فلما رأى سليمان عرش ملكة سبأ مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربى الذى أفضله علىّ ، وعطائه الذى جاد به علىّ ، ليختبرنى ويمتحننى أأشكر ذلك من فضله علىّ أم أكفر نعمته علىّ بترك الشكر له ؟ ويقول الله تعالى لعباده : من شكر نعمة الله عليه وفضله فإنما يشكر طلب نفع نفسه ، لأنه لا حاجة لله إلى أحد من خلقه ، وإنما دعاهم إلى شكرها للنفع لهم ، لا لاجتلاب نفع من شكرهم إياه ، ولا دفع ضر عنه ، وأن من كفر نعمه وإحسانه إليه ، وفضله عليه ، فقد ظلم نفسه ، وبخسها حظها ، والله غنى عن شكره لا حاجة به إليه ، لا يضره كفر من كفر به من خلقه ، كريم ومن كرمه أفضاله على من يكفر نعمه .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ النمل

ولما جيء بعرش (بلقيس) صاحبة سبأ وقدمت هي عليه قال سليمان لجنده : غيّروا لهذه المرأة سريرها ، بمعنى أنهم يزيدون وينقصون فيه ، لننظر أتهتدي وتعقل ، فتثبت أنه عرشها أم تكون من الذين لا يعقلون ؟ (أي لننظر إن كانت تعرفه أم لا ؟)

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ النمل

فلما جاءت ورأت العرش قال لها سليمان : أهكذا عرشك ؟ فقالت : كأنه هو . فقال سليمان : وأوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته على ما يشاء ، وكنا مسلمين لله من قبلها

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ النمل

وكانت هذه المرأة كافرة من قوم كافرين ، وقد صدّها عن الهداية للحق وعبادة الله كفرها بقضاء الله وقدره وعبادتها للشمس والقمر وكان

ذلك من دين قومها وآبائها فاتبعتهم فيه

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ النمل

ثم قال لها سليمان : ادخلى الصرح ليريها ملكاً أعز من ملكها وسلطاناً أعظم من سلطانها (وقيل : إن هذا الصرح الذى أمر سليمان بعمله قد عملته الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضاً ، ثم أرسل الماء تحته ثم وضع فيه سريره فجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس)

فلما رأته حسبته لجةً من الماء ، فكشفت عن ساقيها لتخوض فيه لئلا تبتل ثيابها بالماء ، وأخبرت بأن ما ظنته ماء إنما هو زجاج

فدعاها سليمان لعبادة الله ، وعابها فى عبادتها الشمس من دون الله

فقالت : رب إنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ، وأسلمت وحسن إسلامها

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ النمل

موت سليمان عليه السلام

كان سليمان عليه السلام يصلى فمات وهو قائم يصلى ، والجن يعملون ولا يعلمون بموته ، حتى أكلت الأرضة (وهى دابة الأرض) عصاه ، فلما خرّ على الأرض ميتاً تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولًا فى العذاب المهين ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ (عصاه) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ سبأ .

وفى هذا دليل كاف على أنه لا يعلم الغيب إلا الله وتكذيب لمن يدعى معرفة المغيبات من الدجالين والمنجمين كما قال تعالى :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ الجن ٢٦

وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ التوبة ٩٥

١٩ - قصة إلياس (عليه السلام)

سيدنا إلياس عليه السلام هو إلياس بن يسى بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران قد أرسله الله نبياً ورسولًا إلى قومه من بنى إسرائيل الذين كانوا يعبدون صنماً يقال له (بَعـل) لينصحهم ، ويدعوهم إلى عبادة الله ، فقال لهم : أيها القوم ، ألا تتقون الله فتخافون وتحذرون عقوبته على عبادتكم صنماً وتدعون بعـلاً رباً ، وتتركون عبادة الله أحسن الخالقين الذى هو ربكم ورب آبائكم الأولين ، وليس الصنم الذى لا يخلق شيئاً ولا يضر ولا ينفع ؟

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾

الصافات

وجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله ، وهم لا يسمعون له نصحاً ولا يصدقون له قولًا وكذبوه .

فلما رأى إلياس أن بنى إسرائيل قد كذبوه ولم يطيعوه ، وأبوا إلا الكفر والظلم دعا عليهم ، فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين فهلكت الماشية والطيور والهوام والشجر ، وجهد الناس جهداً شديداً واستخفى .

إلياس خوفاً على نفسه من بنى إسرائيل ، وكان حيثما وجُد وَجد رزقه ، وكانوا إذا وجدوا ريح الخبز فى دار أو بيت قالوا : لقد دخل إلياس هذا المكان فطلبوه ، ولقى منهم أهل ذلك المنزل شراً ، ثم إنه أوى ليلة إلى امرأة من بنى إسرائيل لها ابن يقال له : (اليسع بن أخطوب) به ضَرٌّ ، فآوته وأخفت أمره ، فدعا إلياس لابنها فعوفى من الضرِّ الذى كان به واتبع اليسع إلياس فآمن به وصدقه ولزمه ، فكان يذهب معه حيثما ذهب . وكان إلياس قد كبر وهرم ، وكان اليسع غلاماً شاباً (فيزعمون والله أعلم) أن الله أوحى إلى إلياس أنك قد أهلكت كثيراً من الخلق ممن لم يعص سوى بنى إسرائيل من البهائم والدواب والطير والشجر بحبس المطر عن بنى إسرائيل (فيزعمون والله أعلم) أن إلياس قال : رب دعنى أنا الذى أدعو لهم ، وأكون أنا الذى آتيهم بالفرج مما هم فيه من البلاء الذى أصابهم لعلهم يرجعون وينزعون عما هم عليه من عبادة غيرك ، قيل له : نعم . فجاء إلياس إلى بنى إسرائيل فقال لهم : إنكم قد هلكتم جهداً ، وهلكت البهائم والدواب والطير والهوام والشجر بخطاياكم ، وإنكم على باطل وغرور (أوكما قال لهم) فإن كنتم تحبون أن تعلموا ذلك ، وتعلموا أن الله ساخط عليكم فيما أنتم عليه ، وأن الذى أدعوكم إليه هو الحق ، فاخرجوا بأصنامكم هذه التى تعبدون وتزعمون أنها خير مما أدعوكم إليه ، فإن استجابت لكم فذلك كما تقولون ، وإن هى لم تفعل

علمتم أنكم على باطل فنزعتم ، ودعوت الله ففرج عنكم ما أنتم فيه من البلاء . قالوا : أنصفت . فخرجوا بأوثانهم وما يتقربون به إلى الله من أحدثهم التى لا ترضى فدعوها فلم تستجب لهم ولم تفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء ، حتى عرفوا ماهم فيه من الضلالة والباطل

ثم قالوا لإلياس : ياإلياس ، إنا قد هلكنا فادع الله لنا . فدعا لهم إلياس بالفرج مما هم فيه وأن يسقوا ، فخرجت سحابة مثل الترس بإذن الله على ظهر البحر وهم ينظرون ثم ترامى إليها السحاب ، ثم أرسل المطر فأغاثهم فحييت بلادهم وفرج عنهم ما كانوا فيه من البلاء . فلم ينزعوا ولم يرجعوا وأقاموا على أخبث ما كانوا عليه

فلما رأى ذلك إلياس من كفرهم دعا ربه أن يقبضه إليه فيريحه منهم ؛ فأذن له الله فى مهاجرتهم ففعل ؛ وأوعد الله قومه بأنهم واقعون فى عذاب الله ، إلا عباده المخلصين الذين أخلصهم من العذاب

وقد أثنى الله على إلياس وأبقى له ذكراً حسناً فى الآخرين من الأمم من بعده ؛ لأنه كان من المؤمنين المخلصين المرسلين ، كما يجازى بذلك أهل طاعته المخلصين فى عبادته ، المحسنين فى أفعالهم ؛ وذلك قوله تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصافات

٢٠ - قصة اليسع (عليه السلام)

لما انقطع إلياس من بنى إسرائيل بعث الله (اليسع بن أخطوب بن العجوز) نبياً ورسولاً. وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم فى سورة الأنعام:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

فقام مقام إلياس فى وعظ ونصح الناس، ودعوتهم إلى عبادة الله واتباع الحق، فأصلح من شأنهم، وآمنوا به جميعاً، واستمر معهم زمناً إلى أن مات.

ثم إن بنى إسرائيل من بعد وفاته تركوا العمل بأحكام التوراة وأخذ التابوت منهم، وصاروا يزدادون يوماً فيوماً فى الكفر والطغيان فرفع الله تعالى عنهم النعمة والأمن والراحة، وسلط عليهم أعداء ينازعونهم أرضهم وديارهم، فاستولت عليهم الدولة (الأشورية) وكان قاعدة ملكها (نينوى عاصمة بابل) وفى هذا العصر ظهر يونس عليه السلام.

٢١ - قصة يونس (عليه السلام)

سيدنا يونس عليه السلام هو ابن (متى) وكان قبل بعثته رجلاً صالحاً يتعبد فى جبل فى قرية من قرى الموصل يقال لها (نينوى)؛ وكان قومه يعبدون الأصنام، فبعثه الله تعالى إليهم لينهاهم عن المنكر، ويأمرهم بالمعروف، ويصدهم عن الكفر، ويرغبهم فى توحيد الله.

قال الإمام على كرم الله وجهه: بعث الله يونس بن متى إلى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، فأقام فيهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثاً وثلاثين سنة فلم يؤمن به إلا رجلان أحدهما (روبيل) وكان عالماً حكيماً والآخر (تنوخ) وكان عابداً زاهداً.

وقال ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما: لما يئس يونس من إيمان قومه دعا عليهم فأوحى الله إليه، ما أسرع ما دعوت على قومك، ارجع إليهم فادعهم أربعين ليلة أخرى، فإن أجابوك وإلا فإنى مرسل عليهم العذاب؛ فرجع ودعاهم سبعاً وثلاثين ليلة فلم يجيبوه، فقام فيهم خطيباً وقال: إنى محذركم العذاب إلى ثلاثة أيام إن لم تؤمنوا، فخافوا وقالوا: إنا لم نجرب عليه كذباً.

فلما كانت ليلة الأربعين خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم ولما أصبحوا تغشاهم العذاب ، فظهرت سحب سوداء فى السماء ، وثار دخان كثيف ، وهبطت السحب بدخانها حتى غشيت مدينتهم ، وأيقنوا بالهلاك والعذاب ، فطلبوا نبيهم يونس فلم يجدوه ، فقذف الله فى قلوبهم التوبة ، وألهمهم الرجوع إليه عز وجل ، فخرجوا إلى العراء (الخلاء) بأنفسهم ونسائهم وأبنائهم ودوابهم ، وأظهروا الإيمان والتوبة لله تعالى ، وأخلصوا له النية ، وعلت أصواتهم بالدعاء ، وضجوا بالبكاء ، وتضرعوا إلى الله تعالى ، وقالوا : آمنا بما جاء به يونس ، فرحمهم ربهم واستجاب دعوتهم وقبل توبتهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أضلهم .

وقد مدحهم الله وقال فيهم : إنهم كانوا مثلاً حسناً ، لأنهم صدقوا النية ، وتابوا توبةً نصوحاً ، وآمنوا قبل نزول العذاب ، فحوله الله عنهم ، وكشف عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعهم الله بالنعم والخيرات إلى حين من الدهر .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

يونس

فلما رجعوا إلى الذنوب ، وعادوا إلى السيئات ، ونقضوا التوبة ، رفع الله عنهم الخير وأنزل بهم القحط والمقت .

ولما خرج يونس عليه السلام من بين أظهرهم ، مكث ينتظر نزول العذاب بهم فلم ينزل ، ولم يعلم أنهم قد تابوا ، وتاب الله عليهم . فخشى أن يرجع إليهم لئلا يقتلوه ، فإن من عادتهم قتل من كذب ، ولم تكن له بينة ، وقد أوعدهم وحذرهم العذاب ولم يقع ، فظن أنهم قد يرمونه بالكذب ويقتلونه ، وانطلق ملتجئاً إلى ربه ، مغاضباً قومه الذين يئس من إيمانهم حتى أتى (بحر الروم) .

ولما أتى البحر وجد قوماً يركبون سفينة فركب معهم ودفع الأجر فأصاب السفينة ريح كادت تغرقها ، فقال الملاحون : إن فيها عبداً آبقاً (لأن من عادة السفينة إذا ركب فيها آبق لا تسير حتى يخرج منها) فاقترعوا وقالوا : مَن تخرج القرعة عليه فهو الآبق (الهارب) .

ولما اقترعوا وقعت القرعة على يونس عليه السلام فقال : أنا الآبق ، فلم يقبلوا منه ، وقالوا : كيف ذلك ؟ إنا نرجو بك الخير والنجاة .

واقترعوا ثانية وثالثة والقرعة تخرج على يونس عليه السلام ، فزج نفسه فى الماء فابتلعه الحوت ولم يقتله ؛ بل بقى حيًّا فى بطنه ، وهو عليه السلام قد لام نفسه من عدم الصبر حتى يأمره الله بالهجرة أو غيرها .

وقد مكث عليه السلام فى بطن الحوت ثلاثة أيام حتى أدركه الغم وأصابه الهم ، ونزل به المرض ، فنادى ربه فى الظلمات : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل قائلاً :

(لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) لأنفسهم بترك الصبر حتى توحى إلىّ بما أتبعه ، وأقوم على تنفيذه .

فأجاب الله دعاءه ونجاه من الغم الذى كان فيه ، وكذلك ينجى الله المؤمنين به ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ (أى صاحب الحوت) إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

الأنبياء

فلما استجاب له ربه أوحى إلى الحوت فقذفه على جانب نهر (الدجلة) ولولا أنه كان عليه السلام من المسبحين الذين يذكرون الله لبقى فى بطن الحوت حيًّا أو ميتاً إلى يوم القيامة ، ولكن الله جلت قدرته ، ونفذت إرادته ، جعل الحوت يقذفه إلى وجه الأرض الخالية على جانب نهر (الدجلة) وهو سقيم ، خائر القوى ، ضعيف البدن ، نحيف الجسم

مما حصل له ، وأنبت عليه شجرة من (اليقطين) ليستظل بها رحمةً من الله به وقال أغلب المفسرين هى (شجرة القرع) فكان لا يتناول منها ورقةً إلَّا أروته لبناً ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِٱلْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴾ الصافات .

وجاء فى كتاب الفقه : أن سيدنا يونس عليه السلام حين أخرجه الله من بطن الحوت ، وقت غياب الشفق وظهور النجوم ، صلى أربع ركعات شكراً لله لنجاته ، « فهو أول من صلى صلاة العشاء » .

ثم أمره الله تعالى أن يأتى قومه ، فصدع بأمر ربه ، فلقى راعياً فسأله عن قوم يونس ، وعن حالهم وكيف هم ؟ فأخبره أنهم بخير ، وأنهم يرجون أن يرجع إليهم رسولهم ، فقال له : أنا يونس . فذهب فرحًا وأخبر قومه فأسرعوا إليه ، وانكبوا على رجليه يقبلونهما ، ودخل معهم (نينوى) فوجدهم قد تابوا وأنابوا ، وكانوا يتمنون رجوعه ، ففرحوا به فرحًا شديداً فمكث فيهم ، وكانوا مائة ألف فأكثر ، فآمنوا بيونس عليه السلام .

وبما جاء به ، واتبعوه فى كل ما أمرهم به ونهاهم عنه ، وهذا إيمان جديد غير إيمانهم حين رأوا العذاب ، فمتعهم الله بالنعيم والخيرات إلى أجلهم المسمى فيمن ماتوا على الإيمان ، أو إلى أن عصوا ربهم وخالفوا نبيهم فيمن جحدوا وأنكروا

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

الصافات

وفى هذا إشارة إلى أن من يؤمن بالله حق الإيمان ويتقه ويتبع رسله ويصدع بأوامرهم يمتعه الله فى الحياة الدنيا متاعاً حسناً ويرزقه من حيث لا يحتسب ويفوز برضا ربه وحسن لقائه فى الدار الآخرة

٢٢ - قصة زكريا (عليه السلام)

زكريا عليه السلام ابن (برخيا) وهو من ذرية سليمان عليه السلام، وكان الحبر الكبير فى بنى إسرائيل، وهو الذى يقرب القربان فى بيت المقدس، ويتلو عليهم التوراة، وكان متزوجاً (إيشاع) أخت (حنة) زوجة (عمران بن ماتان) أحد كبار بنى إسرائيل. وكانت (حنة) قد حرمت الولد حتى يئست، فتضرعت إلى الله تعالى أن يرزقها ولداً، وقالت: يارب إنى جعلت لك نذراً، أن لك الذى فى بطنى محرراً لعبادتك، وحبسته لخدمتك وخدمة قدسك، فتقبل منى ما نذرت لك يارب، إنك أنت السميع لما أقول، العليم بما فى نفسى، لا يخفى عليك سرّ أمرى وعلانيته وذلك قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ آل عمران

ثم توفى زوجها (عمران بن ماتان) وهى حامل. فلما وضعت (حنة) قالت: رب إنى وضعت الذى نذرته إليك أنثى - والله أعلم بما وضعت - ثم قالت - اعتذاراً إلى ربها مما كانت نذرت فى حملها فحررته لخدمة ربها - : وليس الذكر يامولاى كالأنثى؛ لأن الذكر أقوى على الخدمة

وأن الأنثى لا تصلح لدخول القدس، والقيام بخدمة الكنيسة ، لما يعتريها من الحيض والنفاس ، وإنى سميتها (مريم)

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ آل عمران

ثم عوَّذتها بالله من الشيطان وقالت : إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فاستجاب الله لها فأعاذها الله وذريتها من الشيطان الرجيم ، فلا يجعل له عليها وعليهم سبيلاً

﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ آل عمران

ثم أخذتها أمها (حنة) وحملتها إلى المسجد ، ووضعتها عند الأحبار أبناء (هارون) وقالت لهم : دونكم هذه المولودة التى نذرتها ، فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، وتقبلها الله قبولاً حسناً ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا ، فقال لهم : أنا أحق بها منكم ؛ لأنها بنت خالتى وخالتها (إيشاع) عندى ، فقالوا : نعم ، ولكنا نقترع عليها ، فألقوا أقلامهم فى نهر جارٍ (قيل : انه نهر الأردن)

فلما ألقوا أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة ارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فأخذها زكريا وكفلها وضمها إلى خالتها ،

وربّاها أحسن تربية حتى كبرت وبلغت مبلغ النساء ، وبنى لها غرفة (محراباً) فى المسجد ، فاعتكفت وصارت تتعبد فيه ، ولم يكن يدخل عليها أحد غير زكريا عليه السلام

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ آل عمران

فكان كلما دخل عليها زكريا فى حجرتها (أى فى المحراب) وجد عندها فاكهةً وطعاماً ، فكان يسألها عن مصدره فتقول : هو من عند الله ، وان الله يرزق من يشاء من خلقه بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ آل عمران

فلما رأى زكريا عليه السلام ما رأى عند مريم من رزق الله الذى رزقها وفضله الذى آتاها من غير واسطة أحد من الآدميين فى ذلك لها أكبر هذه الكرامة ، وكان قد بلغ من العمر مائة وعشرين سنة ، ولم يرزق بولد وامرأته (إيشاع) كانت عاقراً ، ويئس من الذرية ، فدعا ربه أن يرزقه منها ذريةً طيبةً مع الحال التى هما بها كما رزقه (مريم)

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ آل عمران

ثم نادى ربه نداء خفياً لا علنياً ؛ لأنه لا يريد ظهوراً ولا رياء فقال : يارب لقد وهن عظمى وضعف ، وانتشر الشيب فى رأسى ، ولم أكن بدعائك يارب شقياً ؛ لأنك لم تخيب دعائى إذ دعوتك ، وإنى خفت بنى عمى ، وعصبتى من بعدى ، أن يرثونى بعد حياتى ، فلايحسنون خلافتى ، وإن امرأتى عاقر لا تلد ، فامنحنى ياإلهى من فضلك ولياً يلى أمرى من صلبى فيخلفنى ويرثنى من بعد وفاتى ، ويرث من آل يعقوب النبوة والعلم ، (لأن زكريا كان من ولد يعقوب) واجعله يارب مرضياً ترضاه أنت ، ويرضاه عبادك ديناً وخلقاً ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ مريم

فاستجاب له ربه ، فقال له : يازكريا إنا نبشرك بهبتنا لك غلاماً اسمه (يحيى) ولم نجعل له شبيهاً ، ولم يسم باسمه أحد من قبل

﴿ يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ مريم

قال زكريا لما بشره الله بيحيى : ربِّ من أين يكون لى غلام وامرأتى عاقر لا تحمل ، وقد بلغت من الكبر سناً لا يرجى معه الحصول على ولد ؟

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ مريم

فقال الله لزكريا مجيباً له : الأمر كذلك ، وهو علىّ هين وسهل ؛ لأنى قد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً مذكوراً ، وجعلتك بشراً سوياً ، فكذلك أخلق لك الولد الذى بشرتك به من زوجتك العاقر مع تقدم سنك ، ووهن عظمك ، واشتعال رأسك بالشيب

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ مريم

فقال زكريا : يارب اجعل لى علامة أستدل بها على ما بشرتنى به ملائكتك من هذا الغلام عن أمرك ورسالتك ليطمئن إلى ذلك قلبى

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ مريم

فأجابه الله سبحانه وتعالى وقال له : علامتك لذلك ، ودليلك عليه ، ألاَّ تكلم الناس ثلاث ليال وأنت صحيح الجسم لا علة بك من مرض ولا خرس يمنعك عن الكلام

﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ مريم

فخرج زكريا على قومه من مصلاه حين حبس لسانه عن كلام الناس (آية من الله على تحقيق وعده) وأشار إليهم بالتسبيح والحمد ، والشكر لله فى البكور والمساء

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ مريم

ثم لما عاد إلى المحراب : (وكانت امرأته إيشاع قد حملت) فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : يازكريا إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى ، يؤمن (بعيسى بن مريم) ويكون سيد القوم حليماً تقياً ، ممتنعاً عن الشهوات ، ومن أنبيائه الصالحين

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ آل عمران

ثم وضعته فكان من عباد الله الصالحين ، ومنحه الله الحكم والنبوة

٢٣ — قصة يحيى عليه السلام

لما ولد زكريا عليه السلام يحيى قال الله له : يايحيى خذ الكتاب (كتاب الله الذى أنزله على موسى وهو التوراة) بقوة وجد ، واحكم بما فيه

وقد أعطاه الله منذ صباه أى قبل بلوغ سن الرجال الفهم لكتاب الله ، والحكم به وذلك رحمةً من الله به ، ومحبةً له

وقد طهَّره الله من الذنوب ، وجعله تقياً يتقى الله ويخافه ، مؤدياً فرائضه مجتنباً محارمه ، مسارعاً فى طاعته ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ مريم

وقد منحه الله العطف على أبويه ، ولذا كان بَرًّا بهما ؛ مسارعاً فى طاعتهما ومحبتهما ، غير عاقٍّ لهما ، ولم يكن مستكبراً عن طاعة ربه وطاعة والديه ، ولكنه كان لله ولوالديه متواضعاً متذللاً ، يأتمر بما أمر به ، وينتهى عما نهى عنه ، لايعصى ربه ، ولا والديه ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ مريم .

ولذا حيَّاه الله ، ووعده بالسلام والأمان ، من أن يناله الشيطان من

السوء بما ينال به بنى آدم فى يوم ولادته ، كما أنه وعده بالأمان من فتنة القبر يوم يموت ، والأمان من عذاب يوم القيامة ومن أن يفزعه شىء مما يفزع الخلق يوم الفزع الأكبر .

﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ مريم .

وقيل : إن سيدنا يحيى ولد قبل المسيح بثلاث سنين .

قتل يحيى وزكريا

قيل : كان فى عصر يحيى ملك له زوجة عجوز ، وكان معها ابنة من غيره ، فأراد الملك ويقال له : (هردس) أن يتزوجها فاستفتى يحيى عليه السلام فى ذلك . فأجابه بأنها لا تحل له ، فغضب الملك على يحيى وقتله ، ولما قتل يحيى وسمع أبوه زكريا بقتله فرّ هارباً فدخل بستاناً عند بيت المقدس فأرسل الملك فى طلبه وقتله . وقد مات كل منهما شهيداً .

ويروى أن يحيى عليه السلام سيد الشهداء يوم القيامة ، وقائدهم إلى الجنة ؛ وقيل : إنه مدفون ببيت المقدس ، وقيل بمدينة فلسطين ، والله تعالى أعلم .

انتهى بعون الله الجزء الأول ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى ويشمل (أولى العزم من الرسل) والله الموفق ؟

السيد على فكرى

ابن المرحوم

السيد محمد عبد الله الحكيم

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الأولى
٦	مقدمة الطبعة الثانية
٨	مقدمة الطبعة الثالثة
٩	كلمة إجمالية عن الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين
١٣	(١) قصة آدم عليه السلام
٢٥	(٢) « إدريس «
٢٨	(٤) « هود «
٤١	(٥) « صالح «
٤٨	(٧) « لوط «
٥٢	(٨) « إسماعيل «
٦٥	(٩) « إسحٰق «
٦٩	(١٠) « يعقوب «
٧٣	(١١) « يوسف «
١٢٢	(١٢) « أيوب «
١٢٦	(١٣) « ذى الكفل «
١٢٩	(١٤) « شعيب «
١٤٢	(١٧) « داود «
١٥٦	(١٨) قصة سليمان عليه السلام
١٧٤	(١٩) « إلياس «
١٧٧	(٢٠) « اليسع «
١٧٨	(٢١) « يونس «
١٨٤	(٢٢) « زكريا «
١٩٠	(٢٣) « يحيٰى «

تنبيه

أما قصة نوح عليه السلام رقم (٣)
وقصة إبراهيم عليه السلام « (٦)
« موسى « « (١٥)
« هرون « « (١٦)
« عيسى « « (٢٤)
« محمد « « (٢٥)

فجميعها مذكورة فى الجزء الثانى الخاص بأولى العزم من الرسل عليهم السلام فى المبدأ والختام

قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . سورة يوسف

أحسن القصص

لواضعه

السيد

علي فكري

الأمين الأول لدار الكتب المصرية سابقاً

الجزء الثاني

من قصص الأنبياء

يشمل أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام

[الطبعة الثالثة ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م]

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ »

[قرآن کریم]

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ؛ فأحمد الله أولاً على نفاد الطبعة الأولى من كتابى هذا ﴿ أحسن القصص الجزء الثانى ﴾ مما يدل على قبوله واستحسانه من جميع الطبقات حتى من حضرات العلماء أنفسهم الذين نظروه وقدروه حق قدره ، وطلبوا منه نسخاً لطلابهم . ونخص بالذكر منهم فضيلة أستاذنا العالم الكبير الشيخ محمد الحسينى الظواهرى ، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الشافعى الظواهرى فقد طلبا منه عدداً وافراً ووزعاه بين أهليهم وعشيرتهم ، وحثوا تلاميذهم على اقتنائه ومطالعته لحسن أسلوبه وسهولة عبارته

وهذا ولا شك يقابل منهما بالشكر والثناء ، وخالص الدعاء لهما بطول البقاء ، وبالتوفيق والمعونة فى خدمة العلم ونصرة الدين

ثانياً — أشكر الله شكراً جزيلاً على انتشاره ليس فقط فى مصر بل فى الأقطار العربية والسورية والمشرق الأقصى أيضاً.

ومن داعى غبطتى وسرورى أنه ترجم إلى لغة (الأندونسيا) حيث طلب إلىّ الأستاذ مرزوق عمر افندى المعلم بالمدرسة المحمدية (غورنتارت أندونسيا) فى خطابه الرقيم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٨ يقول فيه :

« هذا الكتاب محتاج جداً للأمة (يقصد أمة الملايو) ولكن مع الأسف لغته اللغة العربية ، ولهذا أطلب من حضرتكم الترخيص لى بترجمته إلى لغة الأندونسيا لزيادة النشر والانتفاع بهذا الكتاب فى سائر الأقطار وأرجو أن ترسلوا الى جواباً ، وشكراً لكم ، ونسأل الله لنا ولكم العافية وعلى الله توكلنا والسلام »

وقد أرسلت إليه الرد فى ١٨ / ١١ / ١٩٣٨ بالترخيص له بالترجمة شاكراً ممتناً ويكفى هذا دليلاً على أهمية الكتاب ونفعه لبنى الإسلام ، ولا داعى للاطناب فى هذا الباب .

وختاماً أرجو الله أن يستمر فى قبوله وانتشاره حتى يعمّ نفعه أبناء الأمة الإسلامية إنه السميع المجيب ؟

١٢ / ١ / ١٩٤٥

على فكرى

الأمين الأول ورئيس المغيرين

لدار الكتب المصرية

سابقاً

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه نستعين)

الحمد لله الذى أرسل أنبياءه ورسله لهداية الخلق إلى طريق الحق والسير على الصراط المستقيم ، والصلاة والسلام على أولى العزم من الرسل الذى خصهم الله بالثبات والصبر على الشدائد والمكاره وقوة العزيمة وقال فى حقهم :

« فاصبرْ كما صَبرَ أُولو العزمِ مِنَ الرُّسُلِ »

فالواجب على كل مسلم الاقتداء بهم فى العمل بأوامر ربهم وحسن عبادته واجتناب ما نهى عنه كما أوحى به إليهم فى كتابه العزيز

أما بعد فقد نفدت ولله الحمد الطبعة الثانية من هذا الجزء الثانى من قصص الأنبياء الشامل لأولى العزم من الرسل وهم :

نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله أجمعين .

ونقدمه اليوم للطبعة الثالثة مبتهلين إلى الله أن يزيد فى قبوله وانتشاره ليزداد معرفة الناس بأنبيائهم ورسلهم فيزدادوا إيماناً بهم (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ويزداد نفعهم بالعمل بأوامر ربهم وسنة رسله

نسألك اللهم أن تقوى إيماننا وأن تنور قلوبنا بنور الإيمان والإسلام كما أننا نسألك حسن الختام إنك أنت السميع المجيب ؟

السيد

على فكرى

العباسية فى ٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٦٩ ١٠ يناير سنة ١٩٥٠

٣ - قصة سيدنا نوح عليه السلام

أرسل الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام إلى قومه ، لينذرهم و يخوفهم عاقبة تماديهم فى الباطل ، و يأمرهم بترك عبادة الأصنام التى كانوا يعبدونها ، وهى حجارة يصنعونها بأيديهم ، وأخذ يبين لهم أنها حجارة لا تضر ولا تنفع ، ولا يليق بهم أن يعبدوها و يذلوا أنفسهم لها ، وهم عقلاء مفكرون ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ نوح

وقال لهم : اعبدوا الله وخافوه وأطيعوه يغفر لكم ذنوبكم ، كما قال تعالى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ نوح

و يُبقيكم إلى أقصى ما قدره لكم من بقاء فى هذا العالم ، كما قال تعالى :

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ نوح

وأخذ يدعوهم ليلاً ونهاراً وهم يفرون منه

وكان كلما ينصح لهم يفرون منه ، ويعرضون عنه ، ويضعون

أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا ، ويغطون وجوههم بثيابهم كراهة النظر إليه وأصروا على كفرهم ، وتكبروا عن سماع نصيحته ، وذلك قوله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ نوح

وقال : لقد حاولت إقناعهم على وجوه شتى فدعوتهم جهاراً بغير تحفظ ، ثم أعلنت لهم ، وأسررت إليهم القول إسراراً ، كما قال تعالى حكاية عنه :

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ نوح

وقلت لهم : اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، وتوبوا اليه ، فإنه غفور رحيم ، يقبل توبة من تاب وأناب إليه، كما قال تعالى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ نوح

ولأنه يرسل المطر عليكم هطالاً ليسقى به زرعكم ونباتكم ، ويمددكم بالأموال والبنين ، ويجعل لكم أنهاراً وبساتين ، فما لكم لا ترعون طاعته وتعظيمه وتوقيره ؟ يثبت ذلك قوله تعالى :

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ﴾ نوح

وقد خلقكم نطفةً ثم علقةً ثم مُضغةً ثم عظاماً ثم لحماً فتبارك الله أحسن الخالقين لقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ أى طوراً بعد طور من مادة صماء إلى بشر سوى

ثم ذكرهم بعظمة قدرة الله ، وشديد بطشه وقوته ، فقال لهم : انظروا كيف خلق الله سبع سموات بعضها فوق بعض ، وجعل فيهن قمراً وشمساً لإنارة الكون وحياته ؟ لقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ نوح

ثم ذكرهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقهم من تراب الأرض ، ثم يعيدهم فيها ، ثم يخرجهم منها ، لقوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ نوح

ثم بينّ لهم عظمة الخالق جلّت قدرته ، وقال لهم : هوالذى جعل لكم الأرض مبسوطةً تمشون وتمرحون فيها ، وتتقلبون عليها ، لتخترقوا منها طرقاً واسعةً متفرقةً ، لقوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾
أى طرقاً واسعة
نوح

وكان نوح عليه السلام يدعوهم لطاعة الله وعبادته ، ويذكرهم بكل هذا فى مجالسهم وبيوتهم وهم يعصونه ، ولم يفدهم نصحه ، فقال فى دعائه : ربِّ إنهم عصونى واتبعوا رؤساءهم الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ، ومكروا مكراً عظيماً ، وعكفوا على عبادة أصنامهم الموروثة عن آبائهم ، وهى المذكورة فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾
نوح

ولقد أضلت هذه الأصنام كثيراً من الناس فلم تزد الظالمين إلى ضلالاً حتى استحقوا من الله أشد العقوبات فى الحياة الآخرة لقوله تعالى :

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾
نوح

ومن أجل خطيئاتهم هذه أغرقهم الله بالطوفان ، فأدخلوا ناراً ولم تغن عنهم الأصنام التى كانوا يعبدونها من عذاب الله شيئاً .

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾
نوح

ثم قال نوح داعياً ربه : لا تترك على الأرض من الكافرين الضالين أحداً

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾

أى واحداً

فإنك إن تتركهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كثير الكفران والجحود مثلهم

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ نوح

ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات بالرحمة والغفران قائلاً :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ نوح

ثم دعا على الظالمين بالهلاك قائلاً :

﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾ أى هلاكاً ودماراً ـ نوح

واستمر نوح على هذه الحال ألف سنة إلا خمسين عاماً لقوله تعالى :

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ العنكبوت

ثم أوحى الله إلى نوح لما حقّ على قومه القول ، وأظلهم أمر الله ، أنه أن لن يؤمن يانوح بالله وحده ، ويتبعك على ما تدعوه إليه من قومك ، إلا لمن قد

آمن ، فصدّق بذلك واتبعك ، فلا تحزن بما كانوا يفعلون ، ولا تأسف على ضياع مجهودك الطويل ، فهو عند الله محفوظ ، لأن الله لا يضيع أجر العاملين .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ هود

فإنى مهلكهم ، ومنقذك منهم ، ومن اتبعك .

ثم أمره أن يصنع الفلك ، وهو السفينة تحت رعايته و بوحى منه ، ولا يشفع فى الذين ظلموا أنفسهم من قومه ، فإنهم محكوم عليهم بالغرق بالطوفان

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ هود

فأخذ نوح يصنع السفينة كما أمره الله ، وكلما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه سخروا منه هزؤاً ويقولون له : أتحولت نجاراً بعد النبوة وتعمل السفينة فى البر ؟ فيقول لهم نوح : إن تسخروا منا ، أى إن تهزءوا بنا اليوم ، فإنا نهزأ بكم فى الآخرة : كما تهزءون بنا فى الدنيا ، سوف تعلمون أيها القوم إذا جاء أمر الله بالهلاك مَن يأتيه عذاب يخزيه ويهينه ، ويحل به عذاب دائم لا انقطاع له ؟

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ هود

ولما أتمّ نوح صنع السفينة ، وجاء أمر الله الذى وعده أن يجىء قومه من الطوفان الذى يغرقهم ، فتفجرت ينابيع الأرض وأمطرت السماء مدراراً . وفار التنور ، أى القدر الساخن المملوء بالماء الذى جعل الله فورانه بالماء آية مجىء العذاب لهلاك قوم نوح .

ثم قال الله لنوح : احمل فى السفينة من كل زوجين اثنين ، يعنى ذكراً وأنثى ، واحمل أهلك أيضاً فى الفلك ما عدا الذى قلت إنى مهلكه مع مَن أهلك من قومك ، وكذا احمل مَن آمن ، وهم عدد قليل .

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ هود

فحملهم نوح فى السفينة ، وقال لهم : اركبوا فيها على بركة الله ، فإنها ستجرى باسم الله ، وترسو باسم الله ، فبإسم الله يكون مجراها ومرساها فإن ربى غافر الذنب ، وقابل التوب ، رحيم فلا يعذب بعد التوبة مَن تاب إليه .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

هود

وصارت السفينة تجرى بهم ، أى بنوح ومَن معه فيها ، فى موج كالجبال ، وقد تخلف ولده (يام) وكان فى معزل عن والده فلم يركب السفينة ، فنادى نوح ابنه قائلاً له : يا بنى اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين .

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ هود

فأجابه قائلاً : سآوى إلى جبل يعصمنى وأتحصن به من الماء فيمنعنى من الغرق .

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ هود

فقال نوح لابنه : لا مانع اليوم من أمر الله إلّا من رحمه الله ، ولا نجاة من عذابه ، فإنه هو الذى يمنع من يشاء من خلقه ، ويعصم من يشاء ، وحال بين نوح وابنه موج الماء فغرق ، فكان ممن أهلكه الله بالغرق من قوم نوح عليه السلام .

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ هود

ثم قال الله تعالى للأرض ، بعد ما نفذ أمره فى هلاك قوم نوح بما

أهلكهم به من الغرق : يا أرض اشربى ماءك ، ويا سماء كفى عن المطر وأمسكى ، فشربت الأرض الماء وجفت ، ومضى أمر الله بهلاك قوم نوح ، واستوت السفينة ورست على جبل بناحية الموصل أو الجزيرة يقال له (الجودى) وقيل : أبعد الله القوم الظالمين الذين كفروا بالله من قوم نوح ، وكان جزاؤهم الغرق عقوبةً من الله لهم فى الدنيا ، ثم مصيرهم إلى النار فى الآخرة .

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ هود

ثم نادى نوح ربه فقال : يا رب إنك وعدتنى أن تنجينى من الغرق والهلاك وأهلى أيضاً ، وقد غرق ابنى ، وابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق الذى لا خلف له ، وأنت أحكم الحاكمين ، فاحكم لى بأن تفى لى بما وعدتنى به ، من أن تنجى لى أهلى وترجع إلىَّ ابنى .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ هود

فقال الله لنوح : يا نوح إن الذى أغرقته الذى تذكر أنه من أهلك ليس هو من أهلك الذى وعدتك أن أنجيهم ؛ لأنه كان لدينك مخالفاً ، وبى كافراً ، وكان عمله هذا عملاً غير صالح .

﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ هود

والآن وقد أخبرتك عن سؤالك سبب هلاك ابنك الذى أهلكته فلا تسألنى بعدها عما قد طويت علمه عنك من أسباب أفعالى وليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، أى تبلغ الجهالة بك الظن ألا أفى لك بوعد وعدتك به حتى تسألنى ما ليس لك به علم .

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ هود

فقال نوح عليه السلام ، مستغفراً من زلته مسألته التى سألها ربه فى ابنه : يا رب إنى أستجير بك أن أتكلف مسألتك ما ليس لى به علم مما قد أحطت بعلمه وحدك منفرداً عن خلقك ، فاغفر لى زلتى فيما سألتك فى ابنى ، وإن أنت لم تغفرها لى وترحمنى فتنقذنى من غضبك أكن من الخاسرين .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هود

ثم قال الله لنوح : أنزل من الفلك إلى الأرض بسلام منا أنت ومن معك وبركات (خيرات) وزيادات فى الرزق والنسل عليك ، وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم فى الحياة الدنيا ، ثم يمسهم منا عذاب أليم .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هود

وكان هبوط نوح من السفينة يوم عاشوراء .

روى ابن جرير الطبرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فى أول يوم رجب ركب نوح فى السفينة فصام هو وجميع مَن معه ، وجرت بهم السفينة ستة أشهر فانتهى ذلك إلى المحرم فرست السفينة على الجودى (يوم عاشوراء) فصام نوح ، وأمر جميع مَن معه فصاموا شكراً لله ، ولما هبط نوح ومَن كان معه فى السفينة قسم الأرض ثلاثاً على بنيه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ، لكل منهم ثلثها ، قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ الصافات

وقد قيل: إن نوحاً عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة ، وقد انتشر نسله عليه السلام من عهده إلى وقتنا هذا ، ولذا سُمِّى (أبا البشر الثانى) بعد آدم عليه السلام

صفات سيدنا نوح عليه السلام

سُمِّيَ نوحاً لكثرة نوحه على نفسه ، وكان أول نبي من أنبياء الشريعة المطهرة ، وأول داع إلى الله تعالى ، وأول نذير عن الشرك ، وأول من عذبه قومه لردهم دعوته ، وأهلك أهل الأرض كلهم بدعائه .

وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمراً ، وقيل أكبر الأنبياء ، وشيخ المرسلين .

وجعل معجزته فى نفسه ؛ لأنه عمَّر ألف سنة ، ولم ينقص له سن ، ولم تنقص له قوة ، ولم يبالغ أحد من الرسل فى الدعوة مثل ما بالغ .

وكان يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسراً ، ولم يلق نبي من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى والجفاء مثل ما لاقى نوح عليه السلام ، فلذلك قال الله تعالى :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ النجم

وجُعل ثانى المصطفى فى الميثاق والوحى قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ الأحزاب

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ النساء

وهو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمـــــد صلى الله عليه وسلم .

وأول من أعطاه الله علم الفلك وصنعته وحفظه بما فيه ، وأجراه فوق الماء وسمّاه شكوراً فقال تعالى :

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ الإسراء

ولقد أكرمه الله بالسلامة والبركة فقال تعالى :

﴿ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ هود

وجعل الله ذريته هم الباقين فى الأرض بعد مهلك قومه ، وترك له ذكراً جميلًا فيمن تأخر بعده من الناس يذكرونه به ؛ لأنه من عباد الله المؤمنين به وقال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصافات

وهو عليه السلام معصوم ، ولم يصدر منه ما يخالف العصمة .

أما دعاء ربه نجاة ابنه من الغرق ، فكان ذلك منه للاستعاذة وطلب المغفرة ؛ ولاذنب ولامعصية ، لأنه معصوم؛أما قول الله تعالى له :

﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ هود

فهو من باب التحذير فقط ، لا نسبة الجهل إليه ، وإنه أتى ذنباً بسؤاله ربه نجاة ابنه شفقةً عليه ؛ لأن استعاذة الأنبياء ، وطلبهم الغفران ، ودعاءهم كل ذلك من قبل إظهار العبودية لمالك الملك الكبير المتعال .

دعاء نوح على الكفار

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً . رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾ (أى هلاكا) نوح

١٦ - قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

سيدنا إبراهيم ، هو خليل الله عليه الصلاة والسلام ابن (آزر) ويتصل نسبه (بسام) بن نوح عليه السلام ، وكان أبوه نجاراً ينحت الأصنام ويبيعها ممن يعبدها ؛ أما إبراهيم عليه السلام فقد أنار الله بصيرته وهداه إلى الرشد ، فعلم أن الأصنام لاتبصر شيئاً ، ولا تسمع نداء ، ولا تجيب دعاء ، ولا تضر ولا تنفع ، وأنها مثل الخشب الذى تصنع منه ، وأن أباه هو الذى يصنعها ، ورأى أن أهله وقومه يعبدونها من دون الله ، فشرع فى أن ينهاهم عن عبادتها ، ويستهزىء بهم ، وأن يقيم عليهم الحجة فى توحيد الله وعبادته ودعا أباه إلى دين الله :

فقال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم على عبادتها مواظبون ؟

قالوا : وجدنا آباءنا يعبدونها فحذونا حذوهم فى عبادتها .

قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الأنبياء

فاستبعدوا أن يبلغ الامر بإبراهيم أن يحكم عليهم بضلالهم وضلال آبائهم ، فقالوا له : أتقول ذلك جِدًّا أم هزلاً ؟ قال : بل جئتكم بالحق لا اللعب ، ربكم رب السموات والأرض الذى خلقهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين ، فإياه فاعبدوا لا هذه التماثيل

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ الأنبياء

فأقسم إبراهيم بالله قائلاً : لا والله لأكسرن أصنامكم بعد أن تذهبوا إلى عيدكم . فدخل إلى هيكلهم فحطم آلهتهم قطعاً ، عدا أكبرها حجماً ، فقد تركه حتى إذا رجعوا إليه بالسؤال عمن فعل ذلك ؛ وقالوا : مَن فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ؟ ردَّهم إلى سؤال آلهتهم لتجيب إن كانت تملك الكلام .

قال تعالى : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ الأنبياء

وأراد إبراهيم بهذه الطريقه أن يفهم القوم مركز آلهتهم ويقيم

لهم الحجة عملياً على أنها لا يمكن أن تلحق بهم أذى إذا تركوا عبادتها أو تكسبهم خيراً إذا عبدوها ؛ لأن البرهان العملى أوقع فى النفس من غيره

ثم قالوا لإبراهيم : أأنتَ صنعتَ هذا بآلهتنا ياإبراهيم ؟ قال : لا . بل فعله كبيرهم هذا ، وأشار إلى الصنم الأكبر الذى تركه سليماً ، وقال : فاسألوهم إن كانوا ينطقون ؟

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَـذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ الأنبياء

فلما سمعوا هذا القول من ابراهيم عليه السلام رجعوا إلى صوابهم ونظر بعضهم إلى بعض فقالوا : إنكم معشر القوم لظالمون لهذا الرجل فى مسألتكم إياه ، وعرفوا أن آلهتهم لا تضر ولا تنفع ، ولا تدفع ولا تبطش ، ولا تتكلم فتخبر مَن صنع هذا بها ، فنكسوا رءوسهم اعترافاً بإقامه الحجة عليهم من إبراهيم ، ثم عادوا فانقلبوا إلى المجادلة بالباطل وقالوا له : هَل علمت أن هؤلاء الأصنام لاينطقون ؟

قال تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ الأنبياء

فقال لهم إبراهيم : أفتعبدون أيها القوم مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؟

وهأنتم أولاً قد علمتم أنها لم تمنع نفسها ممن أرادها بسوء ، ولم تقدر أن تنطق إن سُئلت عمن يمسها بسوء فتخبر به . قبحاً لكم وللآلهة التى تعبدونها من دون الله ! فهلا تعقلون ذلك ، وتتركون عبادتها وتعبدون الله الذى فطر السموات والأرض والذى بيده النفع والضر ؟

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الأنبياء

فلما عجزوا عن مجادلته فى الحق ، ولم تصادف موعظته منهم قلوباً واعيةً ، وأذناً صاغيةً ، عمدوا إلى اتخاذ سلاح القوى الجبار الذى لاحق معه إزاء المُحِق الضعيف ، فقال بعضهم لبعض : حرقوا إبراهيم بالنار ، وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها حقاً . فأوقدوا ناراً عظيمةً وألقوه فيها

قال تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ الأنبياء

فنجاه الله منها وقال : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، فلم تصبه بسوء بإذن الله ولم تؤثر فيه مطلقاً ، فلما رأى قوم إبراهيم هذه المعجزة آمن به بعضهم ، وأصرّ الباقون على كفرهم وعنادهم :

وأرادوا به كيداً فأهلكهم الله وجعلهم من الأخسرين الهالكين .

قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ الأنبياء

ونجّى الله إبراهيم ولوطاً من أعدائهما (النمرود وقومه) فنقلهما من أرض العراق إلى أرض الشام ، وهى الأرض المباركة التى بارك الله فيها للعالمين ، فنزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط بالمؤتفكة ، وبينهما مسيرة ليلة .

قال تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء

١ — مجادلة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه

إن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام ، ينحتونها ويسمونها بأسماء الكواكب كالشمس والقمر ونحوهما ، فأراد إبراهيم أن يبين لهم أن الكواكب والشمس والقمر لا تصلح لأن تكون آلهة تعبد من دون الله . وإنما الإله الذى يعبد هو الذى خلقهن وخلق السموات والأرض وبيده ملكوت كل ما فيهما ، فقال إبراهيم لأبيه (آزر) : يا أبتِ أتتخذ الأصنام آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ، بعيدين عن الحق .

وقد أراه الله ملكوت السموات والأرض ، أى عجائبهما و بدائعهما وأسرار الربوبية فيهما ، ليستدل بهما على وجود بارئهما ، ويكون من أصحاب اليقين ..

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام

فلما ستره الليل بظلامه رأى كوكباً ، وكان قومه يعبدون الكواكب ، فأراد أن يرشدهم إلى الله من طريق الحس والنظر والاستدلال ، فقال : هذا ربى . فلما غاب . قال لا أحب الغائبين ، فما بالك بعبادتهم ؟

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ الأنعام

فلما طلع القمر قال : هذا ربى . فلما غاب ، قال : لئن لم يهدنى ربى إليه لأكونن من الضالين ، أى من القوم الذين أخطأوا الحق فلم يصيبو الهدى وعبدوا غير الله .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ الأنعام

ولما رأى الشمس طالعةً قال : هذا الطالع ربى . هـذا أكبر من الكواكب والقمر ، فلما غابت الشمس قال إبراهيم لقومه : ياقوم : إنى برىء مما تشركون ، أى من عبادة الأصنام ، والكواكب والقمر ، والشمس

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

الأنعام

فلما تبيَّن لإبراهيم عليه السلام الحق وعرفه شهد شهادة الحق ، وقال لقومه : ياقوم إنى برىء مما تشركون مع الله الذى خلقنى وخلقكم فى عبادته من آلهتكم وأصنامكم (وإنى وجهت وجهى) فى عبادتى إلى الله الذى خلق السموات والأرض الدائم الذى يبقى ولايفنى ، ويحيى ويميت (حنيفاً) أى مستقيماً مخلصاً ، وما أنا من المشركين ، الذين أشركوا فى عبادة الله غيره ، فلست ممن يدين بدينكم ، ويتبع ملتكم أيها المشركون

قال تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام

فجادله قومه ، وخاصموه فى توحيد الله ، وبراءته من الأصنام ، بقولهم : إن آلهتهم التى يعبدونها خير من إلهه . فقال لهم إبراهيم : أتجادلوننى فى توحيد

الله ، و إخلاص العمل له دون ماسواه ، وقد وفقنى ربى وهدانى إلى معرفة وحدانيته ، و بصرني طريق الحق ، طريق الهدى والرشاد ، حتى أيقنت ألّا شيء يستحق أن يعبد سواه ، ولاأخاف من آلهتكم التى تدعونها من دونه أن ينالنى منها شيء فى نفسى من سوء ومكروه ؛ لأنهـا لا تنفع ولا تضر إلّا أن يشاء الله ؛ ولـكنى أخاف الله الذى وسع كل شيء علماً ، فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء أفلا تتذكرون وتعتبرون أيها الجهلة فتعقلوا خطأ ، ما أنتم مقيمون عليه من عبادتكم صورةً مصوَّرة ، وخشبةً منحوتة ، لا تقدر على ضر ولا نفع ، ولا تفقه ولا تعقل شيئاً

قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ الأنعام

ثم قال لهم : وكيف أخاف وأرهب أصنامكم وهم لا يضرون ولا ينفعون ؟ ولو كانت تنفع أو تضر لدفعت عن نفسها كسرى إياهـا ، وضربى لها بالفأس

وكيف أنتم لا تخافون الله الذى خلقكم ورزقكم ؟ وهو القادر على نفعكم وضركم فيما ارتكبتموه من الجريمة الشنعاء ، وهى أنكم أشركتم

بالله ما لم ينزل به عليكم حجةً ناهضةً وبرهاناً ، ولم يجعل لكم به عذراً ، فأى الفريقين منا أحق بأن تكون نفسه آمنة مطمئنة إن كنتم تعلمون صدق ما أقول ، وحقيقة ما أحتج به عليكم .

قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام

وكان فصل القضاء من الله بين إبراهيم ، خليله عليه السلام ، وبين مَن حاجّه من قومه من أهل الشرك بالله قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ الأنعام

أى الذين أخلصوا لله كإخلاص إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وتوحيده ، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ، أولئك لهم الأمن الصحيح وهم مهتدون .

وكان قول إبراهيم عليه السلام لخاصميه من قومه المشركين : أى الفريقين منا أحق بالأمن والطمأنينة ؟ الذى يعبد ربًا واحداً مخلصاً له الدين والعبادة ، أم الذى يعبد أرباباً كثيرةً ؟ هو حجة من الله منحها إياه على قومه فرفع بها درجته عليهم ، وشرفه بها فى الدنيا والآخرة ، فجعله من عباده الصالحين ،

فإن الله يرفع مَن يشاء ، ويخفض مَن يشاء ، حكيمٌ فى رفعه وخفضه ، عليمٌ بحال من يرفعه أو يخفضه واستعداده له .

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنعام

٢ — محاورة إبراهيم لأبيه ، ونصحه له بعبادة الله وترك عبادة الأوثان

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر فى كتاب الله إبراهيم خليل الرحمٰن ، فاقصص على هؤلاء المشركين قصصه وقصص أبيه (إنه كان صدِّيقاً) أى من أهل الصدق فى حديثه ، وأخباره ، ومواعيده لا يكذب .

(وكان نبياً) قد نبأه الله وأوحىٰ إليه ؛ واذكره إذ قال لأبيه : يا أبتِ لِمَ تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ؟ أى كيف تصنع بعبادة الوثن الذى لا يضر ولا ينفع ؟

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً ﴾ مريم

ثم قالى له : يا أبتِ إنى قد آتانى الله من العلم ما لم يؤتك ، فاتَّبِعْنِي واقبل نصيحتى أهدك الطريق السوىَّ المستقيمَ ، الذى لا تضل فيه إن لزمته ، وهو دين الله الذى لا اعوجاج فيه .

قال تعالى ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ مريم

يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان عاصياً لله

قال تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ مريم

يا أبتِ إنى أعلم أنك إن مُتَّ على عبادة الشيطان يمسك عذاب من الله فتكون موالياً للشيطان ، ويتبرأ الله منك فتهلك .

قال تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ مريم

فقال أبو إبراهيم لابنه ، حينما دعاه إلى عبادة الله ، وترك عبادة الشيطان والبراءة من الأوثان والأصنام : أراغبٌ أنت يا إبراهيم عن عبادة آلهتى وكارهٌ لها ؟ لئن لم تنته عن ذكرها بسوء لأقذفنّك بالكلام المؤلم ، وبالسب والقول القبيح ، واهجرنى مليًّا ، أى ابعد من عقوبتى حيناً من الدهر .

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ مريم

فقال إبراهيم مودعاً أباه ، بعد أن توعده على نصيحته إياه : سلامٌ عليك يا أبتِ ، وسأستغفر لك ربى ، إنى عهدته لطيفاً بى ، يجيب دعائى إذا دعوته ، وإنى لمتجنبكم وما تدعون من دون الله من الأوثان والأصنام ، داعياً ربى بإخلاص العبادة له ، وإفراده بالربوبية ، عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ، خائباً مثلكم فى دعاء آلهتكم ، فإنه يجيب دعائى ويعطينى ما أسأله ، قال تعالى :

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ مريم

ولما تجنب إبراهيم قومه وعبادة ما كانوا يعبدون من الأوثان ، آنس الله وحشته من فراقهم ، وأبدله بهم من هو خير منهم ، وأكرم على الله ، فوهب له ابنهُ إسحٰق ، وابن ابنه يعقوب ، وجعلهم كلهم أى إبراهيم وإسحٰق ويعقوب أنبياء ، ووهب لهم من رحمته الحكمة والصلاح وجعل لهم أحدوثة عالية بين الناس على توالى الزمان :

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ

إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ مريم

فيتضح من ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان حليماً ، رقيقَ القلب عطوفاً ، رءوفاً باراً بوالده مع قسوته عليه ، وأنه كلما باعد والده بينه وبينه تلطف هو فى المقاربة ، وترفق فى دعوته وهدايته وتحذيره ؛ ولكن كل ذلك لم يفد لغلبة الشقاء عليه

٣ — تبرؤ إبراهيم من أبيه لكفره بالله

كان إبراهيم عليه السلام قد ظفر بوعد من أبيه أنه سيؤمن به ، فلهذا استغفر الله له ؛ ولكنه علم بعد ذلك أنه مقيم على دين قومه ، ولا يزال عدواً لله فتبرأ إبراهيم من أبيه وترك الدعاء والاستغفار له ، فكان إبراهيم بدعاء ربه شاكراً له ، وحليماً عمن سبه وناله بالمكروه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ التوبة

٤ — مجادلة إبرهيم لقومه وقوله : إنى سقيم

كان إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام يسير على منهاجه وملّته ، إذ جاء ربه بقلب سليم من الشرك ، مخلص له التوحيد ، وقال لأبيه وقومه : أى شىء تعبدون ؟ ألا تعقلون أن ماتعبدونه من دون الله هو كذب وباطل ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ ماذا يصنع بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الصافات

ولما كان قومه يشتغلون بالتنجيم ، نظر نظرةً فى النجوم ليوهمهم أنه يتعرف مايصير إليه حالهم ، فرأى نجماً قد طلع فعصب رأسه وقال : (إنى سقيم) أى مطعون مصاب بالطاعون

وكان قومه يهربون من الطاعون فهربوا منه ، وتركوه فى بيت آلهتهم مخافةَ أن يعديهم ، فمال إلى آلهتهم وقال : ألا تأكلون ؟ فلما لم يرها تأكل ، قال لها : مالكم لاتأكلون ؟ فلم يرها تنطق ، فقال لها : مالكم لاتنطقون ، مستهزئاً بها .

قال تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ الصافات

فمال عليها وضربها بيده اليمنى بفأس ليكسرها ، فرجع إليه قومه يسرعون ، فقال لهم : أيها الحمقى : أتعبدون ما تنحتونه بأيديكم وأدواتكم من الأصنام ؟ والله خلقكم والذى تعملونه من الأصنام ، وهو الخشب والنحاس والأشياء التى كانوا يستعملونها فى نحت الأصنام

قال تعالى : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الصافات

فتآمروا عليه وقالوا : ابنوا لإبراهيم بنياناً — قيل : إنه بنوا له بنياناً يشبه التنور (الفرن) ثم نقلوا إليه الحطب وأوقدوا فيه ، وألقوه فى النار وأرادوا حرقه ؛ ولكن الله (حافظه من كل سوء) أهلكهم ، وجعلهم الأشفلين الأذلين ، ورد كيدهم فى نحورهم

ولما نجاه الله قال لهم : إنى ذاهب حيث أمرنى ربى (إلى أرض الشام) لأتجرد ، وأفرغ فيه لعبادته ، إنه سيهدينى ويعيننى على ذلك

قال تعالى : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ

كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾
الصافات

مجادلة أخرى لإبراهيم مع أبيه وقومه

ومن أنباء إبراهيم عليه السلام أنه قال لأبيه وقومه : أى شيء تعبدون ؟ فقالوا : نعبد أصناماً فنبقى مواظبين على عبادتها وخدمتها . فقال لهم : هل هؤلاء الآلهة تسمع دعاءكم إذ تدعونهم ؟ أوتنفعكم هذه الأصنام فيرزقونكم شيئاً على عبادتكم لها ؟ أو يضرونكم فيعاقبونكم على تركككم عبادتها بأن يسلبوكم أموالكم أو يهلكوكم ويهلكوا أولادكم ؟ قالوا : هكذا وجدنا من قبل آباءنا يعبدونها ، ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها ، فنحن نفعل ذلك اقتداء بهم ؛ واتباعاً لمناهجهم وخطتهم

قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ الشعراء

فقال لهم إبراهيم : أفرأيتم أيها القوم ما كنتم تعبدونه من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم أعدائي ، وأنا بريء من عبادتهم ، ولا أعبد

سوى رب العالمين ، الذى خلقنى ويهدينى بفضله ، ويسددنى للرشاد ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، ويهيىء لى مقومات الحياة من طعام وشراب ، ويرزقنى الأرزاق ، وهو الذى يشفينى إذا مرضت ، وإذا اعتل جسمى فهو يبرئه ويعافيه ، وهو الذى سيميتنى عند انقضاء أجلى ، ثم يحيينى للحساب والثواب ، وهو الذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (يوم القيامة)

قال تعالى : ﴿ قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

الشعراء

وهذا الكلام من إبراهيم احتجاج على قومه أنه لا تكون العبادة إلا لمن يفعل كل هذه الأفعال ، لا لمن لا قدرة له على ذلك ، ولا يرجى منه نفع ولا ضر .

ثم بعد هذا الاحتجاج تضرع إلى ربه وسأله أن يهب له كمالًا فى العلم والعمل ليستعد به للقيام بأعباء الرسالة ، وأن يلحقه بالصالحين من رسله ، وأن يجعل له فى الناس ذكراً جميلًا ، وثناءً حسناً باقياً ، وأن يجعله من ورثة جنة النعيم

قال تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ الشعراء

ثم طلب الصفح والمغفرة لأبيه لأنه كان من المشركين الضالين . كما أنه طلب لنفسه أن لايخذله ولا يذله يوم البعث والنشور ، أى يوم يبعث الناس من قبورهم لموقف القيامة (هذا اليوم المشهود) الذى لاينفع فيه مال ولا بنون للدفاع عن العقاب من الله والنجاة منه إلا مَن أتى الله وقلبه سليم من الشرك مخلص له فى العبادة

قال تعالى : ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء

رحلة ابراهيم إلى فلسطين ثم إلى مصر

لما تبرأ إبراهيم من أبيه ، ولم يطلب له المقام بين أهله وقومه ، ذهب أولاً إلى (أور الكلدانيين) ثم إلى (حاران) ورحل بعد ذلك إلى (فلسطين) ومعه زوجه السيدة (سارَّة) وابن أخيه (لوط) ومع لوط زوجه ، وهم الذين آمنوا بإبراهيم كما قال تعالى :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العنكبوت

وسكن فى تلك الأنحاء ، وكانت أرض (الكنعانيين) ؛ ولكنه لم يطل به المقام فانتقل إلى مصر ، وذلك فى عهد ملوك الرعاة (وهم العماليق)

ولما سمع فرعون مصر بأن السيدة (سارة) زوجة إبراهيم الخليل الطاهرة المصونة من أجمل النساء ، أرسل الى إبراهيم عليه السلام . فلما جاء قال : ما هذه المرأة منك ؟ فخاف إبراهيم إن قال له إمرأتى أن يقتله ليتزوج منها فقال له : هى أختى (يريد أخته فى الإسلام) فأتى سارة وقال لها : ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وأن هذا الجبار سألنى عنك فأخبرته أنك أختى ، فلاتكذبينى . فأرسل إليها ؛ فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأخذ ووقفت يده ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك . فدعت الله فأطلق يده . ثم تناولها الثانية ، فأخذ مثلها أو أشد ، فقال . ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجابه فقال : إنكم لم تأتونى بإنسان إنما أتيتمونى بشيطان صرعنى مرتين ، فوهب لها (هاجر) لخدمتها .

وكانت (هاجر) بنت ملك من ملوك القبط ، فأتت (سارة) إبراهيم عليه السلام وهو قائم يصلى ، فأشار بيده إليها ماشأنك ؟ فقالت سارة : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره ، ولم يظفر منى بشىء

وكانت (سارة) زوج إبراهيم عليه السلام عاقراً لاتلد ، وتألمت إذ لم تجد لإبراهيم ولداً ، وهى قد شاخت ولا يرجى لها أن تكون أمًّا ، فاتفقت معه على أن يتزوج من (هاجر) فدخل بها وأتت منه بغلام (هو اسماعيل عليه السلام) ثم رزقت سارة باسحق عليه السلام كما سبق فى قصتهما فى الجزء الأول

بيان الثلاث كذبات التى نسبت لإبراهيم عليه السلام

لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات (وهى ليست من الكذب الحقيقى ؛ بل فى صورة الكذب وكلها فى الله تعالى)

الأولى : قوله لقومه : إنى سقيم . أراد به سقم النفس مما رآه من ضلالتهم

الثانية : قوله لهم حينما سألوه عمن كسر الأصنام : بل فعله كبيرهم ، أى كبير الأصنام ، قال ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء والتبكيت وهذا لا يعد كذباً حقيقياً

الثالثة : قوله لفرعون الجبار حينما سأله عن (سارة) زوجته : هى أختى ويريد أخته فى الدين وليس هذا كذباً ؛ وهـذه الثلاث كذبات وردت فى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه

والنتيجة أن إبراهيم عليه السلام ماقال كذباً ؛ لأنه نبى معصوم ، صادق فى قوله وفعله ، مؤيد بقول الله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ مريم

محاجة إبراهيم للملك

لما كان قوم إبراهيم يعبدون ملوكهم مع آلهتهم أحب ملكهم « النمروذ » أن يرجع إبراهيم عن شريعته الجديدة ، المخالفة لشريعة قومه ، وأن يعبده وآلهته فقال له :

يا إبراهيم مَن ربك الذى بعثك ، وتدعو إلى عبادته ، وتذكر عظمته وقدرته ؟

قال إبراهيم عليه السلام : ربى الذى يُحيى ويُميت

قال النمروذ : أنا كذلك أحيى وأميت ، إنى أستبقى من أريد وأقتل مَن أريد

فقال له إبراهيم : إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب

فتحيّرَ النمروذ ولم يحر جواباً ، ولزمته الحجة ، والله لايهدى أهل الكفر إلى حجة يُدْحِضُون بها حجة أهل الحق عند المخاصمة والمحاجة

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة

إبراهيم والملائكة وتبشيره بإسحٰق

إن إبراهيم عليه السلام كان يحب إكرام الضيف ، فدخل عليه ضيوف من (الملائكة) فظنهم آدميين ، فحيّاهم بالسلام كما حيّوه ، فقدم إليهم طعاماً ، عجلاً سميناً ، بعد أن ذبحه وسوّاه فى النار وجاء به إليهم ، فأمسكوا عن أكله ، ولما رآهم لم يأكلوا منه ، ولم تمتد إليه أيديهم ، ارتاب فى شأنهم وأوجس منهم خيفةً فخاطبهم فى ذلك فعلم أنهم ملائكة ، وهدأوا روعه وبشروه بغلام عليم ، وهو (إسحٰق عليه السلام)

قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ الذاريات

فأقبلت إمرأته (سارة) فى صياح ، ولطمت وجهها متعجبةً وقالت :

كيف ألد وأنا امرأة عجوز عقيم لاتلد ؟ فقالوا لها . كذٰلك قال الله وقدر إنه هو الحكيم العليم

قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ (أى فى شدة الكرب) فَصَكَّتْ (لطمت) وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذاريات

ثم التفت إليهم إبراهيم وقال لهم : ما شأنكم الذى جئتم له أيها المرسلون ؟

قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم لوط لنسقط عليهم حجارةً من طين ، معلمةً عند ربك للمتجاوزين حدود الله فى التعدى ، الكافرين به من قوم لوط ، فأخرجنا مَن كان فيها من المؤمنين ، أى من قرية (سدوم) وهى القرية التى يسكنها قوم لوط فى مكان (البحر الميت) المعروف (ببحر لوط)

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات

وقد خاف إبراهيم من العذاب النازل أن يمس ابن أخيه لوطاً فقال لهم :

إن فيها لوطاً ؛ فقالوا له : نحن أعلم بمن فيها ، وأنه وأهله من الناجين

وقد أخبر إبراهيم ، بأن وقوع العذاب بقوم لوط أمر محتم لاتقبل فيه شفاعة ، ولايفيد عنه جدال

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

هود

سؤال إبراهيم لربه رؤية إحياء الموتى

لما كان إبراهيم عليه السلام مؤمناً بالله و بالبعث والنشور ، وأن الله يحيي الموتى ويحشرهم ليوم لاريب فيه ، ليجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، أراد أن يزداد يقيناً و إيماناً ، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، فقال له : أَوَلَمْ تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، من غير شك فى الله تعالى ولا فى قدرته

فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعةً من الطير فيذبحها ، ويفرق أجزاءها على الجبال ، ثم يدعوها ، فإنه سيجدها آتية إليه ، فحينئذ يكون قد رأى الميت قد عاد حيًّا . فأخذ أربعة من الطير فذبحها ، وفرق أجزاءها على الجبال ، ثم دعاها فعادت إليه صحيحةً كأنها لم تذق للموت طعماً

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة

وعُدَّت هـذه من المعجزات التى منحها الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام وأكرمه بها

إبراهيم أسوة حسنة للمؤمنين

يقول الله تعالى للمؤمنين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوةٌ حسنةٌ فى إبراهيم خليل الرحمٰن تقتدون به والذين معه من أنبياء الله .

إذ قالوا لقومهم: إنا بُراء منكم ، ومما تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد ، لقد أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله ، وجحدنا عبادتكم وما تعبدون من دون الله أن تكون حقاً ، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً على كفركم بالله وعبادتكم ماسواه ، ولاصلح بيننا حتى تؤمنوا بالله وحده

لقد كانت لكم أيها المؤمنون أُسوةٌ حسنةٌ فى إبراهيم والذين معه من

الأنبياء فى كل هـذه الأمور، إلا فى أمر واحد، وهو قول إبراهيم لأبيه (لأستغفرنَّ لك) لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدوٌّ لله، فلما تبين له أنه عدوُّ الله تبرأ منه، فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله تبرأوا من أعداء الله المشركين به، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرأوا من عبادة ماسواه، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء.

وقوله لأبيه: وما أملك لك من الله من شىء، أى لا يمكننى أن أدفع عنك من الله من عقوبة عاقبك بها على كفرك به، ولا أغنى عنك شيئاً

ولقد قال إبراهيم والانبياء الذين معه صلوات الله عليهم: ربَّنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، ورجعنا بالتوبة مما تكره الى ما تحب وترضى، وإليك مصيرنا ومرجعنا، يوم تبعثنا من قبورنا، وتحشرنا يوم القيامة فى الموقف العظيم

وقولهم أيضاً: ربَّنا لاتجعلنا فتنةً للذين كفروا بك وعبدوا غيرك بأن تسلطهم علينا فيروا أنهم على حق وإنا على باطل، فتجعلنا بذلك فتنةً لهم، واغفر لنا ذنوبنا بعفوك ياربنا، إنك أنت العزيز الحكيم.

لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوةٌ حسنةٌ فى إبراهيم والذين معه من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم لمن كان منكم يرجو لقاء الله، وثواب الله، والنجاة فى اليوم الآخر، فمن يتول عما أمره الله به وأعرض عنه وأدبر

مستكبراً ، ووالى أعداء الله ، وألقى إليهم بالمودة، فإن الله غنى عن إيمانه به ، وطاعته إياه ، وعن جميع خلقه ، وهو الحميد الذى له الحمد والثناء

قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ الممتحنة

العبرة فى قصة إبراهيم عليه السلام

١ — أنه كان مؤمناً بالله حق الإيمان ، وكان جريئاً فى الحق ، ولذا لم تأخذه فى الله لومة لائم ، وقام بتكسير الأصنام وجعلها قطعاً ، وترك كبيراً لهم وجعله وسيلةً لمحاجتهم حتى ألجمهم ، ولما ضاقوا به ذرعاً ألقوه فى النار وهو لم يعبأ بهم ، ولم يخف منهم ، وكانت النار عليه برداً وسلاماً (وهذا من المعجزات التى أوحى الله إليه بها)

٢ — أنه لم يدخر وسعاً فى ابتكار أساليب الدعاية إلى الحق وتوحيد الله ، فتارة يلجأ إلى النوم، علّه يجد فيها أدلة إقناع ، فلما أفهمهم أن كواكب السماء كلها لاتصلح أن تكون آلهة تعبد جهر بأمره قائلاً : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

الأنعام

٣ — أنه كان يجادل الملك (النمروذ) ويحاجه غير هيّاب ولا وجل ، حتى ألزمه الحجة وألبسه الخزى

٤ — أنه تبرأ من والده لكفره ؛ ومع ذلك كان رقيق القلب ، واسع الصدر ، طويل البال ، متواضعاً لأبيه حينما قال له أبوه :

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ مريم

فأجابه بقوله : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ مريم

وقوله : ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّالِّينَ ﴾ الشعراء

(وسُمِّى إبراهيم) ومعناه : الأب الرحيم

٥ — أنه كان كريماً لضيوفه ، بدليل أنه ذبح لثلاثة أضياف عجلاً سميناً حفاوةً بهم ، مع أنه كان يكفيهم الشىء القليل وهو أول من أضاف الضيف

٦ — إنه كان محباً الاستطلاع ، والوقوف على حقائق الأمور ، والوقوف على دقائق صنع الله تعالى ، ولذلك طلب من الله أن يريه إحياء الموتى ليطمئن قلبه

٧ — إنه كان قائماً على قدم الاستعداد لتنفيذ أوامر ربه فيما أحب أو كره ، بدون تبرم أو تذمر ، متحلياً بالتقوى والطاعة ، والشكر والصبر ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة

ولذا اصطفاه الله فى الدنيا وجعله فى الآخرة من الصالحين ، فهو أبو الأنبياء وتاج الأصفياء

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ البقرة

٨ — وأما صبره على المكاره ، واتباعه أمر ربه ، فيتجلى فى تقديمه ولده (إسماعيل) عليه السلام ليذبحه بيده ويقربه قرباناً لله تعالى ؛ وسبق ذكر هذه المسألة فى قصة (اسماعيل) عليه السلام فى الجزء الأول

١٥ – قصة موسى الكليم عليه السلام
١٦ – وقصة هرون عليه السلام
(لارتباطها بها)

موسى عليه السلام هو ابن عمران ، بن قاهت . بن لاوى بن يعقوب عليه السلام ، وقد أرسله الله لهداية فرعون وقومه حينما طغى و بغى وادعى الألوهية ، وعبده الناس خوفاً منه ، وكان يقول لهم : أنا ربكم الأعلى . ذلك أنه لما علا فرعون فى الأرض ، و بغى ، وجعل أهلها فرقاً أخذ يذبح أبناء طائفةٍ منهم ، و يستحيى نساءهم . و يعذب طائفةً ثانية ، و يستعبد طائفةً ثالثةً ؛ لأنه كان من المفسدين ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

القصص

والسبب الذى حمله على ذلك ، أنه رأى فى المنام ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى وصلت إلى بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط ، وتركت بنى اسرائيل ؛ فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن تأويل رؤياه ، فقالوا له يخرج من هـــذا البلد الذى جاء منه بنو اسرائيل (أى بيت المقدس)

رجل يكون على يديه هلاك مصر وملكها ، فأمر فى بنى إسرائيل ألا يولد لهم غلام إلّا ذبحوه ، ولا تولد لهم جارية إلّا تركت ؛ وقال للقبط : انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم ، واجعلوا بنى إسرائيل يقومون بتلك الأعمال القذرة ، فجعلوا بنى إسرائيل فى أعمال غلمانهم ، وأدخلوا غلمانهم

ولكن الله جلّت قدرته أراد أن يحبط عمل فرعون ويذله ، ويجعل الذين استضعفهم وهم بنو إسرائيل ولاةً وملوكاً ، ويجعلهم الوارثين لآل فرعون ، يرثون الملك من بعد ملكهم ، ويمكن لهم فى الأرض بالشام ومصر

ويُرِى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يتوقعونه من هلاكهم وخراب منازلهم ودورهم ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَنُرِيد أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فى الْأَرْضِ وَنُرِى فرعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ القصص

ولادة موسى وإرضاعه

وفى هذا العهد ولد موسى بن عمران عليه السلام ، فأوحى الله إلى أمه أن ترضعه ، فإذا خافت عليه من عدوّ الله فرعون وجنده أن تلقيه فى اليمّ

(فى النيل) وبشرها ألّا تخاف ولاتحزن لفراقه ، فإن الله سيرده إليها ، ويجعله رسولاً من عنده إلى هذا الطاغية لهلاكه ونجاة بنى إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه ، لقوله تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

القصص

فدعت أم موسى نجاراً فصنع له تابوتاً ، وجعل مفتاح التابوت من داخله ، ووضعته فيه وألقته فى اليمّ كما أمرها الله ، فالتقطه آل فرعون وأخذوه ، وأدخلوه بيت فرعون ظناً منهم ان فيه مالا

فلما فتحته (آسية) امرأة فرعون وجدت به صبياً ، فلما نظرت إليه أخذتها الشفقة والرحمة فأحبته وسمّته موسى ، لأنه وجد بين الماء والشجر ، والماء بلغتهم (المو) و (سا) الشجر ، فسُمى بصفة المكان الذى وجد فيه (موسى) .

ولما أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه ، فلم تزل (آسية) تكلمه حتى تركه لها ، وقال : إنى أخاف أن يكون هذا الصبى من بنى إسرائيل ، وأن يكون هذا على يديه هلاكنا ، ويكون عدوًّا لنا فى ديننا ، وحزناً علينا بما ينالنا منه من المكروه ، ولذا قال الله تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ القصص

أى أن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وكافرين بربهم فلذلك كان لهم موسى عدواً وحزناً

وقالت امرأة فرعون له : هـذا قرة عين لى ولك يافرعون ، فلا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وهم لا يشعرون ، أنه سيكون سبب هلاكهم ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص

وأصبح قلب أم موسى فارغاً من كل شىء إلّا من همّ موسى خوفاً على ابنها من وقوعه فى يد فرعون فيذبحه ، وأنها كادت تبدى خوفها عليه وتقول يا ابناه لولا أن الله عصمها ، وثبت قلبها وأسكت لسانها ، لتكون من المؤمنين بوعد الله الموقنين به ، لقوله تعالى :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ القصص

وقالت أم موسى لأخته (مريم) حين ألقته فى البحر ، اقتفى أثره ، وتتبعى خبره ، عن بعد ، بحيث لا يشعرون بك أنك أخته

لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص

ولما امتنع موسى عن الرضاعة من ثدى المراضع التى أحضرت إليه ، ورأت أخته إعراضه وامتناعه عن الرضاعة منهم ، قالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، ويشفقون عليه ، ويقومون بخدمته ، ويكونون له من الناصحين فى أمر تدبيره وتربيته ؟

فلما قالت لهم ذلك أخذوها وقالوا : إنك قد عرفت أهل هذا الغلام فدلينا على أهله . فقالت : ما أعرفهم ، وإنما أردت أن يكونوا ناصحين وحراصًا على مسرة الملك ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ القصص

فأمروها ، فأحضرت أمها ، فلما حملته أقبل على ثديها بشغف ورغبة فبذلك ، تحقق وعد الله لأمه وأرجعه إليها لتقرّ عينها به ، وتسرّ ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، وإن كان أكثر الناس لا يصدقون ذلك وذلك قوله تعالى :

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ القصص

تربية موسى فى بيت فرعون

بعد أن أتمت أم موسى رضاعه أتت به إلى بيت فرعون ، فأكرمته (آسية) امرأة فرعون وفرحت به ، وأبقته عندها ، فتربى كما كانوا يربون أبناء الملوك فى ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال الدين بحسب التقاليد المرعية فى تلك الأيام ، حتى بلغ أشده ، فكان يركب مراكب فرعون ، ويلبس كفرعون ، وكان يدعى أنه (موسى بن فرعون)

ولما بلغ موسى غاية نموه ، واشتد ساعده وقواه ، واستوى جسماً وعقلاً وتم خلقه واستحكم ، وبلغ أربعين سنة (وقال بعضهم ثلاثين سنة) آتاه الله الحكمة ، وطرق الحكم ، والعلوم الدينية ، والسياسية ، وكذلك يجزى الله المحسنين من عباده كما جازى موسى على طاعته وإحسانه ، لقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ القصص

خروج موسى من مصر إلى أرض مدين وسببه

لما خرج موسى من مصر حتى دخل (مَنف) وقت الظهيرة ، والناس

قائلون أى (نائمون وقت القيلولة) لا يتوقعون حضوره فى هذا الوقت وهم فى غفلة عنه ، وكانت الأسواق مقفلةً ، والطرق خاليةً وجد رجلين يتقاتلان : أحدهما إسرائيلى من أهل دينه يقال له (السامرى) والآخر قبطى مصرى من آل فرعون يقال له (فاتون) لأن القبطى أراد تسخير الإسرائيلى فى حمل حطب إلى مخبزه ، فاستغاث الإسرائيلى بموسى ، فجاء إلى المصرى ووكزه وكزةً كانت القاضية عليه ، وهو لا يريد قتله ؛ ولكن هكذا أراد الله فواراه التراب ودفنه ، ولم يعلم بذلك الأمر سوى الرجل الإسرائيلى الذى نصره موسى ، وندم موسى على ما فعل وقال فى نفسه : هذا الفعل من عمل الشيطان إنه عدوٌ مضل مبين للإنسان ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ المدِينَةَ على حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِه عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قالَ هٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ القصص

ودعا موسى ربه مستغفراً أن يتوب عليه ، وقال : ربِّ إنى ظلمت نفسى بقتل النفس التى لم تأمرنى بقتلها ، فاعفُ عن ذنبى واستره علىَّ ولا تؤاخذنى به فتعاقبنى عليه . فعفا الله لموسى عن ذنبه ولم يعاقبه به ، لأنه

غفور يغفر الذنب لمن تاب وأناب إليه ، رحيم بالناس لا يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ القصص

ثم تضرع موسى إلى الله وقال : يا ربِّ بإنعامك عليَّ بعفوك عن قتل النفس التي قتلتها فلن أكون بعد اليوم معيناً للمجرمين ، ولا أعين ظالماً على فجوره وظلمه ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ القصص

ففي اليوم الثاني خرج موسى إلى المدينة ، وهو خائف من القصاص به ، مترقب الأخبار عن أمره ، وأمر القتيل الذي قتله ، فرأى الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس على الفرعوني يقاتله فرعوني آخر ، فلما رآه الإسرائيلي استصرخه ، واستغاث به ثانيةً ، فقال له موسى : إنك أيها الرجل لضال ظالم مبين ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ القصص

فظن الإسرائيلي أن موسى غير ناصره ، ثم دفعته الحمية على عدوه القبطي

وأراد أن يبطش به ؛ لأنه أغلظ له الكلام ، فنهاه موسى فقال له : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟ ما تريد إلا أن تكون جبّاراً فى الأرض من الجبابرة السفّاكين الدماء ، وما تريد أن تكون من المصلحين ، لقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ القصص

فانطلق القبطى الذى كان يقاتل الإسرائيلى إلى قومه ، فأخبرهم بما سمعه من الإسرائيلى ، وقال : إن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس .

فلما علم فرعون بخبره أرسل الذبّاحين لقتل موسى ، فأخذوا الطريق الأعظم وهم لا يخافون أن يفوتهم ، وكان رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فأسرع واختصر طريقاً قريباً حتى سبقهم إلى موسى وأخبره أن الجماعة يأتمرون على قتله ، ونصح له أن ينجو بنفسه ، ويغادر مصر حتى لا تمتد إليه أيديهم بسوء ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ القصص

فقبل موسى هذه النصيحة الغالية ، وخرج من مصر (مدينة فرعون)

خائفاً يترقب أن يلحقه القوم فيقتلوه ، فتضرع إلى ربه قائلاً : رب نجنى من القوم الظالمين ؛ لقوله تعالى :

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

القصص

ولما توجه تلقاء مدين ماضياً إليها ، فراراً من الذباحين ، متوكلاً على رب العالمين ، شاخصاً عن مدينة فرعون ، خارجاً عن سلطانه قال فى نفسه : عسى ربى أن يهدينى و يبين لى قصد السبيل إلى (مدين) لقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

القصص

دخول موسى أرض (مدين) و نزوله بها

(مدين) هى البلاد التى اختارها موسى وقصدها للنزول بهـا ، وهى على مسيرة ثمان ليال من مصر ، وهى شرقى شـبه جزيرة سينا ، وخليج العقبة ، وشمال الحجاز ، وجنوب فلسطين وتنسب إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام .

فما وصل إليها إلَّا بعد تعب شديد وجوع ، ولم يكن له طعام سوى ورق

الشجر ، وقيل : إنه خرج من مصر خائفاً فما وصل إلى (مدين) حتى وقع خف قدمه من كثرة السير الحثيث المتواصل . فلما ورد ماء (مدين) وجد جماعةً من الناس يسقون مواشيهم وغنمهم ، ووجد دون هؤلاء امرأتين تحبسان مواشيهما عن الناس حتى يفرغوا من سقى مواشيهم ، فقال موسى لهما ، لما رأى من ضعفهما ، وغلبة الناس على الماء دونهما : ما شأنكما ؟ لماذا لا تسقيان مواشيكما مع مواشى الناس ؟ فقالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء مواشيهم ؛ لأننا لا نقدر على مزاحمتهم ، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على المجىء ، ولا يمكنه أن يباشر أمر الرعى والسقى ، فنحن ننتظر الناس حتى إذا فرغوا سقينا ثم انصرفنا ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ القصص

فرقَّ موسى لهما ، وأظهر العطف عليهما ، وأخذ دلوهما وتقدم إلى السقاء بفضل قوته وجهده ، فزاحم القوم على الماء حتى أخرجهم عنه ، ثم سقى لهما ماشيتهما ، ثم رجع إلى الشجرة التى كان جالساً تحتها واستظلَّ بظلها وقال : يا ربِّ إنى إلى برِّك وعطفك محتاج ، فقير إلى ما تنزله علىَّ من خير ، قال ذلك ؛ لأنه كان فى تعب ، وفى شدة الجوع ، ولم يكن معه طعام .

وذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ القصص

ورجعت المرأتان إلى أبيهما قبل الناس ، فقال أبوهما : ما أعجلكما ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً فرحمنا وسقى لنا . فقال لإحداهما : (وهى التى تزوجته فيما بعد) اذهبى فادعيه ، فجاءته وهى تمشى على استحياء ، ومستترة بكم قميصها ، وواضعة يدها على وجهها ، وقالت له فى تواضع وأدب : إن أبى يدعوك ليعطيك أجر ما سقيت لنا . فأجاب الدعوة وسارت أمامه ، وهو خلفها ، فهبت الريح فكشفت عن ساقيها ، فغضّ بصره ، وقال لها : إمشى خلفى ، وإذا أنا أخطأت السير فارمى حصاة تدلنى على الطريق ، فأنا من أبناء يعقوب لا ننظر إلى النساء الأجنبيات ، فسارا كما قال ، حتى دخلا على أبيهما ، فسأله أبوها عن خبره ، فقصّ عليه خبره كله ، فقال له : لا تخف قد نجوت من القوم الظالمين ، بفضل الله ورحمته ، وأخبرت أباها بقوله : إننا لا ننظر إلى النساء الأجنبيات ؛ وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص

زواج موسى بإحدى الإبنتين

قالت إحداهما لأبيها (وهى التى ذهبت إلى موسى وجاءت به) : يا أبت استأجره ليرعى ماشيتك ، إن خير مَن استأجرت الرجل القوىّ الأمين ، الذى لاتخاف خيانته فيما تأمنه عليه منها ، ويقوم بخدمتها خير قيام ، وهذان الشرطان اللذان يجب توافرهما فى العامل

قالت ذلك عن مشاهدة وعلم ، حيث رأت قوته فى مزاحمة الناس وسقى ماشيتهما ، وأمانته فى غض الطرف عن النظر إليها حينما كشفت الريح عن ساقيها ، وحينما قال لها : كونى خلفى وأنا أمامك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ القصص

فسر أبوها من موسى عليه السلام ، وازداد حبًّا فيه ، وقال له : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين على أن تعمل عندى ، وتقوم على شئون بيتى ثمان سنين ، فإن أتممتها عشراً فمن عندك ، تفضلاً من غير إلزام ولاقهر فى هاتين السنتين ؛ بل هو تبرع منك إن شئت أتممتهما ، وإن شئت تركتهما ، وما أريد أن أرهقك ، وأشق عليك ، وأحملك ما لا طاقة لك به باشتراط الثمانى سنوات عشراً ، فإنك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين فى حسن المعاملة ، ولين الجانب والوفاء ، بما قلت وذلك قوله تعالى :

﴿ قالَ إنى أُرِيدُ أَنْ انكِحَكَ إحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنى ثَمانِىَ حِجَجٍ فَإنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنى إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ القصص

قال موسى عليه السلام : هـذا عهد وشرط بينى وبينك ، أن أقضى أى الأجلين ثمان سنين أو عشراً ، فلا عدوان علىّ بإلزامى بإتمـام العشر فتطالبنى بأكثر منه ، والله علىّ شهيد ، وحفيظ على ما نقول ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ قالَ ذٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَىَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ القصص

ومن هذا الوقت صار موسى صهراً لذلك الشيخ ، وراعيًا لغنمه ، بعدأن تربى على العز والنعيم فى بيت فرعون ، مفضلاً هذه الحياة الخشنة البريئة الشريفة عن حياة الكفر والظلم

وذكر أكثر المفسرين أن إسم ابنـة الشيخ التى صارت زوجاً لموسى (صفورا) .

وقال أغلب المفسرين : إن هذا الشيخ هو (شعيب عليه السلام) بدليل أن رسالته فى مدين كانت قبل أن يخرج موسى من مصر ، وأهلك الله الظالمين منهم ؛ وبقى شعيب ومن آمن معه حتى وصل موسى عليـه السـلام

مدين فوجد شعيباً شيخاً كبيراً ، وبعضهم يقول : أن صاحب موسى هو (يثرون) أو (يثرى) والله أعلم

خروج موسى من مدين إلى مصر بأهله

وما لاقاه من الشدة ومبدأ الرسالة

لما أتم موسى عليه السلام تسع سنين قائماً بشئون بيت شعيب عليه السلام وهب له شعيب نتاج السنة العاشرة من الغنم ، يريد بذلك مبرة موسى ومعاونته وصلة ابنته (صفورا) امرأة موسى ، فكان نتاج هذه السنة عظيما ، وعلم شعيب أنه رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وأهله وولديه (إبنى صفورا)

فلما أتم السنة العاشرة استأذن موسى شعيباً فى الانصراف من مدين والذهاب إلى مصر ، فأعطاه عصاً ذات شعبتين فى رأسها ، ومحجن فى طرفها وسلّم إليه الأغنام وسار موسى بأهله منفصلاً عن أرض مدين ، متجنباً طريق المدن والعمران ، لئلا يعلم به الناس ، فيصل خبره إلى فرعون ، وكان أكبر همه أن يدرك أخاه هارون ويخرجه من مصر .

وبينما موسى يرعى غنمه ومعه امرأته ضلّ الطريق وكان فى الشتاء

فى ليلة باردة وأراد أن يورى ناراً ، فقدح زنده فلم يأت بنار ، فاشتد به الأمر وأخذ يبحث عن نار ، ويتسمع لعله يجد إنساناً يدله ، حتى رأى ضوء نار من بعيد ، فقال لأهله : امكثوا هنا إنى رأيت ناراً ، وسأذهب لعلى آتيكم بقبس منها تستدفئون به ، أو أجد من يهدينا إلى مكانها ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ طه

فلما قرب موسى من النار ، وجد النار فى شجرة عليق ، وأن النار لا تطفأ ، والعليقة لا تشتعل ، ولم يجد أحداً من الناس يسأله عن الطريق .

وبينما هو على هذا الحال إذ سمع صوتاً من وسط النار يناديه (نداء وحى لا نداء كلام) إنى أنا ربك ، وأمره بخلع نعليه ؛ لأنه بالوادى المقدس طُوًى ، حتى تمس قدماه تلك الأرض المقدسة المباركة الطاهرة ، وليكون على أكمل هيئات التواضع بين يدى ربه ، فخلع نعليه ورمى بهما بعيداً ، وهو فى أشد حالات الخوف والوجل والهيبة من ربه .

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ طه

وقيل : إن هذه الليلة هى الليلة المباركة التى أراد الله بموسى كرامته

وابتداءه فيها بنبوته ورسالته وكلامه ، بدليل أنه قال له : إنا اخترناك فاجتبيناك لرسالتنا إلى من نرسلك إليه ، فاستمع لوحينا الذى نوحيه إليك واجعل أذنك واعيةً له ، واعمل به إننى أنا الله المعبود الذى لا تصلح العبادة إلّا له فلا تعبد غيرى ، وأخلص العبادة لى دون سواى ، وأقم الصلاة لتذكرنى فيها ، ولا تغفل عن ذكرى .

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ طه

ثم قال له : إن الساعة التى يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف القيامة آتية لا شك فيها ، وإنى أخفيها عن الناس فلا أذكرها لهم ، لئلا يطلع عليها أحد غيرى ، ولكى تجزى كل نفس بما تعمل من خير وشر وطاعة ومعصية ، فلا يردنك يا موسى عن التأهب والاستعداد لتلك الساعة من لا يؤمن بها ، ولا يصدق بالبعث والنشور بعد الممات ، ولا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، وقد اتبع هواه وخالف أمر ربه ونهيه ، وإلا فتقع مثله فى الردى فتهلك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ طه

معجزتا العصا واليد

ثم سأله سبحانه وتعالى مع علمه بما فى يده ، ما هـذه التى فى يمينك يا موسى ؟

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ طه

فقال موسى مجيباً لربه : هى عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى وأضرب بهـا الشجر اليابس ، فيسقط فترعاه الغنم ، ولى فيها حاجات ومنافع أخرى ، فأحمل عليها الزاد والسقاء والكساء فأستظل بها من حرِّ الشمس .

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ طه

وأراد الله أن يعرفه قدرته على ما يشاء ، وعظم سلطانه ، فقال له : يا موسى ألق عصاك التى بيمينك .

فامتثل أمره وألقاها على الأرض ، فجعلها الله حيَّة تسعى وتمشى بعد أن كانت خشبةً يابسةً لا تتحرك من تلقاء نفسها .

فلما رآها موسى تهتز كأنها جان أو شيطان تولاه الفزع والخوف وولى مدبراً ولم يرجع ؛ فناداه الله : أقبل يا موسى ، لا تخف ، سنعيدها إلى حالتها وهيئتها الأولى التى كانت عليها ، ونردها عصا كما كانت .

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ طه

ثم قال له : ضع يدك تحت إبطك تخرج بيضاء من غير سوء ، لا مرض ولا برص فيها .

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ طه

فكان ذلك علامةً ودلالةً أخرى غير الآية التى رآها موسى من قبل ، وهى تحويل العصا الخشبية إلى حيَّة تسعى ؛ بل هى من الأدلة الكبرى على قدرة الله وعظيم سلطانه .

« وكانت العصا واليد معجزتين من معجزات الله لموسى عليه السلام »

عودة موسى إلى مصر ، ودعوته لفرعون إلى توحيد الله وإبلاغ رسالته

ثم أمر الله موسى بأن يذهب إلى فرعون ، حيث طغى وتجاوز حده ، وتمرد على ربه ليدعوه إلى توحيد الله وطاعته .

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ طه

فتضرع موسى إلى ربه وقال : يا رب اشرح لى صدرى لأعى ما تودعه

من وحيك فيه ، وأجترىء به على مخاطبة فرعون ، وسهل علىّ القيام بما تكلفنى به من الرسالة ، وتحمّلنى من الطاعة ، وأطلق لسانى بالمنطق الكافى ، والبيان الشافى ، وفك عنى العقدة التى أمسكت بلسانى حتى يفقهوا ويفهموا قولى وكلامى لهم ، واجعل لى عوناً وسنداً من أهل بيتى (أخى هارون) أشدد به أزرى ، وأقوى به ظهرى ، وأشركه معى فى مهمتى ورسالتى إلى فرعون ، فنسبح بحمدك ، ونعظمك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، فإنك بصير بنا ، لا يخفى عليك شىء من أفعالنا .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى يَفْقَهُوا قَوْلِى وَاجْعَلْ لِى وَزِيراً مِنْ أَهْلِى هَارُونَ أَخِى اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ طه

فأجاب الله سؤاله ، وأخذ يذكر له مِنَن الله عليه

فقال الله تعالى لموسى عليه السلام : قد أعطيت ما سألت ربك يا موسى ، من شرح صدرك ، وتيسيره أمرك ، وحل عقدة لسانك ، وجعل أخيك هارون وزيراً لك ، ليشد أزرك ، ويشترك فى الرسالة معك ، ولقد مَننا عليك بمنة أخرى ، وهى المِنَّة التى أوحينا فيها إلى أمك حينما ولدتك فى العام الذى كان فرعون يقتل فيه كل مولود ذكر من قومك بأن

تضعه فى التابوت خوفاً عليك ، وبأن تقذفك فى البحر ، حتى إذا ما وصلت إلى الساحل أخذك فرعون ، وهو عدوى وعدوك ، وألقيت عليك محبةً منى فحببتك إلى عبادى .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾

طه

وكانت أختك تمشى تتبعك تحت رعايتى ، وبمرأى منى لتقول لهم : هل أدلكم على من يرضعه ويكفله، ويقوم بشئونه ويربيه ؟ ثم رددناك إلى أمك ، بعد ما صرت فى أيدى آل فرعون ، كيما تقر عينها بسلامتك ونجاتك من القتل والغرق فى اليمّ ، ولكيلا تحزن عليك من الخوف عليك من فرعون أن يقتلك ، وقد نجيناك من الغمّ بقتلك النفس التى قتلت (وهو قتله القبطى حينما استغاث به الإسرائيلى) إذ أرادوا أن يقتلوك ، فخلصناك منهم حتى هربت إلى أهل (مدين) فلم يصلوا إلى قتلك ، وابتليناك ابتلاءً ، فخرجت خائفاً إلى أهل (مدين) فلبثت فيهم عدة سنين ثم جئت فى الوقت الذى أردنا أن نرسلك فيه إلى فرعون رسولاً على قدر الرسالة والنبوة .

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ طه

ويذكره الله بنعمته عليه ويقول : لقد أنعمت عليك ياموسى بكل هذه النعم ، ومننت عليك بهذه المنن ، حباً منى لك ؛ لأنى اخترتك واصطفيتك لإبلاغ رسالتى ، والقيام بأمرى ونهيى ، فاذهب أنت وأخوك هارون بآياتى وحججى إلى فرعون إنه تمرد فى ضلاله وغيه ، فأبلغاه رسالتى ؛ ولا تضعفا أمامه ، ولا تغفلا عن أن تذكرانى فيما أمرتكما ونهيتكما ؛ وقولا له قولاً ليناً كريماً ، لعله يتذكر ويراجع نفسه ، ويخشى الله فيرتدع عن طغيانه

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ طه

فقال موسى وهارون (بعد أن سمعا أمر ربهما من طريق الوحى) : إننا نخاف فرعون إذا نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن يعجل علينا بالعقوبة ويسرف ويفرط فيها ، وأن يزداد فى طغيانه .

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ طه

فقال الله لهما : لا تخافا فرعون إننى معكما أعينكما عليه ، وأبصر وأسمع ما يجرى بينكما و بينه ، فأعلم محاورتكما له ، وأرى ما تفعلانه معه و يفعله معكم فلا يخفى علىّ شىء من ذلك ، فاذهبا إليه وقولا له : إنا رسولا ربك أرسلنا إليك لنبلغك أمره ، بأن ترسل معنا بنى إسرائيل ، فأرسلهم معنا ولا تعذبهم بما تكلفهم من الأعمال الرديئة السيئة ، وقد جئناك بمعجزة من ربك على أنه أرسلنا إليك بذلك ، فإن أنت لم تصدقنا فيما نقول فنحن مستعدون لأن نظهرها لك ، ونطلعك عليها ، والسلامة لمن اتبع هدى الله وبيانه

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ طه

تذكير فرعون لموسى بتربيته وفضله عليه

لما دخل موسى على فرعون ذكره فرعون أنه رُبى فى بيته وليداً ولبث فيهم سنين من عمره ، وهذا يوجب عليه المحافظة على المودة والحرص على عبادة فرعون ، ثم ذكره بفعلته التى فعلها من قتله الرجل القبطى وهربه على أثرها

فرد موسى على هذه المسألة وقال له : إنى فعلتها حينما كنت صغيراً ، من الضالين لاأدرك ما أفعل ، ففررت منكم لمّا خفتكم ؛ وقد وهب لى الله حكماً وجعلنى من المرسلين ، وفى ذلك قول الله تعالى :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الشعراء

محاجة موسى لفرعون

لما فرغ موسى مما قال ، وذكر لفرعون أنه يريد إطلاق بنى إسرائيل ليعبدوا الله فى البرية ، ولما كان فرعون رجلاً عاتياً متألهاً ، تدين الأمة المصرية بعبادته ، وقد فاجأه موسى بأمر لا يقره ولا يرضاه ، وهو محاولة إنزاله من عرش الربوبية ، أخذ فرعون يحاور موسى ويحاجه ، فسأل موسى ما رب العالمين ؟ فأجابه : رب السموات والأرض وما بينهما ، خالق كل ذلك ومبتدعه ، فالتفت فرعون إلى من حوله من أشراف قومه ، مظهراً العجب ، قائلاً لهم : ألا تستمعون ؟ أسأله عن موصوف ، فيجيب بوصف

فاستمر موسى فى كلامه قائلاً : ربكم ورب آبائكم الأولين ؛ أى حينما لم يكن فرعون موجوداً ولا معبوداً

فقال فرعون لملئه : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، لأنه جاءنا بشىء لا نعرفه ولا نقره .

فاستمر موسى فى قوله : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

الشعراء

فلما علم موسى وهارون عدم قبول فرعون الإقلاع عن غيه ، وتماديه فى ضلاله ، وادعائه الربوبية ، وأنه مكذب لهما لا محالة ، قالا له :

إنا قد أوحى إلينا أن عذاب الله واقع على من كذب بما ندعو إليه من توحيد الله وطاعته وإجابة رسله ، وتولى وأدبر معرضاً عما جئنا به من الحق

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ طه

ثم عاد فرعون فقال لهما مخاطباً موسى : فمن ربكما ياموسى ؟ فأجابه : ربنا الذى أعطى كل شىء فى الوجود ما يناسبه من الصورة والشكل ، ثم هداه لطرق معيشته ، ووسائل بقائه

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ طه

فقال فرعون لموسى . فما شأن الأمم الخالية من قبلنا التى تقر بما تقول ، ولم تصدق بما تدعو إليه ، ولم تخلص له العبادة ، ولكنها عبدت الأصنام والأوثان من دونه ؟ إن كان الآن على ماتصف من أن الأشياء كلها خلقها ، وأنها فى نعمه تتقلب ، وفى مننه تتصرف

فأجابه موسى فقال : لا علم لى بأمرها ، وبما كان سبب ضلال مَن ضل منها فذهب عن دين الله ، لايخطىء ربى فى تدبيره وأفعاله ، فإن كان عذَّب تلك القرون الماضية وعجل هلاكها فنعم ما فعل ، وإن كان أخر عقابها إلى يوم القيامة فالحق مافعل ، هو أعلم بما يفعل ، لايخطىء فى فعله أبداً ، ولا ينسى فعل ما فعله حكمةً وصواباً

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ ﴾ طه

ثم ذكر له قدرة الله ، وعظيم سلطانه ، وجليل أعماله قائلاً له : إن الله جعل لكم الأرض بساطاً وفراشاً ، وفتح فيها طرقاً وسبلاً للسعى فيها ، وأنزل لكم من السماء مطراً لتحيابه الأرض ، ويخرج منها أزواجاً شتى من النبات ، وألوانا تأكلون منها ، وترعون أنعامكم ومواشيكم ، وكل ذلك آيات وحجج تدل على وحدانية الله ، وأنه لا إله غيره ، وتلك آيات لأولى الفكر والاعتبار ، وأهل التدبر والاتعاظ

﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى ﴾ طه

ثم قال له زيادةً فى الاحتجاج وتبغيضاً له فى الدنيا ، وتذكيراً له بعقاب الآخرة :

إن الأرض منبتنا الذى أنبتنا الله منه ، وفيها معاد الناس الذى يعودون إليه بعد فناء حياتهم ؛ ومنها يخرجون مرةً أخرى للحساب ولمجازاة كل إنسان بما صنع

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾

طه

ومع هذه الآيات البينات ، والحجج القاطعات ، الدالة على حقيقة ما أرسل

الله به رسوليه (موسى وهارون) كذَّب فرعون وأبى أن يقبل من موسى وهارون ما جاءا به من عند ربهما من الحق ، عتوًّا واستكباراً ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ طه

كما أن قومه استكبروا عن قبول دعوته لمَّا جاءهم بالحق وقالوا : إن هذا لسحر مبين ؛ لأنهم كانوا قوماً مجرمين ، قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ يونس

طلب فرعون المبارزة من موسى مع السحرة وانتصار موسى عليهم

ثم قال فرعون لموسى : أجئتنا لتخرجنا من منازلنا ودورنا بسحرك هذا الذي جئتنا به ؟ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا و بينك موعداً لا نتعداه ، لنجيء بسحر مثل الذى جئت به ، فننظر أينا يغلب صاحبه ؟ لانخلف ذلك الموعد ، نحن ولا أنت ، بمكان متوسط ومعتدل بيننا وبينك

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ

بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى ﴾ طه

فقال موسى لفرعون حين سأله أن يضرب له موعدًا للاجتماع : موعدكم يوم العيد (وهو يوم عيد كان فرعون يخرج له ، وكانوا يتزينون فيه بعد انبساط الشمس ليشهدوا مَن الغالب ومَن المغلوب ؟)

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ طه

فلما سمع فرعون هذا الجواب أدبر معرضاً عما أتاه به من الحق ، وجمع كيده ومكره ، أى جمع سحرته ثم أعطاهم تعليماته ، وجاء معهم فى الموعد الذى حدده موسى

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ طه

فقال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون : الويل لكم ! لا تختلقوا على الله كذباً ، ولا تقولوا عليه ، فيسحقكم بعذاب ، ويستأصلكم بهلاك فيبيدكم ، وقد خاب من افترى على الله الكذب ، فلم يظفر بحاجته التى طلبها ورجا إدراكها

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ طه

فتنازع السحرة فى أمر موسى ، فقال بعضهم : هـذا ساحر ، وقال البعض الآخر : ليس بساحر ، وقرروا فيما بينهم أنهم يتبعونه إن غلبهم وأسروا هـذه النية فى أنفسهم ، وأعلنوا النـاس بأن موسي وأخاه هرون ساحران ، يريدان إخراجكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بمذهبكم الذى هو أعدل المذاهب

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ طه

فقال لهم موسى : اجمعوا أمركم ، وأحكموا كيدكم ، ثم احضروا صفاً واحداً ، فقد ظفر اليوم مَن غلب صاحبه وقهره ، وعلا على خصمه

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ طه

فأجمعت السحرة كيدهم ، ثم أتوا صفاً وقالوا لموسى : يا موسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن المُلقين ؟ قال لهم : بل ألقوا أنتم ما معكم قبلى

فلما ألقوا حبالهم وعصيّهم ، فإذا هى فى نظره تشبه حيّات قد ملأت الوادى ، يركب بعضها بعضاً ، يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فاختطفوا بسحرهم بصر موسى وفرعون ، ثم أبصار الناس

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ

أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾

طه

فلما رأى موسى ذلك هاله أمر تلك الحيات ، وأوجس وأضمر فى نفسه خوفاً ، فأوحى الله إليه بقوله : لاتخف ، إنك أنت الأعلى على هؤلاء السحرة ، وعلى فرعون وجنوده ، والقاهر لهم ، وأمره أن يلقى عصاه بقوله : فألق ما فى يمينك (العصاة) تبتلع حبالهم وعصيهم التى سحروها حتى خيل إليك أنها تمشى ، فإن الذى صنعوه كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث كان وأنَّى وُجد ، ولا يظفر بسحره من أين أتى

﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ طه

انتصار موسى ، واعتراف السحرة به وبأخيه هارون وتهديد فرعون لهم

فلما ألقى موسى عصاه صارت ثعباناً كبيراً ابتلع كل أعمالهم وحبالهم وعصيهم ؛ وبذلك كان الفوز والنصر له ؛ ووقع الحق وبطل سحر السحرة ، ودهش آل فرعون والملأ من قومه ، وعلم السحرة أن السحر لا يفعل ذلك

وإنما هى القوى الإلهية صنعت ذلك ، فخرّوا لله سجداً ، وقالوا : آمنا برب هارون وموسى ؛ لو كان هذا سحراً ما غلبنا ، قال تعالى :

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ الشعراء

ولما رأى فرعون الغلبة والنصرة لموسى أسف أسفاً شديداً وتكدر وقال للسحرة : أصدقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم إليه من قبل أن أسمح لكم ؟ إنه لرئيسكم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى من خلاف ، ولأصلبنكم على جذوع النخل ، ولتعلمن أيها السحرة مَن منا أشد عذاباً وأدوم إيلاماً لكم أنا أو موسى ؟

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ طه

فقال السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به : لن نؤثرك فنتبعك ، ونكذب من أجلك موسى على ما جاءنا به من الآيات البينات ، والحجج والأدلة القاطعة ، الدالة على حقيقة مادعانا إليه ، ولا نختارك إلهاً من دون الله الذى فطرنا وخلقنا ، فافعل ماأنت فاعل بنا مما تهددنا به من أنواع التعذيب ، فلا نبالى به ما دمنا على الحق ، واعلم بأن هذه الحياة الدنيا فانية لا تدوم ،

وليس لك سلطان علينا ، إلّا فيها تتحكم فينا كيف تشاء ، ولا سلطان لك بعدها

ونحن قد آمنا بربنا ، وأقررنا بتوحيد الله ، وصدقنا بوعده ووعيده وآمنا بما جاء به موسى ، ليغفر لنا ربنا خطايانا ويعفو عن ذنوبنا فيسترها علينا ، وما أكرهتنا عليه من السحر فإن الله خير ثواباً وأبقى عقاباً

﴿ قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ طه

تمادى فرعون وقومه وإصرارهم على الكفر

رأى فرعون الآيات فلم يصدق بها ، وتمادى على كفره ، وأصرّ على عناده وطغيانه ، معرضاً عن تلك الآيات التى أتى بها موسى ، وأغراه قومه بقولهم له : أتترك موسى وقومه يفسدون فى الأرض بالامتناع عن الأعمال التى سخروا فيها ، ويتركون فرعون وآلهته لا يعبدونها ولا يعبدون فرعون ؟

فسكّن فرعون روع القوم ، واعداً إياهم بأن سيقتل أبناء قوم موسى ويستحيى نساءهم ، معتزاً بما له عليهم من القهر ، والغلبة ، والسلطان

ولما أتبع القول بالعمل ضجَّ بنو إسرائيل وقاموا بالشكوى إلى موسى مما حاق بهم ، من الظلم والجور ، فأوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل بهم ، وأن يستعينوا بالله على احتماله ، ووعدهم حسن العاقبة

فلم يخفف ذلك من لوعتهم ، ولم يكفكف من دموعهم ، وقالوا له :

« أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا »

فأخذ يهدىء من روعهم ، ويخفف من أحزانهم ، ويمنيهم هلاك عدوهم ، وإخراجهم من الضيق إلى السعة ، وأنهم سيكونون خلفاء فى الأرض التى وعدوا بها ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فى الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فى الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

الأعراف

إيمان طائفة من بنى إسرائيل بموسى ونصحه لهم

بعد هذه المعجزة الربانية ، والموقعة السحرية ، التى انتصر فيها الحق على الباطل ، ولم يؤمن بموسى مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة إلا طائفة من شبان بنى إسرائيل ، على خوف من فرعون وأشراف قومه ، أن يعذبهم فرعون ؛ لأنه متغلب عليهم فى الأرض ، ومن المسرفين فى الكبر والجبروت ، ويحملهم على الرجوع عن إيمانهم والكفر بالله

﴿ فَمَا آمَنَ لموسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ يونس

فقال موسى لهم : ياقوم ، إن كنتم آمنتم حق الإيمان فثقوا بالله واعتمدوا عليه ، إن كنتم مسلمين ، ومذعنين له بالطاعة ، وتوكلوا عليه ، فان يخذل مَن توكل عليه

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ يونس

فقالوا : على الله توكلنا ، وبه ثقتنا ، وإليه فوضنا أمرنا ، ثم دعوا الله وقالوا :

ربنا لا تجعلنا موضع عذاب للقوم الظالمين ، فيردونا عن الإيمان بالله ورسوله ، وخلّصنا من أيدى القوم الكافرين (قوم فرعون) .

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ يونس

وحى الله إلى موسى وأخيه باتخاذ بيوتهما بمصر مساجد

فأوحى الله إلى موسى وأخيه هارون أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً وأن يجعلوا بيوتهم مساجد يؤدون فيها الصلاة المفروضة عليهم فى أوقاتها ، وأن يبشرا المؤمنين بالفوز فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يونس

وقال موسى لربه : ربنا إنك منحت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم زينةً من متاع الدنيا وأثاثها ، وأموالًا من أعيان الذهب والفضة فى الحياة الدنيا ليضلوا عبادك عن صراطك المستقيم عقوبةً منك لهم .

ثم دعا ربه قائلاً : ربنا اطمس على أموالهم وامحقها ، واطبع على قلوبهم لكيلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (الغرق) جزاء لهم على تجبرهم فى الأرض ، وتمردهم على رسلك

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ يونس

فأجاب الله دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم ، وأمرهما بالاستقامة والثبات على أمرهما من دعاء فرعون وقومه إلى توحيد الله وطاعته ، إلى أن يأتيهم عقاب الله الذى أخبرهما أنه أجابهما فيه ؛ وأن لا يسلكا سبل الجهلة فى استعجال العذاب للمكذبين .

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يونس

الدليل على نبوة موسى

وقال الله لموسى : هذان (العصاة واليد) برهانان من ربك إلى فرعون وأشراف قومه حجةً عليهم ، ودلالةً على حقيقة نبوتك يا موسى إنهم كانوا قومًا كافرين .

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ القصص

فقال موسى : رب إنى قتلت من قوم فرعون نفساً فأخاف أن آتيهم فيقتلوننى ، ولا يمكننى أن أقيم الحجة عليهم ؛ لأن فى لسانى عقدةً لا أبين معها

ما أريد من الكلام ، وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، وأحسن بياناً ، فأرسله معى عوناً يبين لهم ما أخاطبهم به ، فإنى أخاف أنهم لا يصدقون قولى

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾

القصص

فقال الله لموسى : سنشد عضدك بأخيك ، ونعينك ونقويك ، ونجعل لكما حجةً دامغةً ، وسلطاناً عليهم ، فلا يصلون إليكما . اذهبا بآياتنا إليهم فأنتما ومن اتبعكما الغالبون .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ القصص

فلما جاء موسى إلى فرعون وقومه بآيات واضحات ، قالوا لموسى : إن الذى جئتنا به ما هو إلا سحر افتريته من قِبَلك ، وما سمعنا بهذا ، أى بادعاء النبوة ، فى أسلافنا وآبائنا الأولين الذين مضوا قبلنا .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ القصص

فقال موسى لفرعون : ربى أعلم بمَن منا المحق من المبطل ، وأعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومَن تكون له حسن العاقبة بعد هذه الحياة الدنيا فى الدار الآخرة ، إنه لا يفلح الظالمون .

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ القصص

فرعون يدعى الألوهية ويأمر ببناء صرح ليصعد به السماء

وقال فرعون لأشراف قومه وسادتهم، يا أيها القوم لست أعرف لكم إلهاً غيرى فتعبدوه، وأظنكم لا تصدقون قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم وله إلهاً غيرى، ومعبوداً سواى. ثم أمر (هامان) بأن يوقد على الطين ليعمل له الآجُر (الطوب)، ويبنى له قصراً عالياً يصعد فيه إلى السماء حتى ينالها ويقول: انظر إلى إله موسى الذى يعبده ويدعو إلى عبادته وإنى لأظنه فيما يقول من الكاذبين.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ القصص

ولهذا استكبر فرعون وجنوده فى أرض مصر عن تصديق موسى واتباعه إلى توحيد الله بغير الحق إذ ادعى الألوهية، ورفع نفسه إلى مستوى ليس لأحد من العالمين أن يطلبه، وظن هو وجنوده أنهم بعد مماتهم لا يبعثون ولا يرجعون إلى الله، فأخذهم الله أخذاً عزيزاً، وألقاهم جميعاً فى البحر فأغرقهم، وكان ذلك عاقبة الظالمين.

﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ القصص

الائتمار بموسى لقتله، ودفاع مؤمن عنه

انتصاراً لدين الله ونجاتهما من فرعون وقومه

أراد فرعون أن يبطش بموسى، وتآمر هو وقومه على قتله حتى لا يكون منه تبديل لدين القوم، أو فساد فى أرضهم، فاستعاذ موسى بالله من شر هذا المتكبر الظالم الذى لا يؤمن بالله ولا بيوم الحساب.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ غافر

ولما كان الحق لا يعدم نصيراً، قام رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه بموسى ورب موسى إلى ذلك الحين، ودافع عن موسى دفاعاً مشكوراً، وأبلى فى ذلك بلاء حسناً، وبيَّن لهم أنه لا ينبغى أن يقتلوا رجلاً يقول: ربي الله؛ إذا كان قد جاءهم بالآيات الدالة على صدقه، ولو فرض أنه كاذب فيما يقول، ما نالهم ضرر من كذبه، ولا يحملون

شيئاً من إثمه ؛ وإذا كان صادقاً أصابهم بعض الوعيد الذى توعدهم به ، وقد عارضه فرعون فيما رأى ، ووجه أقواله إلى الملأ من قومه ينتصر بهم على معارضته قائلاً :

ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

فعاد الرجل المؤمن من آل فرعون إلى الكلام محذراً قومه بأس الله تعالى ، وذكّرهم ما حصل للأمم السابقة ، أمم عاد ، وثمود ، وقوم نوح ، وغيرهم ، ممن انتقم الله منهم جزاءً وفاقاً بما صنعت أيديهم ، وذكّرهم أيضاً بأن الدعوة التى جاء بها موسى اليوم ليست جديدة ، فقد جاء إلى آبائهم وإليهم ضمناً ، (يوسف عليه السلام) بالبينات فلم ينل تصديقهم إياه ، حتى إذا مات قالوا : لن يبعث الله من بعده رسولاً ، وأبان لهم أن ذلك مما طبع الله على قلوبهم ، وإمساكه تعالى عن هدايتهم ، هداية موصلة بالفعل إلى المقصود ، وأن الله تعالى لا يهمل الحسنات ولا السيئات بل يجازى على كل شىء ، وأن المؤمنين لهم الجنات يرزقون فيها بغير حساب .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ

لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ وَيَاقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

***

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ غافر

تمادى قوم فرعون فى غيهم

ورغماً من هذه النصيحة الثمينة ، وهذا الدفاع المجيد تمادى قومه فى غيهم ، وجاهدوا أن يردوه إلى دين قومه ، فلامهم على أنه يريد لهم السعادة وهم يريدون له الشقاء الدائم ، فهو يدعوهم إلى الإيمان ، وهم يدعونه إلى الكفر بالله تعالى العزيز الغفار ، ولاشك أن الآلهة التى يدعونه إلى عبادتها لا تنفع فى الدنيا ، ولا تشفع فى الآخرة ، وأن المرجع والمصير إلى الله تعالى ، وأنه سيأتى عليهم وقت يذكرون فيه نصحه إياهم ، وأنه قد فوض أمره إلى الله

ولقد همّوا بقتله كما همّوا بموسى ، فوقاهم الله سوء عملهم ، وكانت عاقبته السعادة والفخار ، وعاقبة آل فرعون النار والدمار

﴿ وَيَاقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَا جَرَمَ أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ

فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ غافر

فرعون يستخف بموسى، ويباهى بملكه وثروته

كبر على فرعون أن يلبى دعوة موسى، ويتبع دينه، لما رأى له من عزة السلطان، ووافر الثروة التى تدرها عليه خيرات مصر بسبب نيلها الفياض، وماله من الفروع التى تبعث فيها الحياة؛ وغلبت عليه نفسه التى لاترى الخير والعز إلا فى كثرة المال، ولا تعرف أن الله يختص برحمته وفضله من يشاء فأخذ ينادى فى قومه قائلاً لهم: أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى؟ بل أنا خير من موسى هذا الضعيف الحقير العِيِّ الذى لايكاد يظهر الكلام، فهلا ألقى عليه أساور من ذهب (وكان من عادتهم أن يلبس ملوكهم أساور) أو جاء معه الملائكة يعينونه ويصدقونه؟

فكانت هذه الأقوال من فرعون كافية لاستخفافه قومه، وإطاعتهم إياه ميلاً منهم عن الحق وزيغاً عن طريق الهدى، لأنهم ألفوا الانقياد له وكانوا

من القوم الظالمين الفاسقين

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾

الزخرف

ثم ولّى معرضاً عما دعاه إليه موسى من طاعة ربّه وخشيته وتوحيده، وأخذ يسعى ويعمل فى معصية الله، وفيما يسخطه عليه، فجمع قومه وأتباعه ونادى فيهم قائلاً: أنا ربكم الأعلى الذى كل رب دونى. فأخذه الله بعقوبته على كلمته الأخيرة والأولى؛ وأن فى ذلك لموعظةً وعبرةً لمن يخشى الله ويخاف عقابه

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى. إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾

النازعات

الآيات التى أرسلها الله تعالى على فرعون وقومه

لما كذبوا موسى

لما أخذت فرعون العزة بالإثم ، ولم يذعن لأمر الله ، وتمادى فى تكذيب موسى ، واستمر فى تعذيب بنى إسرائيل ، وإيقاع ضروب الذلة والإهانة بهم ، أمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جزاء لهم على تكذيبه إياه وامتناعه من إطلاق بنى إسرائيل : فكان كلما وقع بهم عذاب بعد إبلاغ موسى إياهم به ، وعدوه بالإيمان به تارةً ، وبإرسال بنى إسرائيل معه تارةً أخرى ، إذا سأل ربه كشف ما نزل بهم من العذاب ، فإذا كشف الله عنهم ما نزل بهم عادوا إلى طغيانهم ، وغدروا بعهدهم ، وأخلفوا وعدهم ، وهكذا إلى أن كانت الآية الكبرى ، والبطشة العظمى ، وهى إغراق فرعون فى اليم ، ونجاة بنى إسرائيل وتلك الآيات هى :

أولاً — الجدب بأن قلَّ عنهم النيل وقصر عن إرواء أرضهم

ثانياً — النقص من الثمرات بسبب ما يصيبها من العاهات

ثالثاً — الطوفان الذى عمَّهم حتى عاقهم عن الزرع فى الوقت المناسب

رابعاً — الجراد بأن أرسل الله على بلاد مصر الجراد فأكل الزرع وأهلك الثمار

خامساً — القمل الذى أتعبهم وحرمهم لذة النوم والراحة

سادساً — الضفادع التى كثرت عندهم حتى نغصت عليهم عيشتهم بسقوطها فى طعامهم وفراشهم وبين ملابسهم

سابعاً — الدم وذلك باستحالة الماء دماً ، وقيل : أن الله سلط عليهم الرعاف (نزول الدم بكثرة من الأنف)

ثامناً — الطمس على أموالهم ، وهو محقها و إهلاكها

تاسعا — اليد إذ كان يضع يده فى جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء

وقد ورد ذكر ذلك فى سورة الأعراف فى الآيات الآتية :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَـٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ

بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ الأعراف

يقول الله تعالى ذكره : ولقد اختبرنا قوم فرعون وأتباعه على ماهم عليه من الضلالة بالسنين الجدباء ، والقحط ، سنة بعد سنة ، وبذهاب ثمارهم وغلالهم ، إلا القليل ، عظةً وتذكيراً لهم ، ليزدجروا عن ضلالتهم ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة

فإذا جاء آل فرعون الخصب ، والرخاء ، وكثرة الثمار ، ورأوا ما يحيون به فى دنياهم قالوا : هذه نحن أولى بها ، وإن تصبهم سيئة أى جدب وقحط وبلاء ، يطّيروا بموسى ومن معه ، ويقولوا : ذهبت حظوظنا من الرخاء والخصب مذ جاءنا موسى

ألا إنما الخير والشر من عند الله ؛ ولكن أكثرهم لايعلمون ذلك إذ لجهلهم كانوا يتشاءمون من موسى ومن معه

وقال آل فرعون لموسى : ياموسى ، مهما تأتنا به من علامة ودلالة لتسحرنا وتفتننا بها عما نحن عليه من دين فرعون فما نحن بمصدقين على أنك محق فيما تدعونا إليه ، فأرسل عليهم الطوفان (المطر الشديد) والجراد والقمل والضفادع والدم

كل ذلك علامات ودلالات على صحة نبوة موسى ، وحقيقة ما دعاهم

إليه ، أتت مفصلات يتلو بعضها بعضاً ، ليكون لله عليهم الحجة ، فينتقم منهم بعد ذلك ، فاستكبر هؤلاء الذين أرسل الله عليهم هذه الآيات والحجج عن الإيمان بالله وتصديق رسوله موسى عليه السلام وأتباعه ، وتعظموا على الله وعتوا ، وكانوا قوماً مجرمين يعملون بما يكرهه الله من المعاصى والفسق والتمرد

ولما نزل بهم عذاب الله وحلّ بهم سخطه ، فزعوا إلى موسى ليدعو لهم ربه وقالوا : يا موسى أُدعُ لنا إلٰهك لئن رفع عنا العذاب الذى نحن فيه لنؤمنن لك ، ولنصدقن بما جئت به ، ودعوت إليه ، ولنقرنّ به ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلانمنعهم أن يذهبوا معك حيث شئت ، فدعا موسى ربه فأجابه ، فلما رفع عنهم العذاب الذى أنزله بهم إلى الأجل الذى حدده لاستيفاء عذاب أيامهم ، نقضوا عهودهم التى عاهدوا ربهم وموسى عليها . فلما نكثوا عهودهم انتقم الله منهم ، فأغرقهم فى البحر ، لأنهم كذبوا بآيات الله وحججه ، وكانوا عن تلك النعمة غافلين

خروج موسى مع بنى إسرائيل من مصر

لما تكبر فرعون وأبى أن يستجيب لأمر ربه ، وطغى وتمادى فى طغيانه ، أوحى الله إلى موسى عليه السلام بأن يخرج مع بنى إسرائيل ليلاً وأن يتخذ لهم طريقاً يابساً فى البحر ، وأمره أن يضرب بعصاه البحر لترفع مياهه عن الجانبين ، فنزله وقومه يمرون على أرضه فلا يخاف من فرعون وجنوده أن يدركوه من ورائه ولا يخشى غرقاً ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ طه

نجاة موسى وقومه ، وغرق فرعون وجنوده

فسرى موسى ببنى إسرائيل كما أمره الله ، وندم فرعون على أنهم انطلقوا بلا إذنه ، فأرسل فى المدائن حاشرين ، وجمع جمعاً عظيماً وأتبع بنى إسرائيل ليردهم إلى عبوديتهم ، وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر على خليج السويس ، واطلع عليهم مع شروق الشمس ، فأيقنوا بالهلاك ، وأن فرعون لابد أن يبطش بهم ، فسكن موسى روعهم وضرب البحر كما أمره الله تعالى فانفلق حتى ظهرت أرضه ، وكان كل فرق كالطود العظيم ، وأمر بنى

إسرائيل بالعبور فيه ، فعبروا من الشاطىء الغربي إلى الشاطىء الشرقى ، وأشرف فى ذلك الحين فرعون على الموضع الذى عبروا منه ، فرأى طريقاً فى البحر يابساً لاوعورة فيه ، وبنى إسرائيل بين فرقى الماء لم يمسسهم أذى ، فطمع أن يسير فى أثرهم فيردهم هو وجنوده ، فاقتحموا الطريق اليابس فى البحر خلف بنى إسرائيل فلما جاوز بنو إسرائيل البحر ولم يبق أحد منهم بين المياه المنحصرة وفرعون قد توسط البحر هو وجنوده ، انطبق البحر عليهم وعاد كما كان أولاً ، وغرق فرعون وجنوده ، ولم يفلت منهم أحد ممن اقتحم الماء ، فأضل فرعون قومه ، وما سلك بهم طريق أهل الهدى والاستقامة ؛ بل سلك بهم طريق أهل الضلال بأمرهم بالكفر بالله وتكذيب رسله ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ يونس

وفى ذلك الوقت الذى أدرك فيه فرعون الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين ؛ أراد بهذه الكلمة أن يدفع عن نفسه الغرق ؛ ولكن قد نفذ فيه أمر الله لطغيانه وكفره

وقال الله له : اليوم ننجيك ببدنك ، ونأمر البحر أن يلفظ جثتك إلى الشاطئ لتكون لمن خلفك من الأجيال الآتية عظة وعبرة ، وكذلك

لقومك حتى يروك بأعينهم عظاماً فيعتبروا بك ، و يعترفوا بأنك كنت مغروراً بادعائك الألوهية والعظمة

وقيل : إنه كشفت جثته فى أحد النواويس ، وكتب بشأنه المرحوم أحمد نجيب بك الأثرى الشهير صاحب كتاب (الأثر الجليل فى قدماء وادى النيل) مقالاً ضافياً فى جريدة المؤيد أيام العثور على جثة ذلك الرجل ، وأكد أنه فرعون موسى ، واستدل على ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ يونس

حال بنى إسرائيل مع موسى

ولما جاوز بنو إسرائيل البحر ، وأتوا على قوم يعكفون على عبادة الأصنام ، غلبت عليهم شقوتهم ووثنية المصريين الذين قلدوهم فيها (شأن المغلوب فى تقليد الغالب) فدفعتهم إلى أن يطلبوا من موسى أن يتخذ لهم

إلهاً كما لهؤلاء القوم آلهة

فأخذ موسى يؤنبهم ، ويلومهم ، ويوبخهم ، على طلبهم إلهاً سوى الله الذى فعل بعدوهم العجائب المدهشة . وأنجاهم من عذابه ، وخصهم بالإكرام ، وفضلهم على العالمين ، وإن إلهاً هذه آياته ، وهذه نعمه عليهم وإحسانه إليهم لا يعدل عن عبادته إلى عبادة غيره إلا من كان جاهلاً سعيها ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ الأعراف

***

ولما جاوزوا البحر ، وجاءوا إلى الشاطىء الشرقى لم يجدوا ماء لشربهم وسقياً لدوابهم ، فشكوا إلى موسى متذمرين واستسقوه ، فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر ، فانبعثت منه إثنتا عشرة عيناً لكل سبط من الأسباط (أى قبيلة من القبائل) عين تجرى بالماء يشربون منها ، وهذه العيون بالبر الشرقى غير بعيدة عن مدينة السويس ، وهى شهيرة (بعيون موسى) وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ الأعراف

ولما كان زادهم عرضة للنفاد ، وتاقت أنفسهم إلى اللحم من خشيتهم الجوع والهلاك ، أرسل الله لهم الرياح تحمل لهم المنّ والسلوى (المنّ الرحيق المتجمد وهو مادة تفرزها بعض الأشجار يميل طعمها إلى الحلاوة فيها لبن وهى سهلة الهضم ، والسلوى طائر السمانى كان يقطن تلك الأرض فيأخذ منه كل إنسان حاجته)

وقد ذكّرهم الله بنعمه ، وحذرهم من الطغيان والكفر ، تفادياً من غضب الله عليهم ، فقال لهم : يابنى إسرائيل ، قد أنجيناكم من عدوكم فرعون وجنوده ، وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم حلالاً طيباً ، ولا تعتدوا على الناس ، ولا يظلم بعضكم بعضاً فيحل عليكم غضبى ، ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى إلى الدرك الأسفل من النار ، وأن الله لغفار ، يتوب على من تاب وآمن وعمل صالحاً ، ثم سلك سبيل الهدى والرشاد ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ طه

***

ثم إنهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربهم ليخرج لهم من الأرض البقول ، والعدس ، والبصل ؛ لأنهم لم يصبروا على طعام واحد ، فقال لهم موسى : أتستبدلون الشيء القليل القيمة بالذى هو خير منه ؟ وأمرهم أن يهبطوا إلى مصر فإنهم يجدون فيها طلبهم ، هذا الطلب وسيلةً من الله تعالى لتنبيههم إلى أن طلبهم لايكون إلا إذا نزلوا مصراً من الأمصار

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ البقرة

ذهاب موسى لميقات ربه

وعد موسى عليه السلام قومه بنى إسرائيل ، وهم بمصر ، إن أهلك الله فرعون أتاهم بكتاب فيه الوصايا التى يطلب بنو إسرائيل للعمل بها لما فيه صلاحهم

فلما أهلك الله فرعون ، سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً ، وهى شهر ذى القعدة ، فلما أتم الثلاثين ، قيل : أنكر موسى خلوف فمه ، فاستاك أو أكل بعض النبات فقالت الملائكة لموسى : كنا نشم من فيك رائحة المسك ، فأفسدته بالسواك ، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام ذى الحجة ، فأتمها أربعينَ ليلة ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ الأعراف

وقبل ذهاب موسى لميقات ربه ترك أخاه هارون وأمره أن يكون خليفةً على بنى إسرائيل ، وأكّد عليه النظر فى مصالحهم وشئونهم ، واليقظة فى أمرهم ، وألا يتبع سبيل المفسدين الذين يفسدون فى الأرض بمعصيتهم ربهم ، ومعونتهم أهل المعاصى ؛ ولكن يسلك سبيل المطيعين

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف

مناجاة موسى لربه

وبعد تمام الأربعين ليلة كلّم موسى ربه وناجاه قائلاً : رب أرنى أنظر إليك ؟ فقال الله له مجيباً : لن ترانى وليس لبشر أن يطيق أن ينظر إلىّ فى الدنيا ، وأراد أن يريه حقيقة ذلك ، وأن ماطلبه شىء عظيم لاتتحمله الجبال ، فأمره قائلاً : أن إنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ الأعراف

فلما تجلّى الله للجبل جعله دكاً ، أى مستوياً بالأرض ، وتفتت ، وخرّ موسى مغشياً عليه ، كما يخر من أخذته الصاعقة ، وذلك لما هاله من صوت الجبل ، مما حصل له حين غاص فى الأرض وتفتت

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

الأعراف

فلما أفاق موسى من غشيته قال : سبحانك (تنزيهاً لك يارب وتبرئةً) أن يراك أحد فى الدنيا ثم يعيش ، قد تبت إليك من مسألتى إياك ما سألتك من الرؤية ، وأنا أول المؤمنين بك من قومى ، أن لا يراك أحد فى الدنيا إلاَّ هلك ، وأنا أول المؤمنين بقدرتك ، وجلالك ، وعظمتك

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف

فقال الله لموسى : ياموسى إنى اصطفيتك على الناس ، واخترتك لتبليغ رسالاتى إلى خلقى ، فأرسلتك بها إليهم ، وخصصتك بكلامى ، فكلمتك وناجيتك دون غيرك (ولذا سُمِّىَ موسى الكليم) فخذ ما أعطيتك من أمرى ونهيى وتمسك به فى عملك ، وكن من الشاكرين لله على ما آتاك

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الأعراف

نزول التوراة على موسى عليه السلام

وبعد الأربعين ليلة كتب الله تعالى لموسى فى ألواحه (أى فى التوراة) من كل شىء ، من التذكير والتنبيه على عظمة الله ، وعز سلطانه ، موعظة لقومه ، وتبياناً لكل شىء من أمر الله ونهيه ، من بيان الحلال والحرام ،

والمحاسن والقبائح ، وأمره أن (يأخذها بقوة) أى يعمل بما فيها بجهده ، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها (أى بأن يعملوا بأحسن ما يجدون فيها مما ترك لهم الخيار فيه ، كمعاقبة المعتدى أو العفو عنه ، والتجاوز عن بعض الحق أو المطالبة به كله الخ)

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ الأعراف

وأمره أن ينهيهم عن تضييعها ، وتضييع العمل بما فيها والشرك بالله ، فإن من أشرك بالله منهم ومن غيرهم فسيريه الله فى الآخرة عند مصيره دار الفاسقين ، أى النار التى أعدها لأعدائه الذين خرجوا عن طاعته ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الأعراف

وقد وعد الله بأنه سيصرف عن الأخذ بآياته من يتكبرون بغير حق ، ولا يؤمنون بأية آية يرونها ، ويؤثرون الجهل والضلال على سبيل الرشد والهدى ، وذلك لتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عما فيها من أصول الحكم والحياة الصحيحة

وهؤلاء هم المستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وكل مكذب حجج الله ورسله وآياته ، وجاحد أنه مبعوث يوم القيامة بعد مماته ، ومنكر

لقاء الله فى آخرته ، كل هؤلاء قد ذهبت وبطلت أعمالهم ، ولا ينالون إلا جزاء ماكانوا يعملون ، وهو الخلود فى النار ، نعوذ بالله منها إنه خير مستجار به ، وذلك قوله تعالى :

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الأعراف

إتخاذ بني إسرائيل العجل إلهاً يعبدونه

أخبر موسى عليه السلام قومه (بنى إسرائيل) قبل ذهابه لميقات ربه أن غيبته عنهم لاتطول أكثر من ثلاثين يوماً مع مسافة الطريق إلى جبل (حوريب) وهو جبل الطور

فلما أمر الله موسى أن يستأنف صوم عشرة أيام ليتم ميقات ربه أربعينَ ليلة كما مرَّ ذكره ، طالت غيبته عن قومه ، واستبطأ القوم موسى ، فانتهز رجل من المنافقين منهم يقال له (السامرى) غيبةَ موسى وأخذ من

بنى إسرائيل بعض حُليِّهم التى كانت نساؤهم أخذتها من المصريات قبل رحيلهم وألقاها فى النار ، وسبك منها عجلاً مجسداً متقن الصنع ، وجعله بحيث أنه كان له خوار ، أى صوت كصوت البقر ، وقال لهم : هذا إلهكم وإله موسى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ الأعراف

فما أغفلهم ! ألم يَروا أنه لايكلمهم ، ولا يهديهم إلى طريق الرشاد ؟ وكانوا باتخاذهم العجل معبوداً لهم ظالمين لأنفسهم لعبادتهم غير الله ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ الأعراف

ولما قضى موسى أجل الصوم وكلَّم ربه ، وأعطاه الألواح ، سأله الله تعالى لما قدم عليه فى الطور ، عما أعجله عن قومه ، وقال له : أى شيء أعجلك عن قومك يا موسى فتقدمتهم وتركتهم وراءك ولم تكن معهم ؟ فقال : هم قادمون على أثرى ، وسيلحقون بى ، وقد عجلت فسبقتهم لكى ترضى عنى يا ربى

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ طه

فقال الله لموسى : ياموسى ، قد ابتلينا قومك من بعدك بعبادة العجل وأضلهم السامرى ، فلما سمع موسى قول ربه رجع إلى قومه بعد انقضاء الأربعين ليلة غضبان أسفاً ، متغيظاً على قومه ، حزيناً لما أحدثوه من بعد فراقه لهم من الكفر بالله وعبادتهم العجل ، وقال لهم : ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً باعطائكم التوراة ، فيها هدى ونور ، أفطال عليكم العهد بى ، وبجميل نعم الله عليكم وأياديه لديكم ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم تستحقونه لعبادتكم العجل وكفركم بالله فأخلفتم موعدى ؟ وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ طه

فقالوا له : لم نخلف موعدك برغبتنا وأمرنا ؛ ولكننا حملنا أثقالاً من زينة القوم (ويعنون بذلك حُلِى آل فرعون التى جمعوها منهم) فألقينا

تلك الأثقال فى الحفرة فى النار ، فأخذها السامرى ، وأخرج لنا مما قذفناه ومما ألقاه عجلا مجسداً جميل الصنع له صوت كصوت البقر وقال لنا : هذا إلهكم والله موسى ، وقد نسيه موسى فذهب يبحث عنه فى الطور ، وفى ذلك يقول تعالى :

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ طه

توبيخ الله لهم على عبادة العجل

فوبخ الله عبدة العجل الذين قالوا هذا القول ، وسفه أحلامهم بما فعلوا ، وقال لهم :

أفلا يرى هؤلاء القوم الضالون أن هذا العجل الذى زعموا أنه إلههم وإله موسى لايكلمهم ؟ وإن كلموه لم يرد عليهم جواباً ، ولم يقدر على دفع ضرر أو جلب نفع ، فكيف يكون إلهاً ؟ وقال لهم هارون من قبل رجوع موسى إليهم : ياقوم إنما اختبر الله إيمانكم ، ومحافظتكم على دينكم ، بهذا العجل الذى أحدث فيه الخوار ، ليعلم به مَن الصحيح الإيمان منكم ، من المريض القلب الشاك فى دينه ؟ واعلموا أن ربكم الرحمن الذى

تعم جميع الخلق نعمه فاتبعونى على ما آمركم به من عبادة الله وترك عبادة العجل وأطيعوا أمرى فيما آمركم به من طاعة الله و إخلاص العبادة له ؛ لقوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ طه

فقالوا له : لن نَظَلَّ على عبادة العجل مقيمين نعبده ، حتى يرجع إلينا موسى

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ طه

فلما رجع موسى إلى قومه ، رجع غضبان أسفاً حزيناً ، وقال لهم : بئس ما فعلتم بعد فراقى إياكم ، وتعجلتم أمر ربكم فى نفوسكم وذهبتم عنه . ثم من شدة الغضب ألقى موسى الألواح وكسرها وأخذ برأس أخيه يجره إليه ؛ لأنه ظن به التقصير فى النصح لهم ، فقال له هارون : ابن أم إن القوم استضعفونى ، وكادوا يقتلوننى ، فلا تفعل ما يشمتهم بى ، ولا تعدّنى فى عداد القوم الظالمين لقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ

يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الأعراف

ثم قال موسى لأخيه هارون : يا هارون ، أى شىء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم فكفروا بالله وعبدوا العجل ؟ ألا تفعل مثل ما فعلت أنا فتغضب ، أفعصيت أمرى ؟ وجذبه من لحيته ورأسه

فقال له هارون : يا ابن أمّ لا تفعل بى هذا ، ولا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إنى خفت أن تقول فرقت بينهم ، ولم تحفظ قولى لقوله تعالى :

﴿ قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ طه

فالتفت موسى للسامرى وقال له : ما شأنك وما الذى فعلته ؟ قال : رأيت ما لم يروه ، وهو فرس جبريل كان لا يطأ موات أرض إلا أحياه الله بالخضرة ، فأخذت قليلاً من التراب الذى يطؤه ووضعته على الذهب الذى أذبناه فلما صنعناه عجلاً سرت فيه الحياة وصوّت ، وقد زينت لى نفسى أنه يكون كذلك لقوله تعالى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾

طه

فقال موسى للسامرى : اذهب ، فإن عقوبتك فى أيام حياتك أن كل من لمسته تأخذه الحمى ، وتأخذك معه، فلا تفتر عن قول (لامساس) كلما قرب منك أحد ، وإن لك موعداً لعذابك وعقوبتك على ما فعلت من إضلالك قومى ، حتى عبدوا العجل من دون الله ، لن تخلفه أنت ولن تغيب عنه يوم القيامة فيتولى الله معاقبتك ؛ وانظر إلى إلهك الذى أقمت وعكفت على عبادته لنحرقنه بالنار ، ثم لننسفنه فى البحر نسفاً .

ثم نظر إلى قومه وقال لهم : أيها القوم مالكم معبود إلا الله الذى لا إله إلا هو ، والذى أحاط بكل شىء علماً فعلمه ، فلا يخفى عليه شىء لا فى الأرض ولا فى السماء، وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ طه

لما تبين لموسى عذر أخيه ، وعلم أنه لم يفرط فى الواجب الذى كان عليه من أمر الله فى ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل قال : رب اغفر لى

ولأخى واستر ذنوبنا بستر منك ، وارحمنا برحمتك الواسعة فإنك أنت أرحم بعبادك من كل الراحمين ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ الأعراف

ولما سكت غضب موسى أخذ الألواح بعد ما ألقاها ، وقد ذهب منها ماذهب ، وفى نسختها هدًى وبيان للحق ، ورحمةٌ للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه، قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ الأعراف

ثم إن الله أمر موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ، ووعدهم موعداً ، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه وقال لهم : انطلقوا معى إلى الله فتوبوا مما صنعتم واسألوه التوبة على مَن تركتم وراءكم من قومكم ، وصوموا ، وتطهروا ، وطهروا ثيابكم ، فخرج بهم إلى (طور سيناء) لميقات ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم

فقالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ؛ فقال : أفعل

فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى

فدخل فيه، وقال للقوم : ادنوا، فدنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه فطمعوا فى رؤيته

فلما فرغ موسى من أمره ، وانكشف عنه الغمام ، أقبل إليهم فقالوا له : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً ، فأخذتهم الرجفة وهى (الصاعقة) فماتوا جميعاً

وقام موسى عليه السلام يناشد ربه ، ويدعوه ، ويرغب إليه ويقول له : لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا بعبادة العجل ؟ ما هذه الفعلة التى فعلها قومى من عبادتهم العجل إلا فتنةً منك يارب ابتليتهم بها ، ليتبين لك الذى يضل عن الحق ، والذى يهتدى بترك عبادة غيرك ؛ وما هو إلا عذابك تصيب به من تشاء ، وتصرفه عمن تشاء، فأنت ولينا وناصرنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، واسترعيوبنا ، وارحمنا برحمتك، فأنت خير من يصفح ويعفو ويرحم، لقوله تعالى :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ الأعراف

ثم أخذ موسى يتضرع إلى الله ويقول : يا رب اخترت سبعين رجلاً من أخيار بنى إسرائيل وأعود إليهم وليسوا معى فلا يصدقوننى ، ولم يزل يتضرع حتى أحياهم الله ورد إليهم أرواحهم ، فعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون بعد موتهم ؟ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ البقرة

فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله . فقالوا : لا ، فقال : أى شئ أصابكم؟ قالوا : أصابنا انا متنا ثم حيينا . قال : خذوا كتاب الله .

قالوا : لا . فبعث الله تعالى الملائكة فنتقت الجبل فوقهم ، أى زعزعته وهزته ؛ فقيل لهم : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا (جبل الطور) قال : خذوا الكتاب ، وإلا طرحنا الجبل عليكم .

فلما هددهم الله برفع الجبل فوق رؤوسهم ، أخذ عليهم العهد بالعمل بما فى الكتاب (التوراة) جهد استطاعتهم وتدبره ، والاعتبار بما فيه لعلهم يتقون الله ويخافون ، ويقلعون عما كان من إصرارهم ؛ قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة

ثم بعد هـذا كله لم يكن منهم إلا الإدبار والإعراض عن الميثاق الذى أخذه الله عليهم ، ولولا فضـل الله عليهم بتوفيقهم للتوبة لـكانوا من الهالـكين الخاسرين بسبب نقضهم الميثاق وعدم إطاعتهم أمر الله تعالى

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ البقرة

توبة بنى إسرائيل عن عبادة العجل

فلمـا علم بنو إسرائيل أنهم قد أخطأوا وضلوا فى عبادتهم العجل ندموا على ذلك وقالوا ، لئن لم يرحمنا ربنا ، ويغفر لنا شركنا ، ويتب علينا ، لنكونن من الخاسرين ، لقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف

ثم قال موسى لقومه من بنى إسرائيل : ياقوم إنـكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ربا بعد فراقى ، ثم أمرهم بالرجوع من ذنبهم ، والإنابة إلى الله من ردتهم ، بالتوبة إليه ، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به ، وأخبرهم أن توبتهم من الذنب الذى ركبوه تكون بقتلهم أنفسهم ، بأن يقتل كل إنسان مَن يقابله من قريب أو أخ أو نحو ذلك ، فإن ذلك خير لهم عنـد الله ؛

فأخذوا يقتتلون حتى قتل منهم عدد عظيم ، وقيل : قتل منهم سبعون ألفاً ، فكان من قُتل منهم شهيداً ، ومن بقى قد قبلت توبته ؛ لأن الله تواب رحيم لقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة

أمر الله بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة

وعصيانهم موسى

أمر الله تعالى موسى أن يذهب ببنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة لامتلاكها ، (وهى فلسطين التى وعد الله إبراهيم ، وإسحاق ويعقوب أن تكون ملكاً لأولادهم) فقال لهم موسى :

ياقوم تذكروا فضل الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء يتولونكم بالهداية والإرشاد ، وجعل منكم ملوكاً وآتاكم من فضله مالم يؤت أحداً من العالمين ، ياقوم إن الله أراد أن تكون الأرض المقدسة مسكناً لكم فادخلوها ، ولاتهنوا أمام محتليها ، ولاترجعوا ، فتنقلبوا خاسرين ثواب الدارين (الدنيا والآخرة)

ولكن بنى إسرائيل قوم قد ألفوا الذل والمسكنة ، وتمكن الصغار والهوان من أنفسهم ، فلم تكن لهم قوة على الدخول إلى تلك الأرض ، فلم يشاءوا أن يذهبوا إليها إطاعة لأمر ربهم ، وقالوا : يا موسى ، إن فيها قوماً جبارين ، لا طاقة لنا بحربهم ، ولا قوة لنا بهم ، ولن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن خرجوا منها دخلناها ، وإلا فلا نطيق دخولها وهم فيها، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾

المائدة

وقال رجلان من الذين جاسوا خلال البلاد لبنى إسرائيل (يوشع ابن نون وكالب بن يوقنا) وكانا رجلين صالحين من الذين يتقون الله ويخافونه ، أنعم الله عليهما بالهدى والثبات ، واتبعا موسى وهارون : ادخلوا عليهم أيها القوم باب مدينتهم (اريحاء) فإن الله معكم وناصركم عليهم ، وإنكم إذا دخلتم الباب غلبتموهم ؛ وتوكلوا أيها القوم على الله فى دخولكم

عليهم ، وثقوا بأن الله معكم إن أطعتموه فيما أمركم من جهاد عدوكم إن كنتم مصدقين ومؤمنين بنبيكم لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة

فقالوا : يا موسى ، لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا هؤلاء الجبارين ، إنا هٰهنا قاعدون ، لا نجيء معك إن ذهبت لقتالهم

﴿ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ المائدة

فعند ذلك غضب موسى وقال لربه داعياً : يا رب إني لا أملك إلا نفسي ، ولا أقدر أن أحمل أحداً على ما أحب وأريد من طاعتك ، واتباع أمرك ونهيك إلا نفس أخي ، فافصل بيننا وبينهم بقضاء وحكم عادل منك تقضيه فينا وفيهم ، إنهم قوم فاسقون ، وخارجون عن الإيمان بالله

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ المائدة

التيه الذى كتبه الله على بنى إسرائيل أربعين سنة

فأوحى الله إلى موسى إن الأرض المقدسة محرمةٌ عليهم أربعين سنة ، يتيهون فى الأرض ، ويسيرون متحيرين ، فلا تحزن على القوم الفاسقين قال تعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ المائدة

فكان بقاء بنى إسرائيل فى البرية من عهد خروجهم من مصر إلى أن مات موسى عليه السلام وعبروا نهر (الأردن) وملكوا (أريحاء) ومامعها من الأرض غرب (الأردن) أربعين سنة .

ذكر القرية التى مسخ الله أهلها بعدوانهم فى السبت وجعلهم قردة

قال موسى لبنى إسرائيل اسكنوا هذه القرية ، وهى قرية بيت المقدس (وقيل إنها مدين وقيل إنها طبرية) فكلوا من ثمارها وحبوبها ونباتها فى أى مكان شئتم ، وادعوا الله أن يحبط عنكم أوزاركم ، وادخلوا بابها ساجدين ، فيغفر لكم ذنوبكم ؛ ويتغمدكم برحمته ، ويعفو عنكم ، فلا

يؤاخذكم بها ، ويزيد الله المحسنين ، وهم المطيعين له ، إحساناً، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف

فغير الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول ، فبعث الله عليهم عذاباً من السماء وأهلكهم بظلمهم لقوله تعالى :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف

وكان أهل هذه القرية يعتدون فى يوم السبت أمر الله ، ويتجاوزونه إلى ما حرمه عليهم بالصيد فيه ، إذ كانت تأتيهم الأسماك يوم السبت طافية على وجه الماء ، ولا تأتيهم فى غيره من الأيام ؛ وقد ابتلاهم الله بهذه المحنة بسبب فسقهم لقوله تعالى :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ الأعراف

فقالت جماعة من اليهود لجماعة منهم كانت تعظ المعتدين فى السبت وتنهاهم عن معصية الله فيه : لِمَ تعظون قوماً سيهلكهم الله فى الدنيا

بمعصيتهم إياه ، وخلافهم أمره ، واستحلالهم ما حرَّم الله عليهم ، وسيعذبهم عذاباً شديداً فى الآخرة ؟

فقالوا لهم : إنما نعظهم لنؤدى فرض الله علينا ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لعلَّهم يتقون ، وفى ذلك معذرة منا لربنا قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

الأعراف

فلما خالفت الطائفة التى اعتدت فى السبت ما أمرها الله به من ترك الاعتداء فيه أنجى الله الذين ينهون منهم عن السوء وأخذ الذين ظلموا واعتدوا فى السبت واستحلوا ما حرَّم الله من صيد السمك وأكله ، فأحلَّ بهم بأسه ، وأهلكهم بعذاب شديد لقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ الأعراف

فلما تمردوا ، وتمادوا فى طغيانهم ، جعلهم الله قردةً لها أذناب تعوى بعد ما كانوا رجالاً ونساء مطرودين من رحمة الله لقوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

الأعراف

وجعل الله هذه العقوبة عبرةً للأمم المعاصرة لهم ، والتى تجىء من بعدهم إلى أبد الآبدين قال تعالى :

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

البقرة

معجزة موسى فى مسألة البقرة مع بنى إسرائيل

كان فى بنى إسرائيل رجل غنى ، ولم يكن له ولد ، وكان له ابن عم ، وكان وارثه ، فقتله طمعاً فى ميراثه ، ثم ألقاه على مجمع الطريق ، وأتى موسى فقال له : إن قريبى قُتل ، وإنى فى حيرة من أمرى ، وإنى لا أجد أحداً يرشدنى على القاتل غيرك يانبىّ الله

فنادى موسى فى الناس مَن كان عنده من هذا علم يبينه لنا ؟

فلم يكن عندهم علمه ، فأقبل القاتل على موسى فقال : أنت نبىّ الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا

فسأل موسى ربه ، فأوحى الله إليه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً ليبين لكم المجرم من البرىء ، فعجبوا لقوله ، وقالوا له : إلك تهزأ بنا. فقال . (أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) قالوا : (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟) قال لهم : إن الله يقول : إنها بقرة لا صغيرة ولا هرمة ؛ بل هى

نَصَفٌ بين البكر والهرمة

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

فقالوا : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ قال : إنه يقول : ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ أى صاف لونها ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ أى تعجب الناظرين لحسنها

قالوا : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

قال : ﴿ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ (أى لم يذللها العمل) تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ (أى لا تعمل فى الحرث) مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أى سليمة من العيوب لا بياض فيها

قالوا : ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ثم طلبوا البقرة فذبحوها

وبعد ذلك جاء موسى بلسانها وضرب به القتيل ، فرجعت له الحياة وأخبر عن قاتله بقدرة الله تعالى ، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تتقون

ومع ظهور هذه المعجزة الغريبة لبنى إسرائيل بقيت قلوبهم على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة منها ، ولم تحدث هذه العجيبة فى قلوبهم ليناً

إيذاء بنى إسرائيل لموسى

أما مسألة إيذاء بنى إسرائيل لموسى عليه السلام فقد تعدد القول فيها ، ذكر البيضاوى فيها مايأتى :

أن موسى طلب الزكاة من قارون (وكان رجلاً من بنى إسرائيل آتاه الله بسطة فى الرزق ، وأدر عليه الثراء ، حتى إن مفاتيح خزائنه كانت تنوء بالعصبة أولى القوة ، وكان مرموقاً من قومه بعين الغبطة)

فشحّت نفسه بالمال ، وأراد أن يكيد لموسى ليرجمه ، فاتفق مع امرأة أن تقول عن موسى إنه زنى بها ، ولما أصبح قال لموسى : أليس من الشريعة أن الزانى يرجم ؟ قال : نعم . قال : فإنك قد زنيت بفلانة ، ويجب أن تسلم نفسك لترجمك

فلما جاءت المرأة أخبرت أن قارون لقنها أن تدعى هذه الدعوى على موسى وهو برىء منها ، وبذلك برأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيهاً

أما قارون الذى افترى على موسى فكانت عاقبته أن خسف الله به ، وبداره الأرض ؛ قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ الأحزاب

قصة موسى مع العبد الصالح (الخضر)

قال ابن عباس : حدثنى أُبى بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

أن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسُئل أى الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحىٰ الله إليه ، أن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك .

قال موسى : يا رب فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله فى مِكتل (مقطف) فحيثما فقدت الحوت فقد وجدته ، فأخذ حوتاً فى مِكتل وانطلق به ، وانطلق معه فتاه (يوشع بن نون) حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المِكتل فخرج منه فسقط فى البحر (فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا) وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ موسى نسىٰ صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : (ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا) قال : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : (أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا

الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾

قال : فكان النسيان للحوت سرباً ، ولموسى ولفتاه عجباً . فقال موسى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ قال : رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل نائم (يُدعى الخضر) مسجّى بثوبه ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنّى يكون بأرضنا السلام ؟ ومَن أنت ؟ قال : أنا موسى قال : موسى صاحب بنى إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً . قال : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ؛ وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه أنا .

فقال موسى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾

فقال له الخضر : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة ، فكلما مَن فيها أن يحملوهما فعرفوا (الخضر) فحملوهما بغير نول (أجر) فلما ركبا فى السفينة لم يشعر إلا والخضر خلع لوحاً من السفينة ، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ أى أمراً عظيماً .

قال له الخضر : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ قال : (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) قال : وكانت الأولى من موسى نسياناً

قال : وجاء عصفور فوقع على طرف السفينة فنقر فى البحر نقرةً فقال له الخضر : ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر أو نقص هذا العصفور من البحر

قال : ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر بغلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ برأسه فقتله ؛ فقال له موسى :

﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾

قال : وهذه أشد من الأولى . قال : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً ﴾

قال : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾

قال : مسحه بيده ، فقال له موسى : قوم أتيناهم فلم يضيفونا ، ولم ينزلونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾

قال : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا قصصهم .

وهذه القصة مذكورة بالتفصيل فى سورة الكهف والله أعلم

موت موسى وهارون وثناء الله عليهما

وقيل : إن موسى عليه السلام أمره الله أن يصعد إلى جبل « نبو » وينظر أرض الموعد دون أن يدخلها ، ففعل ، ومات على الأكمة التى هى من رمل أحمر ، ودفن هناك ، وخفيت معالم قبره

وأهل (فلسطين) يدعون أن قبره فى موضع من بلادهم ويقيمون له مولداً يُقصد من كل ناحية فى كل سنة فى موعد معين ، وكان عمر موسى ١٢٠ مائة وعشرين سنة

أما هارون فقد مات قبل موسى ودفن فى جبل (هور) من جبال (سينا) التى فى البرية ، والذى دفنه هو موسى ، ثم عاد إلى بنى إسرائيل وأخبرهم بموته ، فاتهموه بقتله ، وهذا غير صحيح

وقد أثنى الله على موسى وهارون ثناء طيباً لما كابداه من عنت قومهما وشدة ثباتهم مع ما كان عليه من الإيمان الصحيح والإخلاص قال تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ مريم

العبرة من قصة موسى وهارون عليهما السلام

يستفاد من هذه القصة عظات بالغات وهى :

١ — الصبر على البلاء وتحمل البأساء والضراء

٢ — التوكل والاعتماد على الله فى كل الأمور

٣ — التمسك بالحق وعدم المبالاة بمن يخالفه ولو كان عظيماً أو ملكاً أو أميراً

٤ — أن للحق أنصاراً كما أن للباطل أنصاراً ؛ ولكن الحق يقهر الباطل

٥ — لذة الإيمان بالله والإخلاص فى عبادته وعدم المبالاة بالعذاب فى سبيل الدعوة إلى الله

٦ — الحلم عند الغضب ، ومقابلة الإساءة بالإحسان

٧ — عدم الغرور والادعاء بالعلم ، والاعتراف بالفضل لذويه

٢٤ - قصة سيدنا عيسى بن مريم

عليه السلام (عبده ورسوله)

سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام هو عبد الله ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وهو آخر أنبياء الله ورسله من بنى إسرائيل كما أن آخر الأنبياء والرسل من بنى الإنسان جميعاً (محمد رسول الله) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

وقد ذكر اسم عيسى فى القرآن بلفظ المسيح تارةً ، وهو لقب له ، و بلفظ عيسى وهو اسمه العلمى و بالعبرية (يشوع) أى المخلص ، إشارةً إلى أنه سبب لتخليص كثير منهم من آثامهم وضلالهم . و بكنيته (ابن مريم) تارةً أخرى

ومن جليل حكم الله تعالى أن خلق سيدنا آدم أبا البشر عليه السلام من تراب من غير أب وأم ، وخلق عيسى عليه السلام من غير أب ، وخلق بقية النوع الإنسانى من أب وأم

١ - تبشير مريم بعيسى

لما أراد الله تعالى أن يخلق نبيه عيسى عليه السلام أرسل إلى مريم بنت عمران حينما اعتزلت أهلها فى مكان شرقى ، واتخذت من دونهم ستراً

لتغتسل من حيضها وتتطهر ، أرسل إليها الملك جبريل فتمثل لها بشراً سوى الخلق ، أى فى صورة رجل من بنى آدم معتدل الخلق

فلما رأت جبريل عليه السلام أخذها الرعب وظنت أنه يريد بها سوءاً فاستعاذت بالله منه ، وقالت له : إن كنت تقياً فلا تتعرض لى بسوء

﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ مريم

فقال لها جبريل عليه السلام : إنما أنا رسول ربك يامريم ، أرسلنى إليك لأهب لك غلاماً زكياً طاهراً من الذنوب

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ مريم

فأجابته : كيف يكون لى ولد ، وأنا لم أتزوج ، ولم يمسنى بشر ، ولست من أهل البغي ؟

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ مريم

فقال لها جبريل : هكذا الأمر كما تصفين من أنك غير متزوجة ولم تكونى بغيًا ؛ ولكن ربك قال : هو علىَّ هين (أى خلق الغلام الذى قلت

إنى رسول الله لأهبه لك هو هين على الله لايتعذر عليه خلقه) وقد أراد ذلك ليكون دليلًا للناس على عظم قدرته ، ورحمته لمن آمن به وصدقه ؛ وقد حكم حكماً مقضياً بإيجاده لا محالة

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ مريم

فنفخ جبريل عليه السلام فى جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى جوفها فإذا هى حامل وهى بنت عشر سنين بعيسى عليه السلام

ولما حملت اعتزلت فى مكان بعيد وتنحت عن الناس ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، وولدت المسيح عيسى فى (بيت لحم) ثم قالت من طريق الخجل والاستحياء : ياليتنى مِتُّ قبل الكرب الذى أنا فيه ، والحزن بولادتى هذا المولود من غير بعل ، وكنت فى عالم النسيان لايذكرنى أحد

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ مريم

٢ - ولادة عيسى عليه السلام

فلما وضعته ناداها منادٍ من تحتها (بعضهم يقول جبريل عليه السلام و بعضهم - وهم أغلب المفسرين - يقول عيسى عليه السلام ناداها من تحتها

بعد ما ولدته) قائلاً : يامريم قدجعل ربك تحتك سريًا أى سيداً وجيها رفيع القدر ، وهُزى إليك بجذع النخلة تتساقط عليك رطبًا جنيًا ، فكلى من هذا الرطب ، واشربى من ماء النهر الذى بجوارك ، وقرّى عيناً ، وطيبى نفساً ، وافرحى بولادتك إياى ، ولا تحزنى ، فإن رأيت من بنى آدم أحداً يكلمك ، أو يسائلك عن شىء من أمرك ، وأمر ولدك وسبب ولادته فقولى له : إنى نذرت وأوجبت على نفسى لله صمتاً ألا أكلم أحداً من الخلق ، فلن أكلم اليوم إنساناً

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ مريم

فلما قال ذلك عيسى لأمه مريم اطمأنت نفسها ، وسلمت لأمر الله وحملته حتى أتت به قومها بنى إسرائيل وهم مجتمعون ومعهم زكريا ، فلما رأوها ورأوه معها قالوا لها : يامريم لقد جئت شيئا فريًا أى أمرًا منكرًا ، ثم قالوا لها على سبيل الاستهزاء والتهكم :

ياأخت هارون (وقيل ان هارون هذا كان رجلاً صالحاً من أتقياء

بنى إسرائيل) ما كان أبوك رجل سوء يأتى بالفواحش ، وما كانت أمك بغيًا أى زانية فمن أين أتيت الفضيحة ؟

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

مريم

فقالت لهم : كلموه ، وأشارت إليه ، فقالوا : كيف نكلم من وجد فى المهد صبياً ؟ واستغربوا من ذلك

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

مريم

فلم يمهلهم عيسى عليه السلام ؛ بل أجابهم الجواب الشافى الدال على براءة أمه ، والمعلن أنه سيكون من أهل العلم والدين الذين آتاهم الله الكتاب (الإنجيل) وأنه سيجعله نبياً ، وأن يبارك فيه أينما توجه ، وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته ، وأنه سيكون برًّا بوالدته ، وسيكون عبدًا متواضعًا لا جبارًا شقيًا ، ولا مختالاً فخوراً ، وأن الله قد حفظه وأمه يوم ولادته ، وأنه سيموت فى أمن وسلام ، وسيُبعث يوم القيامة حيًّا

ثم لم يتكلم بعد ذلك ، حتى كان بمنزلة غيره من الغلمان

وفى ذلك قوله تعالى على لسان عيسى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ مريم

فلما سمع ذلك أحبار بنى إسرائيل من عيسى عليه السلام علموا أنه لا أب له ، وأن الله عز وجل خلقه كما خلق آدم ؛ فتحققت بذلك براءة مريم ، وقال زكريا : الحمد لله الذى برأنا من كلام الفساق

وقال الله تعالى . هذا الغلام الذى أخبرتكم به ، وبينت لكم صفاته هو (عيسى بن مريم) وهذا الخبر الذى قصصته عليكم هو قول الحق لاشك ولامرية فيه

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ مريم

ولما تم لعيسى عليه السلام ثمانية أيام من مولده ختن وسموه (اليسوع) وسنة الختان عند اليهود أن الطفل يختن بعد ثمانية أيام من ولادته ، كما أمر الله إبراهيم بذلك ، ولم يرد ذكر ختانه فى القرآن الشريف بل ورد فى بعض الأناجيل

مثل عيسى كمثل آدم

وقد قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حينما كان أهل (نجران) النصارى

يجادلونه فى كون عيسى عليه السلام خلق من غير أب : قل لهم : إن شأن عيسى (وهو فى بابه غريب إذ خلقه بلا أب) كشأن آدم ، فقد خلقه من التراب ، ثم قال له : كن بشراً سوياً فكان ، فآدم قد خلقه الله من تراب بلا أب ولا أم ، فحاله أغرب من عيسى ، وأدعى لإظهار قدرة الله الخالق لكل شىء

وهذا هو الحق من عند الله فلا تكن يا محمد فى شك ولا مرية فيه ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

آل عمران

٣ — ذهاب مريم والمسيح عيسى إلى مصر

مع ابن عمها يوسف النجار

ثم أخذت مريم ابنها عيسى عليه السلام وسارت به إلى مصر مع ابن عمها (يوسف النجار) وأقاموا هناك اثنتى عشرة سنة

وقيل : إن مصر هى الربوة التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم لقوله تعالى فى حق عيسى وأمه : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ آيَةً

﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ المؤمنون

ويزعم المسيحيون فى مصر أنهما استقرا ببلدة (عين شمس) بضواحى القاهرة ، ويقولون : إنهما استظلا هناك بشجرة قد بقى أصلها محتفظاً به إلى أمد غير بعيد ، وكانوا يسمونها شجرة العذراء (أى شجرة مريم) ويعنى الناس بالذهاب إلى زيارتها بضاحية المطرية

ولما مات ملك الشام (هيرودس) الذى كان يريد قتل عيسى ، رجعت مريم وعيسى و يوسف النجار ومن آمن معهم إلى أرض الخليل ، وهو موضع بالشام ، وسكنوا فى قرية يقال لها (الناصرة) وبها سميت النصارى ، وأقاموا بها زمناً طويلا ، ونشأ فيها عيسى عليه السلام نشأةً صالحة محمودةً ، وعاش فى النعمة والحكمة أمام الله والناس ، وكان غيوراً على الدين منذ صغره ، حريصاً على تفهم حكمه وأسراره ، وكان يجالس العلماء ويناقشهم ويسائلهم ويجيبهم ، فالبيئة التى تربى فيها مدة صباه وشبابه بيئة علم وحكمة ودين

٤ — نبوة المسيح عيسى عليه السلام ورسالته

لما بلغ عيسى عليه السلام ثلاثين سنة من العمر جاءه الوحى داخل مسجد بيت المقدس ، وكان قد تعلم الكتاب فبعثه الله رسولاً ، وعلمه التوراة والإنجيل ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ آل عمران

ويقول الله تعالى : قد اتبعنا عيسى بن مريم آثار النبيين الذين أسلموا من قبلك يا محمد ، فبعثناه نبياً ، مصدقاً لكتابنا الذى أنزلناه إلى موسى من قبله ، وأنه حق ، وأن العمل بما لم ينسخه الإنجيل منه فرض واجب ، وأنزلنا إليه كتابنا الذى اسمه (الإنجيل) فيه هدًى ، وهو بيان ما جهله الناس من حكم الله فى زمانه ، ونور وضياء من عمى الجهالة (ومصدقاً لما بين يديه) أى أنزلناه إليه بتصديق ما كان قبله من كتب الله التى كان أنزلها على كل أمة ، أنزل إلى نبيها كتاب للعمل بما أنزل إلى نبيهم فى ذلك الكتاب من تحليل ما حلَّل الله ، وتحريم ما حرم (وهدًى وموعظةً) أى أنزل الإنجيل على عيسى مصدقاً للكتب التى قبله ، وبياناً لحكم الله الذى ارتضاه لعباده المتقين فى زمان عيسى ، وزجراً لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبه من الأعمال

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة

وأمر الله النصارى بأن يحكموا بما أنزل الله فى الإنجيل من أحكامه

فإذا لم يحكموا بما أنزل الله فيه وخالفوه ، فأولئك هم الخارجون عن الدين أى عن أمر الله

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المائدة

٥ - معجزات عيسى عليه السلام

فلما جاء إلى بنى إسرائيل سألوه أن يأتى لهم بعلامة تدل على رسالته ونبوته فقال لهم : إن حجتى على ذلك أنى قد جئتكم بآية من ربكم تحقق قولى ، وتصدق خبرى ، إني رسول من ربكم إليكم ، وفى ذلك قوله تعالى على لسانه :

﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ آل عمران

فقالوا له : ما هذه الآية التى جئتنا بها ؟ قال لهم : إن علامة صدق أن أصنع لكم من الطين مايشبه الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله (وقيل : هو الخفاش) .

﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ آل عمران

وأشفى الأكمه (المولود الأعمى الذى لايبصر) وأشفى المصاب بداء البرص وأحيى الموتى بإذن الله

وقيل : إنه أحيا (عازر) وكان صديقاً له فمرض ، فأرسلت أخته إلى عيسى أن عازر يموت ، فسار إليه، و بينهما ثلاثة أيام ، فوصل إليه وقدمات منذ ثلاثة أيام فأتى قبره فدعا له فأحياه الله و بقى حتى ولدله ، وأحيا امرأة وعاشت وولد لها

وقيل : إن بنى إسرائيل قالوا له : أحيي لنا عزيراً و إلا أحرقناك ، فدعا الله فأحياه ، فقالوا : ماتشهد لهذا الرجل ؟ قال : أشهد أنه عبد الله ورسوله

وأخبركم بما تأكلونه من أهلكم ، وما تدخرونه فى بيوتكم لقوله تعالى :

﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ﴾ آل عمران

إن فى كل هذه المعجزات دليلاً كافياً على أنى محق فى قولى لكم إنى رسول من ربكم إليكم ، وتعلمون به أنى فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته ، مقرين بتوحيده ونبيه موسى ، والتوراة التى جاءكم بها ، وأنى أحل لكم بعض ما حرم عليكم أى أخبركم أنه كان حراماً عليكم فتركتموه ، ثم أحلّه لكم تخفيفاً عنكم فتصيبون يسره وتخرجون من تبعته . وفى ذلك قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

آل عمران

ثم قال : لقد جئتكم بآية من ربكم ، تعلمون بها يقيناً صدق فيما أقول فاتقوا الله يا معشر بنى إسرائيل فيما آمركم به ، وأنهاكم عنه فى كتابه الذى أنزل على موسى ، فأوفوا بعهده الذى عاهد تموه فيه ، وأطيعونى فيما دعوتكم إليه من تصديق فيما أرسلنى به إليكم ربى وربكم ، فاعبدوه فإنه بذلك أرسلنى إليكم ، وبإحلال بعض ما كان محرماً عليكم فى كتابكم ، وهو الطريق القويم والهدى المبين ، الذى لا اعوجاج فيه يقول الله تعالى :

﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ آل عمران

٦ — إقامة الحجة على من كفر

وادعى أن المسيح هو الله ، وابن الله ، وثالث ثلاثة

لقد كفر النصارى الذين قالوا : عيسى ابن الله ، وأعظموا الفرية عليه ، فما ينبغى لله أن يتخذ ولداً ، ولا يمكن أن يكون له ذلك ؛ بل كل شىء دونه ، فهو ليس فى حاجة للإعانة ، وإنما إذا أراد أمراً أن يقول له : كن فيكون ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ مريم

وقد أخبرهم عيسى عليه السلام عن نفسه وقال لهم : إنى وإياكم عبيد الله ، فاعبدوه ولا تعبدوا رباً سواه ، وإنى أوصيكم باتباع الطريق المستقيم ، الذى أمرنى به ربى ، فإن من سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ؛ لأنه دين الله الحق ، الذى أمر به أنبياءه ، وفى ذلك قوله تعالى على لسان عيسى :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

مريم

ولقد كفر النصارى الذين زعموا وادعوا أن المسيح بن مريم هو الله ، فقال المسيح عليه السلام لبنى إسرائيل : ياقوم اعبدوا الله ربى وربكم ، وسيدى وسيدكم ، الذى خلقنى وإياكم ، وإن مَن يشرك بالله غيره ، فقد حرَّم الله عليه الجنة أن يسكنها فى الآخرة ، وحكم أنّ مصيرَه ومأواه نار جهنم ، وأن مَن ظلم نفسه ، وفعل غير ما أباح الله له وعبد غيره ، فليس له من أنصار ينصرونه يوم القيامة

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ

بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ المائدة

وزعم فريق آخر من النصاري أن الله ثالث ثلاثة ، أى واحد يعم ثلاثة أقانيم : أباً والداً غير مولود ، وابناً مولوداً غير والد ، وزوجاً متتبعة بينهما ، فرد عليهم الله مكذباً لهم فيما قالوا من ذلك :

ما مِن إلهٍ إلا إلهٌ واحد ، أى ما لكم معبود أيها الناس إلا معبود واحد ، وهوالذى ليس بوالد لشيء ، ولا مولود من أحد ؛ بل هو خالق كل والد ومولود ، فإن لم ينتهوا عن هذا القول ، والادعاء من أن الله ثالث ثلاثة ، ليصيبن الذين كفروا منهم بالله عذاب عظيم ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ المائدة

ثم رجع فحذرهم من هذا الكفر ، ودعاهم إلى التوبة من عقيدتهم هذه ، وطلب المغفرة ليصفح بذلك عنهم ، ويعفو عما سلف من إجرامهم فقال تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ المائدة

ثم أخبرهم وبيّن لهم أن المسيح بن مريم ولدته أمه ولادة الأمهات أبناءهن ، وذلك من صفات البشر لا من صفة خالق البشر ، وإنما هو رسول الله كسائر رسله ، الذين كانوا قبله فمضوا وخلوا ، وأجرى على يديه ماشاء أن يجريه من الآيات والعبر ، حجةً له على صدقه ، وعلى أنه رسول الله أرسله لهداية بنى إسرائيل ، وأن أمه صديقة كسائر النساء الصديقات وأنهما كانا يأكلان الطعام كجميع الناس ، أى أنهما كانا فى حاجة إلى ما يغذيهما وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بنى آدم ، وأن من كانت هذه صفته لا يكون إلهاً ؛ ولو كانا إلهين لما لازمتهما الحاجات الجسدية لقوله تعالى :

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ المائدة

ثم يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم انظر يامحمد كيف نبين لهؤلاء الكفرة النصارى الآيات الدالة والحجج القاطعة على بطلان ما يقولون فى أنبياء الله ؟ وفى افترائهم على الله ؛ وادعائهم بأن له ولداً وشهادتهم لبعض خلقه بأن لهم رباً وإلهاً ، ثم لايرتدعون عن كذبهم وباطل قولهم ، ثم انظر يامحمد كيف يكذبون ، وعن طريق الهدى يضلون ؟

﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ المائدة

ثم أشار إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهؤلاء الكفرة من النصارى الزاعمين أن المسيح ربهم ، والقائلين إن الله ثالث ثلاثة : أيصح أن تعبدوا من دون الله ما لا يستطيع أن يضركم ولا أن ينفعكم ؟ والله يسمع ما تقولون ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون ، وهو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو يحييكم ويميتكم

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ المائدة

وقد لام الله أهل الكتاب وحذرهم وقال لهم : يا أهل الكتاب (أى يا أهل الإنجيل من النصارى) لا تغلوا فى دينكم ، فلا تتجاوزوا الحق فى دينكم فتفرطوا فيه ، ولا تقولوا فى عيسى غير الحق ، فإن قولكم فى عيسى أنه ابن الله افتراء منكم على الله ؛ لأن الله لم يتخذ ولداً فكيف يكون عيسى وغيره من خلقه أبناء له ؟ ولا تقولوا على الله إلا الحق ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ النساء

ثم أكد بأن المسيح عيسى بن مريم هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فقال لهم : أيها القالون فى دينكم من أهل الكتاب ، الزاعمون بأن عيسى بن الله اعلموا أن عيسى بن مريم لا نسب له غير ذلك ، وهو رسول الله أرسله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه

(وسمّاه المسيح لمسحه ، وتطهيره من الذنوب والأدناس التى تكون فى الآميين كما يمسح الشىء من الدنس الذى يكون فيه فيطهر منه)

وهو كلمته التى ألقاها وبشر بها مريم وأعلما بها ، وروح منه أى ونفخة منه ؛ لأن جبريل عليه السلام نفخ فى درعها بأمر الله إياه ، فلذلك نسب إليه أنه روح من الله وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ النساء

ثم أمر الله بالإيمان به ، وبألا يقولوا أنه ثلاثة أقانيم كما يزعمون (الأب والابن ، وروح القدس) فقال لهم : فآمنوا بالله ورسله ، وصدّقوا يأهل الكتاب بوحدانية الله وربوبيته ، وأنه لا ولد له ؛ وصدّقوا رسله فيما جاءهم به من عند الله وفيما أخبروكم به إن الله واحد لاشريك له ، وليس له صاحبة ، ولا ولد له ، فإنه (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ولا تقولوا الأرباب ثلاثة .

ثم توعدهم وقال لهم : أيها القائلون أن لله ثالث ثلاثة انتهوا وارجعوا

عما تقولون من الزور والشرك بالله ، فإن الانتهاء عن ذلك خير لكم من الادعاء به ، الذى تنالون عليه من الله العقاب العاجل لكم ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾

النساء

ثم قال لهم : اعلموا بأن الله إله واحد ، ومن كان له ولد فليس بإله ؛ ولكن الله الذى له الألوهية والعبادة إله واحد ، معبود لا ولد له ، ولا والد ، ولا صاحبة ، ولا شريك .

ثم نزه جل ثناؤه نفسه ، وعظمها ورفعها عما قال فيه أعداؤه الكفرة فقال :

﴿ إِنَّمَا اللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا ﴾ النساء

أى جلَّ وعزَّ وتعظم وتنزه أن يكون له ولد أو صاحبة ؛ لأن جميع ما فى السموات وما فى الأرض عبيده وملكه ، وأنه رازقهم ، وأنهم فى حاجة إليه .

وقال البوصيرى رحمه الله ردًا على مدعى التثليث :

خَبِّرونا أهل الكتابين مِن أيـ ... ـنَ أتاكُم تَثليثُكم والبَداء ؟

ما أتى بالعقيدتين كتابٌ ... واعتقاد لا نصَّ فيه ادِّعاءُ

والدَّعاوى إن لَم تُقيموا عليها ... بَيِّناتٍ أبناؤها أدعياءُ

ليت شِعرى ذكرُ الثلاثة والوا ... حد نقص فى عَدكم أم نِماءُ ؟

كيفَ وحّـدتم إلٰها نفى التوّ حيد عنـه الآباء والأبناء ؟
أإله مُركب ما سمعنـا ؟ بإله لذاته أجـزاء

المعنى — أعلمونا أيها النصارى واليهود ، مامنشأ قولـكم إن الله ثالث ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس ؟ وما منشا ادعائـكم أن نسخَ التوراة بالإنجيل يستلزم البَـداء ، أى ظهور المصلحة فى الشىء لله بعـد خفائها عليه تعالى .

وفى تفسير الجلالين (إن الله ثالث ثلاثة) أى أحدآلهة ثلاثة ، والاثنان عيسى وأمه مريم

وفى شرح الهمزية للسنباطى : أنهم يريدون بالأب الوجود ، وبالابن العلم ، وبروح القدس الحياة

وفى تفسير الخازن : الأقانيم (أى الأصول) ثلاثة : أقنوم الأب وهو ذات الله ؛ وأقنوم الابن وهو عيسى ، وأقنوم روح القـدس ، وهو الحياة الحالة فيه

ثم شرع يرد على دعواهم فقال : ليتنى أعلم سر هذا التناقض العجيب ، فأنتم تارةً تثبتون تعدد الإله بقولـكم : إن الله ثالث ثلاثة ، فتحققون الزيادة ، وتارةً تثبتون عدم تعدده بقولـكم : الله واحد ، فتحققون النقص

وقد تعجب منهم بقوله : كيف وحّدتم إلٰها نفى التوحيد عنـه ، الآباء والأبناء اللذين أثبتموها فى دعواكم التثليث ؟

فإن قالوا : هو واحد مركب من ثلاثة أجزاء كل منها إله

قلنا : ماسمعنا بإله لذاته أجزاء ، كل منهـا إله ؛ لأنه لو وجد لـكان الاله متعدداً ، لقوله تعالى .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء

وقد أعلن الله كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وكفرهم فى تغطيتهم الحق ، وتركهم نفى الولد عن الله عز وجل ، وادعائهم أن المسيح هو الله فرية وكـذباً عليه ، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمـد للنصارى الذين افتروا على ، وضـلوا عن سواء السبيـل بقولهم إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل لهم : مَن يملك ويطيق أن يدفع أمر الله إن أراد أن يهلك المسيح وأمه ومَن فى الأرض جميعاً ؟ وهو المتصرف فى عبـاده ، وله ما فى السموات والأرض وما بينهما ، يهلك من يشاء ، ويبقى من يشاء ، لا يمنعه مانع ، ولا يدفعه دافع ، وأنه هو المعبود القادر على كل شىء ، والمالك لـكل شىء

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة

٧- الحواريون أعوان عيسى وأنصاره

فلما وجد عيسى من بنى إسرائيل الذين أرسله الله إليهم جحوداً لنبوته، وتكذيباً لقوله، وصداً عما دعاهم إليه من أمر الله، قال. مَن أنصارى وأعوانى على المكذبين بحجة الله والمولين عن دينه؟

قال الحواريون (وهم الذين آمنوا بعيسى وكان عددهم اثنى عشر): نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون، ومصدقون بنبوتك

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

آل عمران

وزيادةً فى التأكيد قالوا: ربنا آمنا وصدقنا بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك وصرنا أتباع عيسى على دينك الذى بعثته به، وأعوانه على الحق الذى أرسلته به إلى عبادك، فاكتبنا يا ربنا، وأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقرّوا لك بالتوحيد والعبودية، وصدّقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا يا الله فى عدادهم، ومعهم فيما تمنحهم من كرامتك، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصدّ عن سبيلك وحادَ عن أمرك ونهيك

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾
آل عمران

وأما الذين كفروا بعيسى من بنى إسرائيل ، وأحسَّ عيسى منهم الكفر فقد مكروا ، وكان مكرهم الذى وصفهم به الله الاتفاق والمؤامرة على قتله ؛ ولكنَّ الله قد خيَّب ظنهم ، وأحبط مكرهم ، بإنقاذ عيسى منهم والله خير المتصرفين فى أمورهم

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ آل عمران

إذ قال الله لعيسى عليه السلام : ياعيسى ، إنى مميتك بعد استيفائك أجلك ، ورافعك إلى محل كرامتى ، ومطهرك ومنظفك ، ومخلصك ممن كفر بك ، وجحد ما جئتهم به من الحق من اليهود وسائر الملل

﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ آل عمران

ثم أشار الله تعالى بأنه جاعل الذين اتبعوا عيسى عليه السلام ، وساروا على منهاجه ، وملته فى الإسلام ، وفطرته ، فوق الذين جحدوا نبوته ، وخالفوا بسلوكهم المعوج جميع أهل الملل ، فكذبوا بما جاء به عيسى وصدوا عن الإقرار به إلى يوم القيامة ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾
آل عمران

آراء بعض المفسرين فى رفع عيسى إلى السماء

وقد اختلف المفسرون فى تفسير آية الرفع ، فبعضهم قال : إن المراد بالوفاة النوم ؛ لأن النوم هو الميتة الصغرى ، وقد روى عن الربيع : أن الله تعالى رفع عيسى إلى السماء وهو نائم رفقاً به ، و بعضهم قال : إن المراد من الآية إنى مستوف أجلك ، ومميتك حتف أنفك ، لا أسلط عليك مَن يقتلك ، و إن الآية كنايةً عن عصمته من الأعداء

والأخبار المأثورة جاءت ناطقةً بأن المسيح رفع إلى السماء بجسده وروحه ، وأنه حيٌّ فيها ، وأنه ينزل فى آخر الزمان ، و يقتل المسيح الدجال

الحكم بين المختلفين

ثم قال لهم : أيها المختلفون فى عيسى مصيركم يوم القيامة إلىّ فأحكم بينكم ، وأقضى بين جميعكم فى أمر عيسى بالحق فيما كنتم فيه تختلفون فى أمره

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾
آل عمران

فأما الذين كفروا وجحدوا نبوتك ياعيسى ، وخالفوا ملتك وكذبوا

بما جئتهم به من الحق ، وقالوا فيك الباطل ، فإنى أعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا بالقتل والسباء ، والذلة والمسكنة ؛ وأما فى الآخرة فبنار جهنم خالدين فيها أبداً ، ومالهم من ناصرين ، ولا تقبل منهم شفاعة ؛ وأما الذين آمنوا بك يا عيسى وصدقوك ، وأقروا بنبوتك ، وبما جئتهم به من الحق من عندى ، ودانوا بالإسلام الذى بعثتك به ، وعملوا بما فرضت من فرائض على لسانك ، وشرعت من شرائع ، وعملوا الصالحات ، فأوفيهم أجورهم ، وأعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة أجراً كاملاً لا يبخسون منه شيئاً ، ولا ينقصونه ، فإن الله لا يحب من ظلم غيره حقاً له ، أو وضع شيئا فى غير موضعه

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ آل عمران

٨ — معجزة نزول المائدة

من المعجزات العظيمة التى أتى بها عيسى عليه السلام نزول المائدة ، وسبب ذلك أن الحواريين أصحاب عيسى قالوا له : يا عيسى هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ فقال لهم : راقبوا الله أيها القوم ، وخافوا أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا ، فإن الله لا يعجزه شىء

أراده ، وفى شككم فى قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به ، فاتقوا الله أن ينزل بكم نقمته إن كنتم مؤمنين ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

المائدة

قال الحواريون : إنما قلنا ذلك ، وسألناك أن تدعو لنا ربك ، لنأكل من المائدة ، فنعلم يقيناً قدرته على كل شيء ، وتطمئن قلوبنا ، نستقر على وحدانيته وقدرته ، ونعلم أنك لم تكذبنا فى خبرك إنك رسول مرسل ونبى مبعوث ، ونكون على نزول المائدة ممن يشهد أن الله أنزلها حجةً لنفسه علينا فى توحيده . وقدرته ما يشاء ، ومعجزة لك على صدقك فى نبوتك

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المائدة

فأجاب عيسى القوم إلى ما سألوه ، ودعا ربه وقال : اللهم ربنا أنزل علينا مائدةً من السماء لنتخذ يوم نزولها عيداً نعظمه نحن ومن يجيء بعدنا ، ونعبد ربنا ونصلى له فى هذا اليوم ، كما يعمل الناس فى أعيادهم ؛ ولتكون علامةً وحجةً منك يا رب على عبادك فى وحدانيتك ، وفى صدق على أنى رسول إليهم بما أرسلتنى ، واعطنا من عطائك ورزقك فإنك يا رب خير من يعطى ويرزق ، وأجود من يتفضل ويجود

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ المائدة

فاستجاب الله دعاء عيسى وقال : إنى منزلها عليكم أيها الحواريون فطعمكم منها ، فمن يجحد بعد إنزالها عليكم ، وإطعامكم منها رسالتى إليه وينكر نبوة نبي عيسى صلى الله عليه وسلم ، ويخالف طاعتى فيما أمرته ونهيته ، فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، غير أهل المائدة

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ المائدة

اعتراف عيسى عليه السلام بعدم أمره باتخاذه وأمه إلهين

لما رفع الله عيسى ابن مريم إليه قالت النصارى واليهود ما قالت ، وزعموا أن عيسى أمرهم باتخاذه وأمه إلهين من دون الله ، فسأله الله عن قوله هذا وقال له : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال عيسى : تنزيهاً لك يارب وتعظيماً أن أفعل ذلك أو أتكلم به ، ليس لى أن أقول ذلك ، لأنى عبد مخلوق ، وأمى أمة لك ، فهل يكون للعبد والأمة ادعاء ربوبية ؟ إن كنت قلته فقد علمته

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ المائدة

ثم قال : إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته فى نفسى مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحى ، فكيف بما قد نطقت به وأظهرته بجوارحى ؛ فلو كنتُ قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، لكنتَ علمته ؛ لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به ، فكيف بما قد نطقت به ؟ وإنى لا أعلم ما أخفيته عنى ، فلم تطلعنى عليه ؛ لأنى إنما أعلم من الأشياء ما أعلمتنيه ، إنك أنت العالم بخفيات الأمور ، التى لا يطلع عليها سواك ، ولا يعلمها غيرك

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ المائدة

ثم قال : إنى ما قلت لهم إلا الذى أمرتنى به من القول أن أقوله ، وهو اعبدوا الله ربى وربكم ، وقد كنت شاهداً عليهم ، وعلى أفعالهم وأقوالهم ، وأنا بين أظهرهم

فلما قبضتنى إليك ، كنت أنت الحفيظ عليهم دونى ، وأنت تشهد على كل شيء ؛ لأنه لا يخفى عليك شيء لقوله تعالى :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ

وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ المائدة

وفى هذا دليل ، على أن الله تعالى إنما عرّفه أفعال القوم ، ومقالتهم بعد ماقبضه إليه وتوفاه

ثم قال : إن تعذب هؤلاء الذين قالوا ذلك ، وادعوا هـذا الادعاء ، فإنهم عبادك مستسلمون لك ، لايمتنعون مما أردتَ بهم ، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً ولا أمراً تعاقبهم به ؛ وإن أردت أن تغفر لهم بهدايتك إياهم إلى التوبة والإسلام ، فتستر عليهم ، فإنك أنت العزيز فى انتقامه ممن أراد الانتقام منه ، لايقدر أحد أن يدفعه عنه ، الحكيم فى هداية من هدى من خلقه إلى التوبة ، وتوفيق مَن وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة

خاتمة المسيح عليه السلام

وما قيل بشأن قتله وصلبه

سبق أن ذكرنا أن الحواريين هم أنصار وأصحاب عيسى عليه السلام الذين آمنوا به ؛ أما سائر اليهود ، فإنهم لم يكتفوا بعدم الإيمان به بل اتفقوا وعزموا على قتله كما قتلوا يحيى وزكريا عليهما السلام من قبل . فلما استقر رأيهم على ذلك ، شكوا أمره إلى الوالى الموجود وقتئذ ، وزينوا شكواهم بما يستدعى اهتمام الوالى بادعائهم عليه أنه يقول : إنه ملك اليهود ، وأنهم لا يقرون بملك سوى (قيصر رومية) فأرسل الوالى جنداً للقبض على المسيح عيسى بن مريم ، فلما أتوا إلى بيته ، ولم يبق إلا القبض عليه ، والمسيح قد اهتم لهذا الأمر وخشى أن ينالوه بالأذى ، أنقذه الله من أيديهم وطهره منهم ، وألقى شبهه على شخص آخر ، علم فيما بعد أنه تلميذه الخائن ، وعرفته الأناجيل بأنه (يهوذا الاسخريوطى) الذى تواطأ مع الكهنة على الدلالة عليه بأجر

وصار بحيث ان كل من رآه لا يشك فى أنه يسوع ، فأخذ وصلب وقتل ونجا الله المسيح من شرهم

وقد أعلم الله تعالى المسيح بما سيتم ، وشاع فى الناس أن يسوع

الناصرى قُتل بعـد أن صلب ، وما قتلوه وما صلبوه ؛ ولـكن شبّه لهم ، وما قتلوه يقيناً ؛ بل رفعه الله إليه ، وطهره من الذين كفروا ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ النساء

وبعد أن رفعه الله إليه أنبث الحواريون أصحابه فى جهات الأرض يدعون الناس إلى دينه ، وهو توحيد الله فيما يرضيه ، إلا أن الدنيـا كانت مملوءة بالشرك والـكفر ، فلم يستطيعوا أن يصدعوا بالأمر فظل الدين العيسوى أكثر من ٣٠٠ سنة محجوباً كالأسرار ، فى صدور الأحرار ، وكان أصحابه يعبدون الله تعالى سراً فى مواضع أعدوها لذلك تحت الأرض أو فى الـكهوف والمغارات ، أما أمه مريم فقد عاشت بعد رفعه ست سنين ثم توفيت وكان عمرها ٥٣ ثلاثاً وخمسين سنة ، ودفنت ببيت المقدس بالـكنيسة المعروفة (بالجسمانية)

ويقال : إنه حىّ إلى الآن ، وأنه ينزل قبل قيام الساعة ويحكم بشريعة

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا يدع كافراً حتى يسلم ، ويمكث أربعين سنة ، ثم يحج ويزور قبر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يموت ويدفن بجواره صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد ذلك الحديث الشريف الآتى :

حديث شريف ؛ عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأنبياء إخوة لعلات ، وأمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى عليه السلام ، لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، ويوشك أن ينزل فيكم ويحكم حكماً عدلاً ، وانه نازل على أمتى ، وهو خليفتى عليكم ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع القامة ، وهو إلى الحمرة والبياض ، سبط الشعر كان رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، ويسكن الروحاء حاجاً معتمراً ، يقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك فى زمانه الملل كلها غير الإسلام ، وتكون السجدة واحدة لله تعالى ، ويهلك فى زمانه المسيح الدجال ، ويقتل على يديه وعلى يد أصحابه . ويقع الأمن فى الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الصبيان بالحيّات لا يضر بعضهم بعضاً

ثم يلبث فى الأرض ما شاء الله (وقيل أربعين سنة) ثم يتوفى فى

المدينة ويصلى عليه المسلمون ، ويدفنونه إلى جانب قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فطوبى لأبى بكر وعمر يحشران بين نبيين .

وقد بُشر عيسى عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال لقومه بنى إسرائيل : يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة التى أنزلت على موسى ، وأبشركم برسول يأتى من بعدى اسمه (أحمد)

ولما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالبينات ، وهى الدلالات التى أتاه الله حججاً على نبوته قالوا : هذا سحر مبين ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ الصف

٢٥ -- محمد صلى الله عليه وسلم

(سيد المرسلين وخاتم النبيين)

خلاصة سيرته

ليس القصد بسط القول فى السيرة النبوية ، والشمائل المحمدية ، فإن لذلك كتباً كثيرة فياضةً بها ، وإنما الغرض الإلمام بخلاصة سيرته عليه الصلاة والسلام ، لإثبات نبوته ورسالته بالآيات القرآنية ، ودحض أقوال السفهاء والمشركين والمنافقين فيما يزعمونه ، وبيان بعض معجزاته وشمائله صلى الله عليه وسلم

نسبه الشريف

١ -- من جهة أبيه

نبينا العربى ، الهاشمى القرشى ، أكرم العرب نسباً ، وأشرفهم حسباً ، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (واسمه شيبة الحمد) ابن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن حكيم بن مرة بن كعب لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؛ وينتهى نسبه الشريف إلى إسماعيل ابن إبراهيم أبى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ويدعى (أبا العرب المستعربة)

وقد نظم بعضهم الجميع فقال :

« نبينا محمد قد ينتسب قطعاً لعبد الله عبد المطلب »

« فهاشم عبد مناف فقصى كذا حكيم مرة كعب لؤى »

« فغالب فهر فمالك يلى نضر كنانة خزيمة انقل »

« مدركة الياس أيضاً فمضر نزارهم معد عدنان انحصر »

٢ - من جهة أمه

وأمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم ، الذى هو الجد الخامس للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهى من أشرف بيوت قريش

وهذا هو النسب الشريف المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين .

وقال فى نسبه الإمام البوصيرى رحمه الله صاحب البردة والهمزية فى مدح خير البرية المتوفى سنة ٦٩٥ هـ بالاسكندرية وضريحه بها مشهور ومعروف :

« نَسَبٌ تَحْسِبُ الْعُلاَ بِحُلاَهُ قَلَّدَتْهَا نُجُومَهَا الْجَوْزَاءُ[1] »

حَبَذَا عِقْدُ[2] سُؤْدَدٍ[3] وَفَخَارٍ أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ[4] الْعَصْمَاءُ[5] »

(١) الجوزاء : اسم لبرج فى السماء (٢) العقد : القلادة من الجوهر

(٣) السودد : السيادة (٤) اليتيمة : التى لاشبيه لها فى جنسها

(٥) العصماء : من العصمة وهى الحفظ والمنع

أدوار حياته صلى الله عليه وسلم

١ — الدور الأول (من ولادته إلى النبوة)

ميلاده

حملت به أمه السيدة آمنة بنت وهب فى أول رجب . وبعد شهرين من حمله توفى أبوه عبد الله فى المدينة عند أخواله بنى النجار وعمره ١٨ سنة عقب ذهابه إلى تجارة فى الشام

ولما تمت مدة الحمل وُلد عليه الصلاة والسلام بمكة فى دار أبى طالب فى صباح يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول ، وقيل : صباح اليوم التاسع من هذا الشهر الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام على ماحققه المرحوم محمود باشا الفلكى

وهذا اليوم يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل المشهورة ، أى العام الذى حبس الله فيه الفيل عن دخول مكة لهدم الكعبة كما كان يقصد (أبرهة) قائد جيش النجاشى الحبشى فدمرهم الله أشنع تدمير ، وجعل كيدهم فى تضليل ، إكراماً لولادته عليه الصلاة والسلام

وقد جاء ذكر هذه القصة فى القرآن الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

وقال فى حمله وولادته (حسّان بن ثابت) الشاعر العظيم :

« تالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرسول نبيّ الأمة الهادى »

وقال المرحوم شوقى بك فى قصيدته الشهيرة بالهمزية :

« وُلد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء »

وقد دلت الروايات الصحيحة على اتصافه صلى الله عليه وسلم حين ولادته بصفات تليق بمقامه السامى ، إذ وُلد نظيفاً ليس عليه من أقذار الولادة شىء ، مدهوناً مكحولاً ، يعلوه النور والبهاء ، واضعاً يديه على الأرض رافعاً رأسه ، رامقاً بطرفه إلى السماء

وفى ذلك يقوله البوصيرى رحمه الله :

« رَافعاً رأسهُ وفى ذلك الرَّفـــعِ إلى كُلِّ سُؤددَ إيمـاء »

« رَامقاً طرفهُ السماءَ ومَرمَى عَينِ مَن شأنهُ العُلُوُّ العَلاء »

أى برز عليه السلام إلى هذا الوجود رافعاً رأسه ، وفى ذلك الرفع الذى هو أول فعل وقع منه عليه السلام (إيماء) وإشارة إلى كل رفعة وسعادة .

ورامقاً ببصره إلى جهة العلو إيماء إلى أنه لا يقصد إلاَّ أعلى المراتب ، إذ مَن شأنه العلو لا يقصد إلا جهاته

« وَتَدَلَّتْ زُهْرُ النُّجُومِ إِلَيْهِ فَأَضَاءَتْ بِضَوْئِهَا الْأَرْجَاءُ »

أى قد دنت الكواكب المضيئة يوم ولادته فأضاءت بأنوارها النواحى والدليل على ذلك أنه روى البيهقى عن (فاطمة الثقفية) أنها قالت لما حضرت ولادة النبى عليه الصلاة والسلام : رأيت البيت حين وضع قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علىَّ

وروى : أن أمه ، صلى الله عليه وسلم ، رأت حين وضعته نوراً ظهرت به قصور الشام فرأتها وهى فى مكة ؛ وهذا معنى قول البوصيرى رحمه الله

« وتَرَاءَتْ قُصُورُ قَيْصَرَ بالرو م يَرَاهَا مَن دَارُهُ البَطْحَاءُ »

العجائب التى ظهرت يوم ولادته

وفى ليلة ولادته شاهد الكثيرون ما يدل على شرفه وعظيم قدره من العجائب والآيات الباهرات ، فلما أشرقت أنواره عليه السلام تتابعت بشائر الهاتفين بولادته ، وثبت السرور بطلعته ، وأشرف على السقوط (إيوان كسرى) وانشق وسقطت شرفاته ، وخمدت نار فارس أى انطفأت النار التى كانوا يعبدونها ويوقدونها ألف سنة ، ولم يطفأ لها لهب ؛ لأنهم

كانوا مجوساً ، وكان ذلك غماً و بلاء عليهم ، فخمود تلك النيران العظيمة ؛ وقد أدركوا أن ذلك لأمر عظيم حدث فى العالم ، وهو ولادة المصطفى عليه الصلاة والسلام

وكذا ظهر فى تلك الليلة جفاف عيون الفرس ؛ كأن الماء الذى كان بها فاض وأطفأ نيران بيوت الفرس

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« لَيلةُ المولد الذى كان للدِّ ين سُرور بيومه وازدهاء »
« وتوالَت بُشرَى الهواتفِ أن قَد وُلِدَ المُصطفى وحقّ الهناء »
« وتداعى إيوان كسرى ولَولاَ آيةٌ مِنكَ ماتداعى البناء »
« وغدَا كلُّ بيت نارٍ وفيهِ كُربة مِن خُمُودِها وَبلاء »
« وعُيونٌ للفُرس غارت فهل كا نَ لنيرانهم بهـا إطفاء ؟ »
« مَولد كان مِنهُ فى طالع الكُفـــر وبالٌ عليهمُ ووَباء »

وقد امتازت وفازت السيدة آمنة بما لم تفز به النساء من الفخار حتى حواء ، ولذا قال البوصيرى رحمه الله :

« فَهنيئاً به لآمنةَ الفضـــلُ الذى شُرِّفت به حَوّاء »
« يَوْمَ نَالَتْ بوَضعه أبْنَةُ وهب مِن فَخَار مَالَمْ تَنَلْهُ النساء »

الاحتفال بمولد النبى عليه الصلاة والسلام

لم يكن فى سنة العرب أن يحتفلوا بتاريخ ميلاد أحد منهم ؛ ولم تجر بذلك سنةٌ بين المسلمين فيما سلف ، والثابت من كتب التاريخ وغيرها أن عادة الاحتفال بميلاد النبى عليه الصلاة السلام من العادات المحدثة ، ويقال : إن هذه العادة أحدثها (المظفر أبو سعيد) صاحب (اربل) من البلاد التابعة لولاية (الموصل) وذلك فى القرن السابع من الهجرة ، ثم انتشرت هذه العادة فى الأقطار ، وقد فاقت مصرنا فيها جميع الأمصار

وفى الزمن الغابر كانَ أهلُ مكة — فيما رواه بعض المؤرخين — يتبركون بزيارة الموضع الذى وُلد فيه النبى عليه الصلاة والسلام فى يوم ميلاده

هذا وان الاحتفال بمولد النبى عليه الصلاة والسلام ليس بالبدعة كما يدعى بعضهم ؛ بل هو سنة حسنة جرىٰ عليها الخلف سنة عن السلف الصالح

والقصد من هذا الاحتفال هو : أن يجعل الناس يوماً من أيام العام خالصاً لتذكار (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) أكبر أبناء آدم بركةً على الإنسانية ، وأبقاهم فى صحائف التاريخ أثراً ، بتلاوة الذكر الحكيم ، وقصة سيد المرسلين ، وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ولو أنصف المسلمون لجعلوا احتفالهم يوم ميلاد نبيهم أن يخرجوا إلى الصحراء بين الرمال

والأحجار فيستعيدوا هنالك ذكرى النبى الأمى الأمين ، الذى أنشأ من قبائل العرب البدوية خيرَ أمة أخرجت للناس ، ورفع راية القرآن المنصورة ما بين زمزم والحطيم

أما العادة المتبعة فى الاحتفال بمولد النبى الشريف من إقامة الزينات والسرادقات ، وتسيير الموكب ، ودق الطبول والمزمار ، والإشارات ، وسماع الأغانى والأناشيد ، والرقص فى حلقات الذكر ، وإطلاق الصواريخ والألعاب النارية فى الهواء ، وخروج النساء المتبرجات لرؤية الاحتفال والموكب ، واختلاط الرجال والشبان بالنساء والفتيات ؛ كل ذلك مخالف لآداب الشريعة السمحة ، ومما يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب الابتعاد عنه

تسميته صلى الله عليه وسلم

لما وُلد عليه الصلاة والسلام أرسلت أمه السيدة آمنة لجده تبشره فأقبل مسروراً وسمّاه

« محمداً »

ولم يكن هذا الاسم شائعاً من قبل عند العرب ، ولكن أراد الله أن يحقق ما ذكره فى الكتب التى جاءت بها الأنبياء ، كالتوراة والإنجيل فألهم جده أن يسميه بذلك إنفاذاً لأمره

رَضاعه وفطامه وما حصل فيهما من المعجزات

أرضعته أمه السيدة آمنة نحو ثلاثة أيام ثم (ثويبة) مولاة عمه أبى لهب ، ثم (حليمة السعدية) التى اختارها جده عبد المطلب مرضعةً له ، وهى من قبيلة (هوازن) المشهورة فى العرب بالعراقة وكمال الشرف ، واسم زوجها (أبو كبشة) وهو الذى كانت قريش تنسب له الرسول صلى الله عليه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون : « هذا ابن أبى كبشة » يكلم من السماء ، فأخذته حليمة السعدية ، ورجعت به إلى قبيلتها ، و بقى عندها إلى الفطام و بعده بسنتين أيضاً

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله

« وإذا سَخَّر الإله أُناساً لِسعيد فإنّهُم سُعداء »

وقد ظهرت فى زمان رضاعه أشياء شبيهة بالمعجزات لايستطاع إخفاؤها وكتمانها عن الأبصار ، إذ امتنعت عن رضاعه المرضعات ، وأعرضن عنه ليتمه وقلن : إنما تركناه لأننا نبغى المعروف والخير من آباء الرُّضعاء ، وأما الأم والجد فليسا كذلك . وقد أتته حليمة السعدية وكانت فقيرةً ، ولا يرضى أحد من الأهالى أن يعطيها ابنه لإرضاعه ؛ لأن الفقر يستلزم قلة الأكل ، وهو يستلزم قلة اللبن المضر بالرضيع عادةً ، فأرضعت النبى عليه السلام لبانها ، و بسبب

هذا الإرضاع لهذا المولود السعيد المحمود ، درَّ عليها و بنيها الشياه من الغنم ألبانها ، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ، و بعد أن كانت هذه الشياه هزيلات لا لبن فيها أصلاً ، فببركته عليه السلام استحالت حالها فى أقرب وقت وليس بها هزال ؛ وكثر مرعى الدواب عند حليمة بعد يبس الأرض من الكلأ والزرع ، وذلك بسبب أنها ترضع النبى عليه السلام بلبنها ، ولأن البركة والرحمة تحلان حيث يكون الرسول صلى الله عليه وسلم

وفى ذلك يقول الإمام البوصيرى رحمه الله :

« وبَدَتْ فى رَضَاعه مُعجزاتٌ ليسَ فيها عَن العُيون خفَاءُ »
« إذ أبَتهُ لِيُتمهِ مُرضِعاتٌ قُلن ما فى اليتيم عَنَّا غَنَاءُ »
« فَأَتَتهُ من آل سَعْدٍ فتاةٌ قدْ أبَتْهَا لِفقرها الرُّضَعَاء »
« أرضَعتْه لِبانَها فَسقتها وَبَنيها أَلبانَهُنَّ الشاء »
« أَصْبَحتْ شُوَّلاً عِجافاً وأمست ما بها شَائِلٌ ولا عَجْفَاء »
« أَخْصَبَ العيشُ عندها بعد مَحْلٍ إذ غَدَا للنبى منهما غِذاء »

و بعد أن انتهت مدة رضاعه لبلوغه سنتين أتت به جده عبد المطلب وقد أصابها من أجل فطامه التألم الشديد لما شاهدت من توالى الخيرات وتتابع البركات بسبب إقامته عندها

« وأتَت جَدّ وقد فَصَلته وبها مِن فصاله البُرَحاءُ »

حادثة شق الصدر

وحصل له عليه الصلاة والسلام حادثةٌ مهمةٌ وهى شق الصدر وإخراج حظ الشيطان منه ، فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردته إلى أمه وجده وحدثتهما قائلةً :

بينما هو عليه الصلاة والسلام وإخوته (أولادها) فى بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (يحركانه بسوط) فخرجت أنا وأبوه فوجدناه ممتعاً لونه ، فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالكَ يا بُنى ؟ فقال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه : أهو هذا ؟ قال : نعم . فأقبلا يبتدرانى فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ما هو ؟

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« إذ أحاطَتْ به مَلائكةُ اللَّـــه فَظَنَّتْ بأنَّهم قُرَناه »
« وَرَأى وَجْدَها به ومن الوجـــدِ لَهِيبٌ تُصْلَى به الأَحْشاه »
« فَارَقَتْهُ كُرْهاً وكان لَدَيها ثاوِيًا لا يُمَلُّ منه الثَّواء »
« شُقَّ عن قلبه وأُخرِجَ منه مُضغةٌ عند غسله سَوْداء »

وقد أعاد جبريل عليه السلام ذلك الشق إلى ما كان عليه بإمرار يده على محله فالتأم ، ثم أودع فيه من الإيمان والحكمة والأسرار ما لم ينشر وما لم تحط به أخبار ؛ لإنه لا يعلمه إلا الله تعالى ؛ ثم وضع الخاتم بين كتفيه ، ولم يكن الخاتم لنبى قبله

وفى ذلك قول البوصيرى رحمه الله :

« خَتَمَتْه يُمنى الأمين وقد أو دِع ما لم تُذَع لَهُ أنْبَاءُ »

« صَان أسرارهُ الخِتامُ فلا الفَـضُّ مُلِمٌّ به ولا الإفضَاءُ »

وفاة والدته وكفالة جده وعمه له

لما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم أربع سنين قامت والدته بحضانته ثم أخذته وتوجهت به إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار . وبينما هى عائدة أدركتها الوفاة فى الطريق فماتت (بالأبواء) وهى أقرب إلى المدينة ، فحضنته (أم أيمن) وهى جارية ورثها عن أبيه تسمى (بركة الحبشية) وكفله جده عبد المطلب فكان يرق له ، ويعطف عليه أكثر من أولاده لما كان يظهر عليه من علامات النجابة الدالة على أنه سيكون له شأن عظيم فى المستقبل ، ولذا كان يكرمه غاية الإكرام ؛ ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفى بعد ثمانى سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم ؛

فكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه أحسن كفالةً ، وكان شهماً كريماً سمحاً جواداً ؛ لكنه كان فقيراً لا يملك كفاف أهله ، فحسنت حاله وصلح رزقه ، وكانت كفالته لابن أخيه خيراً وبركةً عليه وعلى أولاده

ولقد اعتنى بابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم عنايةً كبرى حتى قدمه على أولاده فى كل شىء عملاً بوصية أبيه عبد المطلب له حيث قال فيها :

« أوصى أباطالب بعدى بذى رَحِم (محمد) وهو فى الناس محمود »

« فاحذَر عليه شِرار الناس كلهم والحاسدين فإن الخير محسود »

ولذا كان به رحيماً ؛ وعليه غيوراً ، لأنه رآه بعيداً عن كل شائبة نقص وهو مما تميل إليه الأطفال عادةً

وكان محمد صلى الله عليه وسلم فى مدة كفالة عمه مثال القناعة ، والبعد عن السفاسف ، وصغار الأمور التى يشتغل بها الأطفال ، فكان إذا حضر الأكل أقبل عليه الأولاد يختطفونه وهو قانع بما يسره الله له

نشأته وكسبه من يده وثمرة عمله

نشأ صلى الله عليه وسلم فى قومه يتيماً فقيراً ومات والده فى سن الشباب ولم يترك له مالاً سوى خمسة جمال و بضع نعاج ، وكان صلى الله عليه وسلم قد ألف رعى الغنم مع إخوته فى الرضاع ، فصار يرعى لأهل مكة غَنَمهم فيتوافر لكافله

أبى طالب ما يأخذ من ذلك من أجر ؛ ولذا كان مثال الزهد والقناعة والرأفة والرحمة .

ولما شبَّ عليه السلام كان يتجر مع شريك له يدعى (السائب) ويأكل من ثمرة عمله وكسبه ، وقد اشتهر بالصدق والأمانة فى تجارته والإخلاص فى عمله .

تأديب الله تعالى له صلى الله عليه وسلم وحسن خلقه

قد أدبه الله تعالى أدباً لم يفز به غيره من اليتامى الذين قلَّ ما لهم ومال القوّام عليهم ، مع كونه بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعُشَرَاء من حلفاء الوثنية ، ولم يكن له أستاذ يهذبه ، ولا مثقف يؤدبه ، وإنما هى عناية الله تحفظه وترعاه ؛ وقد حدث عن نفسه قائلاً :

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

فاكتمل صلى الله عليه وسلم وهو على أتم ما تتزكى به روح ، وأكمل ما تتحلى به نفس ؛ من جميل الصفات ، وحميد الخصال ، وقد قال فى شأنه البوصيرى رحمه الله :

« كفاكَ بالعلم فى الأُمىِّ مُعجزةً فى الجاهلية والتأديبِ فى اليُتُم »

رحلته الأولى إلى الشام

لما بلغ سنه عليه السلام اثنتى عشرة سنة أراد عمه وكفيله أبو طالب

السفر بتجارة إلى الشام فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه فرَق له وأخذه معه (وهـذه هى الرحلة الأولى) ولم يمكثوا فيها إلا قليلاً وكان معهما أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب (بُصْرَى) قرية على الحدود بين بلاد الشام و بلاد العرب (بحيرا الراهب) فسألهم عما رآه فى كتبهم المقدسة ، من بعث نبى من العرب فى هذا الزمن ؟ فقالوا : إنه لم يظهر للآن .

وهـذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل مبعث الرسول .

ويقول الله تعالى فى ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

البقرة

وقد عرفه (بحيرا) بعلامات النبوة وتحققها وقال : سيكون لهذا الغلام شأن عظيم ، وسيبعثه الله رحمةً للعالمين ، وناشـد عمه أن يرده إلى مكة خوفاً عليه من اليهود والنصارى ، فرجع ورجع معه أبو بكر وزودهم (بحيرا) شيئاً من الزبيب والكعك .

حرب الفجار

لما بلغ سنه عليه السلام عشرين سنة حضر حرب الفجار ، وهى حرب كانت بين قريش وحلفائها ، وبين قيس وحلفائها ، فى موضع يسمى (نخلة) بين مكة والطائف وكان يجمع السهام لأعمامه فيها ويرمى معهم ، فكلَّل الله عملهم بالنصر على أعدائهم الذين انتهكوا إذ ذاك حرمات البيت المعظم عند جميع العرب ، ولوقوعه فى الشهر الحرام .

ولما استحل فيه من حرمات مكة التى كانت مقدسة عند العرب سُمِّى (يوم الفجار) وكانت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها وانتهت بالصلح ، وألّف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم بَعْدُ .

رحلته الثانية إلى الشام

لما بلغ سنه عليه السلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام للمرة الثانية وذلك : أن خديجة بنت خويلد الأسدية (من بنى أسد بن العزى بن قصى) كانت سيدةً تاجرةً ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها ، وتضاربهم فيه .

فلما سمعت عن محمد صلى الله عليه وسلم من الأمانة ، وصدق الحديث ، ما لم تعرفه فى غيره ، حتى سمّاه قومه (الأمين) استأجرته ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره .

فسافر على بركة الله مع غلامها (مَيْسرَة) وكانت تظله الغمامة فى اليوم الصائف ، لا يشترك معه أحد من القافلة ، كما روى ذلك (مَيسَرة) فعرفه الراهب (نسطورا) وقال : هذا خاتم النبيين ، ليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج .

ثم حضروا سوق (بُصْرَى) وباعوا واشتروا ، فربحوا ربحاً عظيماً وحقق الله ما امتن به عليه بقوله :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ الضحى

زواجه من السيدة خديجة

لما عاد عليه السلام مع (مَيسَرة) من الشام وقدما مكة ورأت السيدة خديجة ربحها العظيم ، وتحققت أمانته وصدقه ، وشاهدت بعض علامات النبوة عليه ، وأخبرها غلامها (مَيسَرة) بكلام الراهب ، وبما رآه بنفسه من ظلة الغمامة له ، بعثها ذلك إلى التزوج به .

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« وَرَأَتْهُ خَدِيجَةُ والتُّقَى والزُّ هدُ فيهِ سَجِيَّةٌ وَالْحَيَاءُ »

« وَأَتَاهَا أَنَّ الْغَمَامَةَ وَالسِّرْ حَ أَظَلَّتْهُ مِنْهُمَا أَفْيَاءُ »

« وَأَحَادِيثُ أَنَّ وَعدَ رسول اللَّـــهِ بالبَعْثِ حَانَ مِنهُ الوَفَاءُ »

« فَدَعَتْهُ إِلَى الزَّوَاجِ وَمَا أَحْسَـــنَ ما يَبْلُغُ الْمُنَى الْأَذْكِيَاءُ »

وأرسلت إليه تخطبه لنفسها ، وكان سنها نحو الأربعين ، وسنه خمساً وعشرين سنة ، وكانت من أفضل قريش حسباً ونسباً ، وأوسعهم مالاً وثروةً ، وكم من عظيم خطبها ، و بذل لها الأموال الطائلة فأبت ؛ ولكن لما خطبها أبو طالب لمحمد صلى الله عليه وسلم أجابت ، لِمَا توسمته فيه من التقوى والزهد والحياء والخير والبركة ، فتزوجها عليه الصلاة والسلام بعد (أبى هالة) المتوفى عنها وعن ولدها (هنـد) الذى هو ربيب المصطفى ؛ ولم يتزوج غيرها حتى توفيت ، فتزوج بعدها (عائشة أم المؤمنين) .

وكان عليه الصلاة والسلام يَذكرها طول عمره بكل خير ، حتى كانت السيدة عائشة تغار منهـا ولم ترها ، قالت من حديث لهـا : فذكرها يوماً من الأيام فأخذتنى الغَيرة ، فقلت له صلى الله عليـه وسلم : هَل كانت إلاَّ عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟ فغضب رسول الله عليـه الصلاة والسلام وقال :

« لا والله ما أبدلنى خيراً منها : آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدّقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » رواه مسلم

بناء البيت الحرام

لما بلغ عليه الصلاة والسلام خمساً وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها من قبل فشرعت قريش فى بناء الكعبة

وأعدّوا لذلك النفقة اللازمة ، وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم ، وكان العباس ورسول الله محمد عليه الصلاة والسلام فيمن يحمل الحجارة من أشراف مكة

وعندما أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه اختلفوا وتنافسوا تنافساً شديداً كاد تكون عاقبته الحرب لولا أن (أبا أمية بن المغيرة المخزومى) عم خالد بن الوليد الذى كان أكبرهم سناً قال : لا تختلفوا ، وحكموا بينكم مَن ترضون بحكمه

فقالوا : نكل الأمر لأول داخل من باب (بنى شيبة)

فكان هذا الداخل هو النبى الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام ، فلما أن

الجميع له لما يعهدون فيه من الأمانة ، وصدق الحديث ، وقالوا : هـذا الأمين رضيناه ، هـذا محمد ؛ لأنهم كانوا يتحاكمون إليه إذ كان لا يدارى ولا يمارى

فلما أخـبروه الخبر بسط رداءه وقال : لتأخـذ كل قبيلة بناحية من الثوب ؛ ثم وضع فـيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا إلى موضعه ، فأخذه عليه السلام ووضعه فيه بيده الشريفة ، وهكذا انتهت هذه المشكلة التى كثيراً ما يكون أمثالها سببا فى انتشار حروب هائلة طاحنة بين العرب

ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا ، لأن البيت الحرام قبلة العرب ، وكعبتهم التى يحجون إليها ، فكل عمـل فيه يعظم به الفخر والسيادة ، ومن المعلوم : أنه أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ آل عمران

ولقد امتن الله عليهم بذلك فى تنزيله بقوله :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ العنكبوت

سيرته فى قومه قبل البعثة

كان عليه السلام أحسن قومه خُلقًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأعظمهم أمانةً وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، حتى كان أفضل قومه مُروءة ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جواراً ، وأكثرهم حلمًا ، حتى شهد له بذلك ألد أعدائه (النضر بن الحارث) من بنى عبد الدار حيث يقول :

قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا ؟ أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانةً ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر

بُغضه للوثنية من أول حياته

قد حفظه الله فى صغره من أعمال الجاهلية ، وبُغضت إليه الأوثان بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالاً ولا عيداً مما يقوم به عبّادها ، ولم يسجد للأصنام ، وكان يقول عليه السلام :

لما نشأت بُغِّضَت إلىَّ الأوثان ، وبُغِّضَ إلىَّ الشعر ، ولم أهمَّ بشىء مما كانت الجاهلية تفعله

وكان عليه السلام لا يأكل مما كان يُذبح على النُّصُب (وهى

حجارة تنصب تصب عليها دماء الذبائح وتُعبد) وحرَّم على نفسه شرب الخمر مع شيوعه فى قومه شيوعاً عظيماً

وذلك كله من الصفات التى يحلى بها الله أنبياءه ، ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقى وحيه ، فهم معصومون من الأدناس والارجاس ، قبل النبوة و بعدها

تعبده صلى الله عليه وسلم

لما بلغ عليه السلام ثمانياً وثلاثين سنة كان « صلى الله عليه وسلم » يرى الضوء والنور ، ويسمع صوت النداء ولا يرى أحداً ، وحُبب إليه الخلاء للعبادة والتفكر

فكان صلى الله عليه وسلم معتاداً العبادة ، والابتعاد عن الناس ، وذلك شأن الكرام الذين لا يألفون إلا ما يناسب كرمهم ، فكان يخلو بغار (حراء) جبل قريب من مكة فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، فتارةً عشر ليال ، وتارةً أكثر ، يأخذ لذلك زاده ، فإذا فرغ رجع إلى بيته فتزود لمثلها

وكأن الله سبحانه وتعالى قد ألهمه ذلك لتصفو نفسه ، ويتوجه روحه الشريف إلى عالم غير عالم المادة ، ويستعد لما سيكرمه الله به من تلقى وحيه ، وإنقاذ خلقه مما كان فيه مثل قومه من الشرور والآثام وعبادة الأصنام

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

«أَلِفَ النُّسْكَ وَالْعِبَادَةَ وَالْخَلْـــوَةَ طِفْلًا وَهٰكَذَا النُّجَبَاءُ»

«وَإِذَا حَلَّتِ الْهِدَايَةُ قَلْبًا نَشِطَتْ فِي الْعِبَادَةِ الْأَعْضَاءُ»

١ - تبشير التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم

أنزل الله التوراة على موسى محتويةً على الشرائع التى تناسب أهل ذاك الزمن ، ونوَّه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم فمما جاء فيها تبشيراً برسول الله الكريم محمد عليه الصلاة والتسليم خطاباً لسيدنا موسى عليه السلام :

« وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ، ويكلمهم بكل شىء آمره به ، ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا الذى أنتقم منه ، فأما النبى الذى يجترىء علىَّ بالكبرياء ويتكلم باسمى بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليُقتل ، وإذا أحببت أن تميز بين النبى الصادق والكاذب فهذه علامتك ، إن ما قاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لاتخشاه »

٢ - تبشير الإنجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم

بشر عيسى عليه السلام قومه فى الإنجيل (بالفار قليط) ومعناه

قريب من محمد أو أحمد و يصدقه فى القرآن قوله تعالى فى سورة الصف :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾

وسبق ذكرها فى ختام قصة سيدنا عيسى .

وقد وصف المسيح عليه السلام هـذا (الفارقليط) بأوصاف لا تنطبق إلّا على نبينا عليه الصلاة والسلام فقال : إنه يوبخ العالم على خطيئته ، و يعلمهم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل مايسمع ! وهٰذا ماورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم

٢ — الدور الثانى (من النبوة إلى الهجرة)

نزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم

و بدء النبوة

لما بلغ عليه السلام سن الكمال وهو (أربعون سنة) أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والعرفان ، وكان ذلك فى أول فبراير سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح عليه السلام ، كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكى ، ونزل عليه الوحى كما سيأتى :

كيف كان بدء الوحى ؟ (كما ذكر فى البخارى)

سأل الحرث بن هشام رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحياناً يأتينى مثل صَلْصَلَة الجرس وهو أشدُّه علىَّ فيفصم عنى ، وقد وَعَيْتُ عنه ما قال : وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول :

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته يَنْزِل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

وقالت عائشة أم المؤمنين : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرُّؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار (حِراء) فيَتَحَنَّثُ فيه ، وهو التعبد فى الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله وكان يتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار (حِراء) .

فجاءه الملك فقال : أقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : أقرأ . فقلت ما أنا بقارىء ؛ فأخذنى فغطنى الثالثة ثم فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾[1].

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على (خديجة بنت خويلد) رضى الله عنها فقال : زملونى ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلاَّ والله ما يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرَّحم ، وتحملُ الكَلَّ ، وتكسبُ المعدوم ، وتَقرى الضَّيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به (ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزى) ابن عم خديجة ، وكان امرأً تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب وكان شيخًا كبيراً قد عَمى . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا الناموس (الشريعة) الذى أنزَل الله على موسى ياليتنى فيها جذعاً (شابًّا جلداً) ياليتنى أكون حيًّا إذ يُخرجك قومُك

---

(١) وحدث التاريخ بأن مجىء الملك إليه صلى الله علية وسلم كان فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان من السنة الحادية والأربعين من مولده ، وكذلك فى مثل هذا اليوم وقعة (بدر) وسمى يوم الفرقان ، اقرأ : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » فما ذكر فى التاريخ استنبطه بعض أهل العلم من هذه الآية

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوَ مُخرجيَّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلَّا عُودِيَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى .

فترة الوحى

فترة الوحى مدَّة لم يتفق عليها المؤرخون ، وأرجح أقوالهم فيها أربعون يوماً ليشتد شوق الرسول للوحى ، وقد كان ، فإن الحال اشتدت به عليه السلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بدا له أن يرمى نفسه منها حذراً من قطيعة الله بعد أن أراه نعمته الكبرى وهى اختياره لأن يكون واسطةً بينه وبين خلقه ، فيتبدى له الملك قائلاً : أنت رسول الله حقاً ليطمئن خاطره ، ويرجع عما عزم عليه ، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نور الدين فعاد إليه الوحى .

عود الوحى

عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال فى حديثه : بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على

كرسى بين السماء والأرض فرُعبتُ منه فرجعتُ فقلت : زملونى ؛ فأنزل الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ أى حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى لا تشرك مع ربك فى ذلك غيره ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ لتكون مستعدًّا للوقوف بين يدى الله ، إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون نجساً مستقذرًا ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ أى اهجر أسباب الرجز ، وهو العذاب ، بأن تطيع الله وتنفذ أمره ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ أى لاتهب أحداً هبةً وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب له أكثر مما وهبك ، فهذا ليس من شأن الكرام ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ أى اصبر على ما سيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى توحيد الله ، فحمى الوحى وتتابع

الرد على منكر الوحى مناماً

وقد قال المرحوم البوصيرى لمن ينكر الوحى :

« لا تُنكِرِ الوَحْىَ مِنْ رُؤْيَاهُ إِنَّ لَهُ ... قلباً إِذَا نَامَتِ ٱلْعَيْنَانِ لَمْ يَنَمِ »

« وذاكَ حين بلوغ من نُبوَّته ... فَلَيْسَ يُنكَرُ فيهِ حَالُ مُحْتَلِمِ »

« تَبَارَكَ ٱللهُ ما وَحىٌ بمكتَسَب ... ولا نَبِىٌّ على غيبٍ بمُتَّهَمِ »

أى لاتنكر أيها المعاند وقوع الوحى إليه صلى الله عليه وسلم فى منامنه فإنه إذا نامت عيناه فلا ينام قلبه ، كما صح فى حديث الصحيحين عنه أنه قال : إن عينىّ تنامان ولا ينام قلبى

ورؤياه الوحى وقت وصوله إلى النبوة ، وذلك على رأس أربعين سنة من مولده صلى الله عليه وسلم ، وهذا الزمان لاتنكر فيه رؤيا محتلم الوحى فى قومه

وليس الوحى مكتسباً لنبى من الأنبياء ، وليس نبى بمُتَّهم فيما يخبر به عن غيب ، فإن جميع الأنبياء (صلوات الله عليهم) معصومون من الزلل

إثبات الوحى المحمدى

مما يؤيد ويثبت نزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم فى بدء نبوته ما جاء فى القرآن الكريم ، وهو القول الفصل القطعى الذى لاينهض لمعارضته أحد ، قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى

صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ الشورى

أى ما كان لإنسان أن يكلمه الله كما يكلم بعضكم بعضاً بكلام مسموع من طريق التموجات الهوائية ؛ بل يكلمه وحياً ، أى من طريق الوحى ، بأن يلقى فى قلبه ما يشاء إلقاءه إليه ، أو أن يكلمه من وراء حجاب ، أو يرسل له ملكاً يبلغه مراده ، لأنه متعال عن صفات المخلوقين ، حكيم يفعل بمقتضى الحكمة ، فيؤدى مراده على أحكم الأساليب ، وكذلك فعلنا معك يامحمد ، فأوحينا إليك قرآناً من أمرنا هو بمثابة الروح تحيابه القلوب ما كنت تدرى يامحمد ما الكتاب ، وما الإيمان ؟ ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى طريق قويم ، طريق الله الذى له كل ما فى الوجود ، يتصرف فيه بما تقتضيه حكمته العاليه ثم إليه ترجع أمور العالم بارتفاع الوسائط والتعلقات

ثم قال فى سورة أخرى :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ القصص

أى ما كنت ترجو ولا تؤمل يا محمد أن يلقى إليك الكتاب من وحى ربك فتكون نبياً رسولاً ؛ ولكنه ألقى إليك رحمةً من ربك وفضلاً عليك وعلى عباده ، فلا تكونن معيناً للكافرين ، ولا يمنعك الكفار يا محمد من تلاوة آيات الله ، والعمل بها بعد إذ أنزلت إليك ، وادع إلى عبادة ربك وتوحيده ، ولا تكونن من المشركين به

بيان أن الوحى لم يكن قاصراً على محمد ؛ بل كان للأنبياء عامَّةً

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد : يا محمد ، إنا أوحينا إليك ، أى أنزلنا إليك بالنبوة ، كما أوحينا إلى النبيين الذين تقدموك ، وهم: نوح ، وإبراهيم وإسماعيل ، وإسحٰق ، ويعقوب ، والأسباط ، وعيسى ، وأيوب ، ويونس وهارون ، وسليمان ، وآتينا داود الكتاب (المسمى زبوراً)

وقد أرسلنا إلى الأمم رسلاً آخرين غير من ذكرنا : منهم مَنْ أخبرناك عنهم ، ومنهم مَن لم نخبرك عنهم ، وكلّم الله موسى تكليماً أى وخاطب الله موسى بكلامه خطاباً

وجميع هؤلاء الرسل جاءوا مبشرين للذين آمنوا بالله ورسله بالجنة ، ومنذرين للكافرين بالله ورسله بالنار ، لئلا يكون للناس على الله حجةٌ فيقولون : لو كنت أرسلت إلينا رسولاً لآمنا ؛ وكان الله عزيزاً حكيما ، أى لم يزل ذا عزة فى انتقامه ممن خالفه وعصاه ، حكيماً فى تدبير أموره

وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ النساء

الآيات الدالة على صدق نبوته ، صلى الله عليه وسلم ، وإثبات رسالته

ودعوته للناس عامة

إن الأدلة القاطعة ، والحجج البالغة ، على صدق نبوة محمد صلى عليه وسلم ، وإثبات رسالته ، ودعوته عامةً للناس ، هى واضحة جلية فى القرآن الكريم ، وهى كثيرة جداً ، ويكفى أن نذكر منها بعض الآيات الآتية مع شرح كل آية منها :

١ — ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ الأحزاب

يقول الله تعالى ذكره : أيها الناس ، ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنه رسول الله ، وخاتم النبيين ، الذى ختم النبوة به ، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة ، وكان الله بكل شىء من أعمالكم ذا علم لا يخفى عليه شىء منها

٢ — ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سبأ

يقول الله تعالى ذكره : وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك (قريش) خاصّة ؛ ولكنا أرسلناك للناس عامّة ، العرب منهم والعجم ، والأحمر والأسود ، بشيراً تبشر بالثواب وحسن الجزاء مَن أطاعك ، ونذيراً تنذر بالعقاب وسوء العذاب مَن كذبك ؛ ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر

٣ — ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الفتح

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على أمتك بما أجابوك ، فيما دعوتهم إليه مما أرسلتك به إليهم من شريعة ، ومبشراً لهم بالجنة إذا أجابوك إلى ما دعوتهم إليه من الدين

القيم ، و نذيراً لهم تنذرهم بعذاب الله إن هم أعرضوا وتولوا عما جئتهم به من عند ربك ؛ وأنتم أيها الناس قد أرسلنا إليكم هذا الرسول الكريم لتؤمنوا بالله ورسوله ؛ ولتطيعوا الله ، وتوقروه وتعظموه ، وتصلوا له بالغدوات والعشيات ، أى فى الصباح والمساء

٤ — ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ الأحزاب

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمد إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ، بإبلاغك إياهم ما أرسلناك به من الشريعة والدين ، ومبشراً لهم بالجنة إن هم صدقوك وعملوا بما جئتهم به من عند ربك ، ونذيراً لهم بالنار أن يدخلوها فيعذبوا بها إن هم كذبوك وخالفوا ما جئتهم به من عند الله ، وداعياً إلى توحيد الله ، وإقرار الألوهية له ، وإخلاص الطاعة لوجهه ، دون كل من سواه من الآلهة والأوثان ، كل ذلك بأمره إياك ، وسراجاً منيراً ، وضياء لخلقه يستضيئون بالنور الذى آتيتهم به من عند الله

و بشر يا محمد أهل الإيمان بالله بأن لهم من الله ثواباً عظيماً ، وفضلاً كبيراً

على طاعتهم إياه ، ولا تطع قول كافر ولا منافق ، فتسمع منه دعاءه إياك إلى التقصير فى تبليغ رسالات الله إلى مَن أرسلك بها إليه من خلقه ، وأعرض عن أذاهم لك ، واصبر عليه ، ولايمنعك ذلك عن القيام بأمر الله فى عباده ، والتعود لما كلفك به ، وفوض إلى الله أمورك ، وثق بأنه يكفيك جميع من دونه ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، وحسبك بالله وكيلاً وقيماً بأمورك ، وحافظاً لك من أذى أعدائك

٥ — ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ الفتح

يقول الله تعالى ذكره : هو الذى أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالبيان الواضح ، ودين الحق ، وهو الإسلام الذى أرسله داعياً خلقه إليه ليظهره على سائر الأديان ، ليبطل به الملل كلها ، حتى لايكون دين سواه ، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى بن مريم ليقتل المسيح الدجال ،

فحينئذ يُبطل الأديان كلها غير دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويظهر الإسلام على الأديان كلها ، وأشهدك يا محمد على ذلك وحسبك بالله شاهداً

ويقول تعالى ذكره : محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه أشداء على الكفار ، غليظة عليهم قلوبهم ، قليلة بهم رحمتهم ، رفيقة قلوبهم بعضهم لبعض ، لينة أنفسهم ، هينة عليهم تراهم ركعاً أحياناً لله فى صلاتهم ، سجداً أحياناً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، فيدخلهم جنته ، وعلامتهم فى وجوههم من أثر السجود فى صلاتهم

وهذه الصفة التى وصف بها أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذين معه ، وهى أيضاً صفتهم فى التوراة وفى الإنجيل ، صفة زرع أخرج نباته ثم يكثر وينمو ، فهم كذلك حينما دخلوا فى الإسلام كانوا قليلى العدد ، ثم أخذوا يتزايدن ، ويدخلون فى دين الله أفواجاً ، جماعةً بعد جماعة ، حتى كثر عددهم ، ليغيظ الله بهم الكفار ، كما أن الزرع يبتدئ قليلاً ضعيفاً ثم يقوى ويغلظ ، ويستقيم فى عوده ، فيعجب الزّراع

وهذا مثل ضربه الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فيه يقول :

بعث النبى صلى الله عليه وسلم وحده ، ثم اجتمع إليه ناس قليلون يؤمنون به ، ثم يكون القليل بعد ذلك كثيراً ، ويستغلظون ليغيظ بهم الكفار

وقد وعـد الله الذين آمنوا ، وصدقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم به الله من فرائضه التى أوجبها عليهم ؛ عفواً ومغفرةً عما مضى من سالف ذنوبهم ، وسيئ أعمالهم ، ووعدهم ثواباً جزيلاً ، وذلك هو الجنة

الأمر بتبليغ الرسالة واتباع كتاب الله

أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بإبلاغ قومه واليهود والنصارى من أهل الكتاب ما أنزل إليه من ربه قائلاً له : يا محمد بلّغ ما أنزل اليك من ربك ، فإن تركت ذلك ولم تفعل وكتمت شيئاً من الرسالة كنت كأنك لم تبلغها

ثم آمنه وطمأنه على حياته وقال له : لاتخف على حياتك من مواجهة هؤلاء القوم بما ينكرونه ، فإن الله حافظك وعاصمك من إيذائهم ، وإن الله لا يوفق للرشد من حاد عن طريق الحق ، وجحد ما جئته به من عند الله ، ولم ينته إلى أمر الله وطاعته ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة

ثم قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . واتبع يا محمد ما أنزل

إليك من كتاب ربك ، واستمر على تلاوته ، واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه ، والعمل بحلاله وترك حرامه ، واعلم بأنه لا مغير ولا مبدل لكلماته التى أنزلها عليك ، وأنت يا محمد لن تجد من دون الله ملجأً ؛ لأن قدرة الله محيطة بك ، وبجميع خلقه ، لا يقدر أحد على الهرب من أمر ربه

وذلك قوله تعالى :

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ الكهف

ثم أمره بالتقوى والطاعة بأداء فرائضه وواجب حقوقه ، والانتهاء عن محارمه ، وعدم مجاوزة حدوده ، وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين الذين يظهرون الإيمان بالله وهم أشداء أعداء الله ، وأعداء رسوله ، والله عليم بما تكنه نفوسهم ، وما تنطوى عليه أخلاقهم ، حكيم فى تدبير أمره على جميع خلقه

كما أنه أمره باتبع ما أوحاه إليه من القرآن ، والعمل بما فيه من الأوامر والنواهى ، والله خبير بأمور عباده لا يخفى عليه شىء منها ، وهو مجازيهم عليها بما وعدهم من الثواب والعقاب ؛ وذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ الأحزاب

قيامه بتبليغ الرسالة والدعوة

قام عليه الصلاة والسلام بأعباء الرسالة والتبليغ امتثالاً لأمر ربه ، يدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده ، وترك عبادة الأصنام ، وحيداً فريداً ، لا جند ينصره ، ولا معين يؤازره ، وما هو إلا وحى الله تعالى يُمِدُّه ، وتوفيقه يسدده ، وعنايته تؤيده ؛ والحال أن فى أهل الكفر قوة تامة ، وتعصباً عليه ، وامتناعاً عن اتباعه ، ومع ذلك كان لا يخاف فى الله لومة لائم ، وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« ثم قام النبىُّ يدعو إلى اللـــه وفى الكفر نجدة وإباءُ »

« أمماً أشربت قلوبهُم الكفـــر فداءُ الضلال فيهم عَياءُ »

أى أخذ عليه السلام يدعو أقواماً تمكن من قلوبهم حب الكفر ، حتى صاروا لا يقبلون غيره ، فصاروا كالداء العضال الذى لا يرجى شفاؤه ، أخذ يدعو أقواماً فيهم جفاء وغلظة ، اتبعوا ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأوثان ، وامتنعوا عن عبادة الرحمٰن

الدعوة سرًّا ، وأول من أسلم

قام عليه الصلاة والسلام فى أول أمره يدعو الناس سراً حذراً

من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا ، فيصعب استسلامهم إليه ، فأخذ يدعو إلى عبادة ربه ، ويرشدهم إلى النور الذى جاء به ، وترك عبادة الأصنام التى لاتنفع ولا تضر ، وترك المعاصى التى كانوا يفعلونها من شرب الخمر ، وقتل الأولاد ، والكذب والخيانة ، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة التى تسبب الخلاف والنفور والحروب ، فأجاب دعوته ذوو العقول السليمة منهم وبادروا بتصديقه

وكان أول من سطع نور الإسلام على قلبه (السيدة خديجة بنت خويلد) زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وعلى بن أبى طالب كرّم الله وجهه ، ونفر ممن كانوا يحبون الحق ، ولم يداخلهم الحقد والحسد ، ولم يصدهم عناد ولا استكبار كزيد بن حارثة وغيره من السابقين الأولين

فكان أبو بكر الصديق صديق الرسول ، يدعو للإسلام مَن يثق به من رجال قريش ، فأجابه جمع منهم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو ذر الغفارى ، وغيرهم من أشراف قريش . ولم يكن مع رسول الله سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين ، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم ، وذوى الثروة منهم ، ويتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولسان حالهم يقول ما قاله البوصيرى رحمه الله فى قصيدته :

« وَرَأَينَا آياتِهِ فَاهْتَدَينَا وإذا الحَقُّ جَاءَ زَالَ المِرَاءُ »

الدعوة جهراً

وبعد ثلاث سنين من رسالته عليه الصلاة والسلام أمره الله سبحانه وتعالى أن يجهر بالدعوة ، فأنزل عليه قوله تعالى :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الحجر

أى بلغ يامحمد قومك ماأرسلت به ، وكف عن حرب المشركين بالله وقتالهم ، وذلك كان قبل أن يفرض الله عليه جهادهم ومحاربتهم ، ثم نسخ فيما بعد بقوله تعالى :

﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ التوبة

فصدع عليه الصلاة والسلام بالأمر ، وبدّل الدعوة سراً بالدعوة جهراً ، ممتثلاً أمر ربه واثقاً بوعده ونصره ، فصعد على جبل الصفا ، وجعل ينادى : يابنى فهر ، يابنى عدى ، لبطون قريش ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر ، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب وقريش ؛ فقال عليه الصلاة والسلام ،

« أرأيتم لوأخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟

قالوا : نعم ماجربنا عليك كذباً

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد

فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا اجتمعنا ؟ فأنزل الله فى شأنه :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ المسد

ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء

أى أنذر يامحمد عشيرتك من قومك ، الأقربين إليك ، وحذرهم من عذاب الله

فلما نزلت هـذه الآية قام رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالأبطح) وقال : يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يابنى قصى ، ثم أخـذ يدعو قريشاً قبيلة قبيلة حتى أتى على آخرهم وقال لهم :

إنى أدعوكم إلى الله ، وأنذركم عذابه

ولما بدأ بأهل بيته وعشيرته ، شقّ ذلك على المسلمين ، فأنزل الله تعالى عليه :

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء

أى ألِن جانبك وكلامك لمن اتبعك من المؤمنين

ثم أنزل عليه قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الشعراء

أى إن عصتك يا محمد عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بإنذارهم وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان ، والإشراك بالرحمٰن ، فقل لهم : إنى برىء مما تعملون من عبادة الأصنام ، ومعصية بارىء الأنام ، وتوكل على الله العزيز فى نقمته من أعدائه ، الرحيم بمن أناب إليه ، وتاب عن معاصيه ، الذى يراك حين تقوم إلى صلاتك تركع وتسجد ، وإنه سميع لتلاوتك ، وذكرك فى صلاتك ، عليم بما تعمل فيها

فجمعهم عليه السلام وقال لهم : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غررت بالناس جميعاً ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصةً وإلى الناس كافةً ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثنّ كما تستيقظون ، ولتحاسبنّ كما تعملون ، ولتجزونّ بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً . فتكلم القوم كلاماً ليناً غير عمه أبى لهب الذى كان خصماً لدوداً فإنه قال: خذوا على

يديه قبل أن تجتمع العرب ، فإن أسلمتموه إذاً ذللتم وإن منعتموه قتلتم ؛ فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا ، ثم انصرف الجمع

ثم نزل عليه قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد هـذه الدعوة التى أدعو إليها ، والطريقة المثلى التى أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان ، والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته ، هى سبيلى ، وطريقتى ، ودعوتى ، أدعو إلى الله وحده لاشريك له وأنا على بصيرة ونور من ذلك ، ويقين وعلم منى به ، أنا ومن صدقنى وآمن بى

وقل — تنزيهاً لله وتعظيماً له — : حاشا أن يكون له شريك فى ملكه ، أو معبود سواه فى سلطانه ، وأنا برىء من أهل الشرك ولست منهم وليسوا هم منى

دعوته صلى الله عليه وسلم سِلْمِيَّة

أساسها الدليل والبرهان

كانت دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الدين سِلْمِيَّة أساسها الدليل والبرهان وصحة مايدعو إليه لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ يونس

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ولو شاء ربك يامحمد لجعل الناس جميعاً مؤمنين ، فيصدقون أنك لى رسول ، وأن ما جئتهم به ، وما تدعوهم إليه من توحيد الله وإخلاص العبودية له حق ؛ ولكن لايشاء ذلك ؛ لأنه قد سبق فى قضاء الله قبل أن يبعثك رسولًا أنه لا يؤمن بك ولا يتبعك فيصدقك بما بعثك الله به من الهدى والنور إلاّ مَن سبقت له السعادة فى الكتاب الأول قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهن

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى أخبره الله تعالى أنه لايؤمن من قومه إلا مَن قد سبق له من الله السعادة فى الكتاب الأول ، ولايضل إلّا مَن سبق له من الله الشقاء ؛ ثم يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى عليه وسلم : انه لن يؤمن بك ،

ويصدقك يامحمد ، ولن يتبعك ويقرّ بما جئت به إلا من شاء ربك أن يصدقك ، لا بإكراهك إياه ، ولا بحرصك على ذلك . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بك ، مصدقينَ بما جئتهم به من عند ربك ؟

ولذا قال الله تعالى له فى تبليغ الرسالة : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الحجر

ثم قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ يونس

يقول الله تعالى لنبيه : وما كان لنفس خلقتها من سبيل إلى تصديقك يا محمد إلا بأن آذن لها فى ذلك ، فلا تجهدن نفسك فى طلب هداها وبلّغها وعيد الله ، وعرّفها ما أمرك ربك أن تعرفها ، ثم خلّها فإن هداها بيد خالقها ، ويجعل الرجس (وهو العذاب وغضب الله) على الذين لا يعقلون حجج الله ، ومواعظه وآياته ، التى دلّ بها جلّ ثناؤه على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحقيقة ما دعاهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الأصنام والأوثان

ثم قال الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ البقرة

نزلت هـذه الآية فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له (الحصين) كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلاً مسلماً ، فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرههما ، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه هذه الآية

والمعنى ـ بما أنه قد وضح الحق من الباطل ، واستبان لطالب الحق والرشاد وجه مطلبه ، فتميز من الضلالة والغواية ، فلا تكرهوا من أهل الكتابين ، ومَن أبحت لكم أخذ الجزية منه على دينكم ، دين الحق ، فإن حاد عن الرشاد بعد استبانته له ، فإلى ربه أمره ، وهو ولى عقوبته فى معاده ، ثم قال الله تعالى :

﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ البقرة

المعنى ـ من يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر بالطاغوت (كل ذى طغيان على الله يعبد من دونه) ويؤمن ويصدق بالله أنه إلهه وربه ومعبوده فقد تمسك بأوثق مايتمسك به من طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله وعقابه

معارضة العرب لقبول دعوته ، ومعاداتهم له ، وحقدهم عليه

لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة كما أمره ربه سَخِرت منه قريش ، واستهزأوا به فى مجالسهم ، فكان إذا مرَّ عليهم يقولون : هٰذا (ابن أبى كبشة) يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، لا يزيدون على ذلك

فلما عاب آلهتهم ، وسفه عقولهم ، وقال لهم : يا قوم لقد خالفتم دين أبيكم إبراهيم ، ثارت فى نفوسهم حميةُ الجاهلية ، غيرةً على تلك الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم ، فذهبوا إلى عمه (أبى طالب) سيد بنى هاشم الذى أخذ على نفسه حمايته من أيدى أعدائه ، فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه ، أو يكفه عما يقول ، فردّهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يريده من الدعوة ، لا يصده عن مراده شىء ، فتزايد الأمر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحثّ بعضهم بعضاً على ذلك ، ثم توجهوا إلى أبى طالب مرةً أخرى وقالوا له :

إن لك سنًّا وشرفاً ومنزلةً منا ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم ينته ، وإنّا لا نصبر على هذا ، من شَتْمِ آبائنا ، وتسفيه عقولنا ، وعيب آلهتنا

وكان عليه الصلاة والسلام إذا احتجوا بالتقليد فى استمرارهم على عدم اتباع الحق ، ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له ، وذكر لهم قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

البقرة

وقول الله تعالى أيضاً :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

المائدة

وقوله تعالى أيضاً :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ لقمان

وقوله تعالى فى بيان حجتهم الداحضة :

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾

الزخرف

ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم فى هذه الأقوال والمعارضة الدالة على التعصب والعناد تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ الزخرف

فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جرّ ذلك إلى وصف آبائهم بعدم العقل ، وعدم الهداية ، فهاج ذلك غضبهم ، وزاد فى أضغانهم ، وقالوا لأبى طالب : إما أن تكفه ، أو ننازله القتال ، و إياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ؛ ثم انصرفوا

فعظم على أبى طالب فراق قومه ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال له : يابن أخى ، إن القوم جاءونى فقالوا كذا ، فأبق على نفسك ، ولاتحملنى من الأمر ما لا أطيق

فظن الرسول أن عمه خاذله فقال :

« والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما فعلت ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

ثم بكى وولى ، فقال أبو طالب : يابن أخى ، فأقبل عليه

فقال : اذهب فقل ما أحببت ، والله لا أسلمك .

ثم أخذ الكافرون يدعون الدعوات الباطلة و يعارضونه فيما جاء به

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ الفرقان

أى وقال الكافرون : إن هٰذا القرآن اختلاق افتراه محمد ، وأعانه عليه اليهود أو غيرهم ، بقراءتهم عليه ما سطره الأقدمون صباحاً ومساء ، وهو ينقلها بلسانه ، ويكسبها الطلاوة ببيانه ، فما أجهل هؤلاء الكفار ! لقد ارتكبوا بقولهم هذا ظلماً وزوراً

فقل لهم يا محمد : قد أنزل القرآن عالم الخفيات فى السمٰوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ، فلذلك لم يعجل لكم العقوبة على ما تقولون

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً ﴾ الفرقان

أى قالوا : ما لهذا الرسول يأكل كما نأكل ، ويمشى فى الأسواق ؟ هلا أنزل إليه ملك يعينه على مهمته ، أو يعطى له كنز فينفق منه على

سعة أو تكون له جنة يأكل منها بلا كدّ ولا نصب ؟

وقال هؤلاء الكفار الظالمون : ماتتبعون إلا رجلاً اختل عقله بسبب سحر أصابه

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فصلت

أى ، وقال الذين كفروا بالله ورسوله من مشركى قريش : لا تسمعوا لهذا القرآن ، ولا تصغوا له ، ولا تتبعوا ما فيه ، والغطوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه ، واجحدوا به وأنكروه ، وتحدثوا وصيحوا كى لا تسمعوا لعلكم بفعلكم ذلك تصدون مَن أراد استماعه عن استماعه فلا يسمعه ، وإذا لم يسمعه ولم يفهمه لم يتبعه ، فتغلبون بفعلكم هذا محمداً

ثم قال الله جلّ ثناؤه : « فلنُذيقن الذين كفروا » بالله من مشركى قريش الذين قالوا هذا القول « عذاباً شديداً » فى الآخرة ، ولنجزينهم على فعلهم هذا وغيره من أفعالهم بأقبح جزاء نظير أعمالهم التى عملوها فى الدنيا

ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت

أى يقول الذين جحدوا بهذا القرآن ، وكذبوا به لما جاءهم : إن هذا القرآن لكتاب عزيز بإعزاز الله ، وحفظه من كل من أراد له تبديلاً أو تحريفاً أو تغييراً من إنس وجن وشيطان مارد ، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أى إن الشيطان لا يستطيع أن ينقص منه حقاً ، ولا يزيد فيه باطلاً ، ولا يستطيع ذو باطل بكيده تغيير أو تبديل شىء من معانيه عما هو به ، فهو تنزيل من عند الحكيم ذى الحكمة بتدبير عباده ، وصرفهم فيما فيه مصالحهم ، المحمود على نعمه عليهم

مجادلة العرب ومحاجتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قام محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده وينهاهم عن عوائد وأخلاق قبيحة مضرة بمصالحهم ، ورثوها عن آبائهم أو زينها لهم الشيطان ، وأقبح عادة منها عبادة الأوثان والنيران والأحجار والأشجار ؛ وأمرهم بتوحيد الله ، واعتقاد اتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن صفات النقص

فعند ما سمع منه العرب هذه الدعوى العظيمة نفروا من قبول دعوته ، وعادوه أشد المعاداة ، وهجره منهم الأهل والخلان ، وكذبه الشيوخ والشبان ؛ ثم أخذوا فى مجادلته ومحاولته ، وجرّهم ذلك إلى طلب

الحجة منه ، وصار كل منهم يطلب برهاناً على صدق دعواه ؛ ويجتهد فى التعجيز له فى كل مايراه ، وهو صلى الله عليه وسلم يقيم لهم الأدلة الصادقة ، والحجج القوية ، ويجيب على مقترحات كل سائل

ومن أعظم الحجج التى استند عليها فى إثبات دعواه ، وجعل معظم اعتماده عليها ، ما تلاه عليهم من كتاب الله العزيز ، المشتمل على التصريح بأنه رسول الله تعالى حقاً إلى الناس كافةً ، وأنه صادق فى كل ما يبلغ عنه ، وهو متكفل ببيان الشريعة التى شرعها الله تعالى لهم ؛ فأخذ يتلو عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ الأحقاف

أى قل لهم يا محمد : ما كنتُ بدعاً من الرسل ، أى لست أنا أول رسول فى العالم ، أَوَلَمْ يسبقنى غيرى من الرسل حتى تستغربوا رسالتى ؟ ولستُ أدرى ماذا يفعل الله بى وبكم ، وما أتبع إلا ما يوحى إلىَّ من ربى ، وما أنا إلا منذر لكم ، أخوفكم من تماديكم فى ضلالكم ، بلسان عربى مبين ، ثم تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنى عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى

وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ الأنعام

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم من قومك ، إن الله نهانى أن أعبد الذين تدعون من دونه ، فلن أتبعكم على ما تدعوننى إليه من ذلك ، ولا أوافقكم عليه ولا أعطيكم محبتكم وهواكم فيه ، فإن فعلت ذلك فقد تركت محجة الحق ، وسلكت على غير هدًى ، ولصرت ضالاً مثلكم على غير استقامة

وقل لهم أيضاً يا محمد : إنى على ثقة من ربى ، ، وعلى بيان و برهان ، قد وضح لى من ربى من توحيده ، وما أنا عليه من إخلاصى فى عبوديته ، من غير إشراك شىء به ؛ أما أنتم فقد كفرتم بربكم ، وليس عندى ما تستعجلون به من نعم الله وعذابه ، ولست بقادر على ذلك ، وإن الذى يقضى الحق فيكم ، ويفصل بينى وبينكم ، هو الله الذى يبين المحق من المبطل ، وهو خير الحاكمين ، الفاصلين بين الحق والباطل

ثم تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأنعام

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين بنبوتك المعاندين لدعوتك : لستُ أقول لكم إنى أنا الرب الذى له خزائن السموات والأرض ، وإنى أعلم الأشياء الخفية التى لا يعلمها إلا علام الغيوب ، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فتكذبونني فيما أقول من ذلك ؛ لأنه لا ينبغى أن يكون رباً إلا مَن له ملك كل شىء ، وبيده كل شىء ، ولا يخفى عليه شىء ، وذلك هو الله الذى لا إله غيره

وإنى لا أقول لكم إنى مَلَك ؛ لأنه لا ينبغى لمَلَك أن يكون ظاهراً بصورته لأبصار البشر فى الدنيا ، فتبصروا فيما أقول لكم من ذلك

وما أنا إلا بشر ، أتبع فيما أقوله لكم وأدعوكم إليه وحى الله الذى يوحيه إلىّ ، وتنزيله الذى ينزله علىّ ، فأمضى لوحيه ، وآمر بأمره ، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله على صحة قولى

وهل يستوى الأعمى عن الحق والبصير به ؟ (والأعمى هو الكافر الذى قد عمى عن حجج الله فلا يتبعها ، والبصير المؤمن الذى قد أبصر آيات الله وحججه فاقتدى بها واستضاء بنورها)

أفلا تتفكرون أيها القوم فيما أحتج به عليكم من هذه الحجج ؟ فتعلموا صحة ما أقوله لكم ، وأدعوكم إليه من فساد ما أنتم عليه من الكفر ، واتباعكم ما كان عليه آباؤكم الأولون

فلم يعبأوا بقوله ، ولم يذعنوا لدعوته ، وقالوا : إنها نزعة من نزعات الجنون ، ، فرد الله عليهم بقوله :

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

نٓ

يقسم الله تعالى بالقلم الذى خلقه ، فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وهو أول ما خلق الله تعالى لكتابة القضاء والقدر .

ويقسم بما يسيطرون ، أى بالكتاب الكريم (القرآن) بأنك يا محمد ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، مكذباً بذلك مشركى قريش الذين قالوا له : إنك لمجنون . ويقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وإن لك يا محمد لأجراً غير ممنون ، أى إن لك ثواباً من الله عظيماً على صبرك على أذى المشركين إياك ، غير منقوص ولا مقطوع ، وإنك يا محمد لعلى أدب راق ، ذلك أدب القرآن الذى أدّبك الله به ، وهو الإسلام وشرائعه ، وسترى يا محمد ، ويرى مشركو قومك الذين يصفونك بالجنون ، أيُّكم المجنون ؟ فإن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله ، كضلال كفار قريش عن دين الله وطريق الهدى ،

وهو أعلم بمن اهتدى فاتبع طريق الحق والهدى كما اهتديت أنت يامحمد فاتبعت الحق

الاحتجاج على المشركين

وتحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بالقرآن

نزل القرآن الكريم تأييداً لدعوته ، وشاهداً بصدق رسالته ، كما مرّ ذكره ، فلما رأى شدة العناد والمجادلة من العرب ، وكان فيهم الخطباء والشعراء يعقدون للقول المجامع ، ويقيمون الأسواق فيفاخرون ويناضلون ، وكانوا ذوى أنفة وغيرة واستكبار ، يأبون الضيم ، وينفرون من الصغار ، وكانوا يحرصون كل الحرص على التغلب على رسول صلى الله عليه وسلم وإبطال دعواه ، ومع ذلك دعاهم بأمر الله تعالى إلى المعارضة ، وأغراهم بالمناهضة ، فتلا عليهم قول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

البقرة

هذا احتجاج من الله عزّ وجلّ لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على مشركى

قومه من العرب ومنافقيهم ، وكفار أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فيقول الله تعالى لهؤلاء المشركين : إن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتاب فى شك مما نزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من النور والبرهان وآيات الفرقان أنه من عندى ، وأنى أنا الذى أنزلته إليه فلم تؤمنوا به ، ولم تصدقوه فيما يقول ، فأتوا بحجة تدفع حجته ، وأتوا بسورة من مثله ، يعنى من مثل هذا القرآن حقاً وصدقاً ، لاباطل فيه ولا كذب ، من كلامكم أيها العرب ، كما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم بلغتكم ، وادعوا أعوانكم على ما أنتم عليه ، إن كنتم صادقين فى زعمكم ، فإن لم تأتوا بسورة من مثله — ولن تقدروا على الإتيان بها — فاتقوا عذاب النار بتكذيبكم رسولى بما جاءكم به من عندى ، تلك النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر

ولقد كان لهم أن يجمعوا من البلغاء والفصحاء مَن شاءوا كما كانوا يجتمعون للمباهاة والمباراة بالقول ، فيأتوا بشىء من مثل ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ليبطلوا حجته ، وليبرئوا أنفسهم من عار الغلب ، ويصونوا دماءهم التى سفكها عنادهم ، واستكبارهم ، لو كانوا يستطيعون

ثم لما قالوا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم افترى هذا القرآن ، أمر الله محمداً أن يقول لهم :

« إن كنت افتريته وتخرجته على الله كذباً ، فلا تقدروا أن تدفعوا عنى إن عاقبنى الله على افترائى إياه ، وربى أعلم بما تقولون بينكم فى هذا القرآن ، وكفى بالله شهيداً علىّ وعليكم ، بما تقولون من تكذيبكم لى فيما جئتكم به من عند الله ، الذى يغفر الذنب لمن تاب ، ويرحم من أناب ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الأحقاف

ثم خاطب العرب الذين قالوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم افترى هذا القرآن ، فقال تعالى لهم :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يونس

أى إن هذا القرآن ليس مما يمكن أن يفترى افتراء من الخلق ، ولكن الله أنزله تصديقاً لما تقدم من الكتب ، وتفصيلاً لما تقرر من العقائد والأحكام ، لاشك فيه أنه تنزيل من رب العالمين

ويقول الله لهم : إن صح زعمكم أن هذا الكتاب مما يمكن افتراؤه ، فأتوا بسورة مثله ، واستعينوا بكل مَن تشاءون من أهل الفصاحة والحكمة إن كنتم صادقين فى زعمكم

عجز العرب عن معارضة القرآن

لم يستطع أحد من العرب الإتيان بسورة مثله ، فتحقق عندهم عجزهم عن معارضته ، ولو بأقصر سورة منه فأقروا بعجزهم بلسان الحال ؛ بل بعجز الإنس والجن ، وبأن ذلك دليل واضح على أنه من عند الله ، أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم معجزةً له تدل على تصديقه وذلك

قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ الإسراء

يقول الله تعالى ذكره : قل يا محمد للذين قالوا إنك تأتى بمثل هذا القرآن لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون أبداً بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض عوناً وظهيراً ؛ لأن ذلك يعجزهم فلا يقدرون عليه ، وقال تعالى :

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

الحشر

يقول الله جلّ ثناؤه : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته يا محمد خاشعاً متذللاً متصدعاً من خشية الله على قسوته ، حذراً من ألاّ يؤدى حق الله المفترض عليه فى تعظيم القرآن

وقد أنزل على ابن آدم وهو بحقه مستخف ، وعنه وعما فيه من العبر والذكر معرض كأن لم يسمعها ، وكأن فى أذنيه وقراً

ويضرب الله هذا مثلاً من الأمثال للناس ، ليعرفهم أن الجبال أشد تعظيماً لحقه منهم ، مع صلابتها وقسوتها ، ليتفكروا فيها فينقادوا للحق

فعند ذلك صدّقوا جميعاً دعوىٰ محمد عليه السلام بإرساله ، واتبعوه فيما جاء به من عند الله ، وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله فى قصيدته :

« وتحدىٰ فارتاب كل مُريب أوَ يبقىٰ مع السيول الغُثاء »

« وهو يدعو إلى الإله وإن شـ ـق عليه كفرٌ به وازدراء »

« ويَدلُّ الورىٰ على الله بالتو حيد وهو الحجة البيضاء »

أى أنه عليه السلام طلب من كفار مكة أن يعارضوا ما جاء به شاهداً على نبوته وصدقه بإبداء نظيره ، وإلاّ كانوا كاذبين مدحوضين فعجزوا عن المعارضة وانقطعوا

تحداهم وهو لا ينى فى الدعاء إلى الإله المعبود بحق ، وإن شق عليه الكفر بالله ، والاستخفاف به ، ويدل الخلق على العلم بذاته وأسمائه وصفاته ، ويحملهم على الإقرار بوحدانيته ، وهو الطريق النيرة المضيئة التى لا يضل سالكها أبداً

الأذى

ما لقيه النبى صلى الله عليه وسلم من الأذى فى سبيل نشر الدعوة :

لما رأى الكفار أن المسلمين يزداد عددهم كل يوم أخذوا يسيئون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويسلطون عليه الأشرار منهم لإهانته وإيذائه هو ومَن آمن معه حتى أصابهم من ذلك شىء كثير ، فمن ذلك :

١ — أن أحد كفار قريش وعظمائهم واسمه (أبو جهل) أخذ مرة حجراً كبيراً ليلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتله ، فترقبه حتى دخل المسجد وشرع فى الصلاة ، فلما سجد همّ (أبو جهل) بإلقاء الحجر عليه ، فأنزل الله الرعب والخوف فى قلب (أبى جهل) فرجع مضطرباً ممتقع اللون وألقى الحجر من يده

٢ — أمر (أبو جهل) رجلاً أن يحضر (فَرْثَ جزور) مايخرج من بطن الجمل إذا ذبح فأحضره فألقاه على النبى وهو ساجد ، فلم يجسر أحد من المسلمين أن يرفعه عنه ، لقلتهم وخوفهم من كفار قريش ، حتى أتت

السيدة فاطمة (بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ورفعته عن أبيها

٣ ـ ومن جماعة المستهزئين برسول الله (أبو لهب بن عبد المطلب) عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أشد عليه من الأباعد ، فكان يرمى القذر على بابه ؛ لأنه كان جاراً له ، فكان الرسول يطرحه ويقول : يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه (أم جميل بنت حرب بن أمية) فكانت كثيراً ما تسب الرسول وتتكلم فيه بالنمائم ، وخصوصاً بعد ما أنزل الله فى تقبيح فعلهما ، وتوعدهما بالعذاب الشديد قوله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾

المسد

٤ ـ جاء رجل آخر يدعى (عقبة بن أبى معيط) فوضع ثوبه فى عنق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فخنقه بثوبه وهو يصلى ، حتى جاء سيدنا أبو بكر فدافع عنه وخلصه ودفعه عن النبى وقال :

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ غافر

٥ ـ لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة إيذاء قريش له واستهانتهم به خرج إلى قبيلة تسمى (ثقيف) يرجو منهم أن ينصروه

على قريش فردوه رداً سيئاً ، فأرسلوا خلفه سفهاءهم وخدمهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، وكذلك كانوا يفعلون مع أصحابه

فمن أوذىَ إيذاء شديداً من المسلمين .

١ — (بلال) مؤذن النبى عليه الصلاة والسلام كان مملوكاً لرجل من عظمائهم يسمى (أمية بن خلف) فكان يجعل فى عنقه حبلاً ويدفعه للصبيان يجرونه ، وكان يخرج به وقت الظهيرة إلى الرمل الشديد الحرارة الذى لو وضعت عليه قطعة من اللحم لنضجت ، ثم يضع على صدره صخرة عظيمة ويقول له :

لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد ، فيقول بلال : الله أحد ، الله أحد ولم يكفر ، ثم اشتراه منه أبو بكر وأعتقه

٢ — (عمّار بن ياسر) وأبوه وأمه وأخوه كانوا يعذبون بالنار ويلبسون دروع الحديد المحماة فى اليوم (القائظ) شديد الحرّ ، فما كان يزيدهم هذا العذاب إلا تمسكاً بالدين ، وكان الرسول يقول لهم : صبراً آل ياسر وبشرهم بالجنة

وقد عذب كثيرون غير هؤلاء بأنواع العذاب ؛ ولكنهم صبروا وثبتوا على دينهم ، فنصرهم الله على أعدائهم نصراً مؤيداً

وقد أخذت قريش تسخر منه ، وتؤذيه وتضيق عليه وهو مع قلة رجاله وماله لا يصده عن الدعوة إلى الإسلام شىء

وقد لَقِيَ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من الإهانة والإيذاء ما لَقِيهُ قبله الأنبياء والمرسلون والهداة المصلحون ، وهو مع ذلك ماض لشأنه ، يدعو قومه ، ويتلو عليهم ما يوحى إليه من ربه ، مبشراً مَن آمن به واتبع سبيله ، ومنذراً من خالفه وكذبه ، لا يثنيه إيذاء ، ولا يرهبه وعيد

وكان الله سبحانه وتعالى ينزل عليه من الآيات ، ما يقويه به على تحمل الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾

الأحقاف

حماية عمه أبي طالب له ، والسيدة خديجة زوجه

وكان عمه أبو طالب يدافع عنه ، ويحميه من غوائلهم ويميل إلى ما جاء به من الدين ، فلم يمنعه من إظهار الإسلام إلاَّ الحياء من قومه ولذا قال :

« ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا »

« لولا الملامة أو حذارى سُبَّة لوجدتنى سمحاً بذاك مبينا »

« والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسَّدفى التراب دَفينا »

ثم ازداد الحقد والعداء حين أسلم عمه حمزة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما

وكانا أشد المعارضين له ، فأعزّ الله بهما الإسلام ، وحمى بهما رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فاغتاظت قريش ، وصارت تعذب كل مَن آمن به أشدّ العذاب

وكانت زوجه (السيدة خديجة) رضى الله عنها أعظم مشجع له ، ومؤاس يعطف عليه ، ويثبته ، ويخفف عنه دفع ما يلاقى من الأذى من أعدائه

مكثه صلى الله عليه وسلم على هذه الحال

بمكة عشر سنوات

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة على هذه الحال يدعو إلى الله تعالى غير مبال بما يناله من أذى السفهاء من قومه وتكذيبهم له ، وعلى الرغم من ذلك كان المسلمون من قريش ومن غيرهم من العرب فى ازدياد يدخلون فى دين الله أفواجاً

مطالب كفار قريش

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعاً ؛ بل كلما زادوا المسلمين أذىً ازداد يقينهم ، اجتمعوا للشورى فيما بينهم ، فقال لهم (عتبة ابن ربيعة العشمى من بنى عبد شمس بن عبد مناف) وكان سيداً مطاعاً فى قومه : يا معشر قريش ، ألاَ أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً

علّه يقبل بعضها فنعطيه إياه ويكف عنا ؟

فقالوا : ياأبا الوليد قُم إليه فكلمه ، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى المسجد وقال : يابن أخى ، إنك مناحيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم؛ وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها

فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد أسمع ، فقال :

يابن أخى إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد مُلكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن لاتستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبيب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : لقد فرغت ياأبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا (إلى أن قال) : فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فصلت

فأمسك (عتبة) بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك

فلما رجع (عتبة) سألوه ، فقال : والله لقد سمعت قولاً ماسمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ؛ يا معشر قريش ، أطيعونى فاجعلوها لى خلواً بين الرجل و بين ما هو فيه . فاعتزلوه وقالوا . لقد سحرك محمد

فقال : هذا رأيى

ثم عرضوا عليه بعد ذلك صلى الله عليه وسلم أن يشاركهم فى عبادتهم و يشاركوه فى عبادته ، فأنزل الله فى ذلك :

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ الكافرون

فقال لهم ، لا تتوهموا أنى أجيبكم إلى طلبكم من الإشراك بالله

فلما يئسوا منه طلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان ، والوعيد الشديد ، فيأتى بقرآن غيره أو يبدله فأنزل الله جواباً لهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ يونس

ولما رأى المشركون أن هـذه المطالب التى يرفضونها لا تقبل منهم

أرادوا أن يدخلوا من باب آخر ، وهو باب تعجيز الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقالوا : نحن نطلب من محمد (عليه الصلاة والسلام) الإتيان بأمور تكون خارقةً للعادة المطردة فى هذا الكون ، فإن جاء بها يكون صادقاً فى دعواه ، فاجتمعوا وقالوا : يا محمد إن كنت صادقاً فأرنا آية نطلبها منك ، وهى أن تشقّ لنا القمر شَقين ، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين ، ورآه رأى العين حاضرهم وغائبهم ممن رأوه فى أمكنة بعيدة ، متحدة الأفق مع مكان الحاضرين ، فأخبر بأنه رأى انشقاقه مثل ما رأى الحاضرون

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا

وقد ورد ذكر هذه الحادثة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ القمر

فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال لهم (عتبة) : لقد سحركم ابن أبى كبشة

فأنزل الله فيهم :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ القمر

ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بها إلا التعنت والعناد والتعجيز ، فمنها أنهم قالوا له : لن نصدقك حتى تفجر لنا من أرضنا

هذه عيناً تنبع لنا لا ينضب ماؤها ، أو يكون لك بستان من نخيل وعنب فتجرى الأنهار خلالها أو تسقط السماء علينا كما زعمت (كِسَفاً) أى قطعاً ، أو تأتى بالله والملائكة يشهدون على صحة ما تقول لنا ، أو يكون لك بيت من ذهب ، أو ترقى فى معارج السماء ؛ ولا نؤمن ونصدق أنك صعدت إليها حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، يشهد لك بصدق نبوتك ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ الإسراء

فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ، الطالبين منك هذه الطلبات ؛ قل لهم : (هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً) أى هَل أنا إلا عبد من عبيد الله من بنى آدم ، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتمونى من هذه الأمور ؟ وإنما يقدر عليها خالقى وخالقكم ، وما أنا إلا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم

وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا ﴾ الإسراء

ثم قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لو أنزلت يامحمد عليك الكتاب ، أى الوحى الذى أنزلته مع رسولى فى قرطاس يشاهدونه ويلمسونه بأيديهم ، وينظرون إليه ، ويقرءونه معلقاً بين السماء والأرض بحقيقة ماتدعوهم إليه وصحة ما تأتيهم به من توحيدى وعبادتى لقالوا : (إن هذا إلا سحر ظاهر) أى الذى جئتنا به ما هو إلا سحر سحرت به أعيننا ليست له حقيقة ولا صحة ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ الأنعام

وقال هؤلاء المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هلاَّ أنزل الله معك ملكاً من السماء يخبرنا أنك نبي ، ويصدقك على ما جئتنا به ، ويشهد لك بحقيقة ما تدعى من أن الله أرسلك إلينا ؟

وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ الأنعام

فأجابهم الله على ذلك بقوله : ولو أنزلنا إليهم ملكاً فشاهدوه لقضى الله أمره فيهم بإهلاكهم ، ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء المشركين ملكاً لجعلناه فى صورة إنسان من البشر ؛ لأنهم لايقدرون أن يروا الملك فى صورته

الروحية ، ولحصل لهم التباس فى أمره ، فلم يدروا أملك هو أم إنس ؟ فلم يوقنوا به ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ الأنعام

استهزاء المشركين به

ثم قال الله لنبيه هوِّن عليك يا محمد ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك ، المستخفين بحقك ، وامض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدى ، فقد استهزأت أمم من قبلك برسل أرسلتهم إليهم بمثل الذى أرسلتك به إلى قومك ، وفعلوا مثل فعل قومك بك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون من العذاب الأليم ما لا قِبَل لهم به ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الأنعام

وقال تعالى :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الحجر

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إنا يا محمد كفيناك المستهزئين ، الذين يستهزئون بك ، ويسخرون منك ، فاصدع بما تؤمر أى بأمر الله ، ولا تخف شيئاً سوى الله ؛ فإن الله كافيك ومانع عنك من ناصبك العداء ، وآذاك كما كفاك المستهزئين

وكان رؤساء المستهزئين قوماً من قريش معروفين وهم : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وأبو زمعة ، والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن عطيلة

وقال الله تعالى :

﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يس

يقول الله تعالى ذكره : ياحسرةَ العباد على أنفسهم ، على ماضيعوا من أمر الله ، وفرطوا فى جنب الله مايأتيهم من رسول من الله إلا كانوا به يستهزئون فكان استهزاؤهم برسل الله حسرةً عليهم ، وويلاً لهم

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« وكفاه المستهزئين وكم سا ... ء نبياً من قومه استهزاء »

« ورماهم بدعوة من فناء السبيت فيها للظالمين فناء »

الهجرة الأولى إلى الحبشة

لما رأى عليه السلام شدة الأذى على أصحابه فى السنة الخامسة من

النبوة ، أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر أناس منهم لم يكن لهم عشيرة تحميهم ، أو قبيلة ترد كيد أعدائهم ، فراراً بدينهم من أن يفتنوا فيه ، وهى أول هجرة وقعت فى الإسلام بعد الرسالة ، ، وعدة أصحابها عشرة

رجال ، وخمس نسوة ، منهم سيدنا عثمان ، وزوجه رُقية (بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) وأبو سلمة وزوجه أم سلمة ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن مظعون ، والزبير بن العوام ، وكلهم من قريش ؛ ثم رجعوا بعد ثلاثة أشهر

أما النبى صلى الله عليه وسلم والكبار من الصحابة ، فبقوا بمكة ينشرون دين الله ، متحملين بقلب ثابت ، وصبر جميل ، ما كان يحل بهم من الأذى والضرر

وفى ذلك الوقت أسلم (حمزة) عم الرسول (وعمر بن الخطاب) الشهم الهمام العدوى القرشى ، بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم ، وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلاً وإحدى عشرة إمرأة ، وقال صلى الله عليه وسلم : اللهم أعز الإسلام بعمر ؟ وكان إسلامه فى دار الأرقم التى كان

المسلمون يجتمعون فيها

الهجرة الثانية إلى الحبشة

فى السنة السابعة أمر رسول الله أصحابه بالهجرة إلى الحبشة للمرة الثانية

وعدة أصحابها نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانى عشرة امرأة وكان ممن هاجر فى هذه الدفعة جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء وعبد الله بن مسعود

فلما رأت قريش استقرار المهاجرين فى الحبشة أرسلوا إلى ملكها (النجاشى) رسولين بهدايا وتحف أن يرد مَن هاجر إلى بلاده من المسلمين فأبى وردهما خائبين

ثم أسلم (النجاشى) ومَن معه من القسيسين والرهبان سنة سبع من الهجرة لما سمعوا سورة مريم، ثم مات (النجاشى) مسلماً وصلى عليه رسول الله لما أعلمه جبريل بوفاته

وهذه هى أصل صلاة الجنائز على الغائب

أما الذين بقوا بمكة من الصحابة فقد نالهم من الأذى مالا يمكن احتماله إلا لمن تمكن الإسلام من قلبه، واختلط بدمه ولحمه، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم

وفد نجران

فى السنة العاشرة من رسالته صلى الله عليه وسلم وفد على الرسول بعد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران، بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة فسارعوا بالقدوم عليه، حتى يروا صفاته مع ماذكر منها فى كتبهم، وكانوا عشرين رجلاً

أو قريباً من ذلك ، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم ، فقال لهم أبو جهل : ما رأينا ركباً أحمق منكم ، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم (أى خرجتم من دينكم)

فقالوا : سلام عليكم لانجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ، ولنا ما اخترناه ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾

القصص

وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة ، وبالكذب أخرى ، وبالجنون طوراً ، وبالكهانة أحياناً ، كل ذلك شأن العاجز المعاند الذى لايستحيى لمزيد عناده أن يقول :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا

حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الأنفال

وفاة زوجه السيدة خديجة وعمه أبى طالب

وفى السنة العاشرة المذكورة من رسالته صلى الله عليه وسلم أصيب بمصاب عظيم ، وهو وفاة زوجه السيدة خديجة ، وعمه أبى طالب فحزن عليهما حزناً شديداً ، حتى سمى عام وفاتهما (عام الحزن) وقد اشتد إيذاء كفار قريش له ولأصحابه بعد وفاة عمه ، ونالوا منهم ما لم ينالوا فى حياته ؛ ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى هذه المحنة الشديدة ، لا يخاطب الكفار إلا بالحسنى ، ولا يعاملهم إلا باللين ، ولا يغلظ فى القول لهم ؛ بل كان حليماً ، يدعو لهم بالهداية والتوفيق ، ويقول : اللّهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون

وكان لا يقابل الإساءة بمثلها ؛ بل يصفح عن المسىء ، ولا يحتقر أحداً من أصحابه فقيراً كان أو صغيراً ؛ بل كانوا عنده على السواء ، وكان منهم بمنزلة الوالد من أولاده ، ولذا تحملوا فى سبيله كل عذاب

هجرة الطائف

لما رأى عليه السلام استهانة قريش ، وزيادة طغيانهم وعدوانهم

خرج من مكة ومعه غلامه (زيد بن حارثة) إلى الطائف مستنجداً بأهلها (قبائل ثقيف) لأن له بهم قرابة ، فعرض عليهم الإسلام ، وطلب منهم نصرته ، حتى يتم أمر ربه ، ويبلغ رسالته ، فلم يجيبوا ؛ بل أخرجوه وسلطوا عليه الغلمان والسفهاء يؤذونه ويَرْمُونَه بالحجارة ، حتى أدموا وجهه ، وشجوا رأسه ، مع أن زيد بن حارثة كان يدافع عنه ويقيه بنفسه

فلما وصل إلى شجرة هناك قعد يستظل تحتها ، فرآه (ابنا ربيعة) على تلك الحال ، وهما فى بستانهما فرقّا له مع أنهما كانا من ألد أعدائه ، وأرسلا له قطفاً من عنب مع غلام لهما نصرانى اسمه (عدّاس)

فلما شرع يأكل منه قال عليه الصلاة والسلام : بسم الله الرحمن الرحيم

فقال الغلام : هذا الكلام ما يقوله أهل هذه الجهة

فقال النبى عليه السلام : مِن أى البلاد أنت وما دينك ؟

فقال : نصرانى من نينوى (بلد فى حدود العراق)

فقال عليه السلام : قرية الرجل الصالح (يونس بن متى) ؛

فقال الغلام : ومَن أعلمك بيونس بن متى ؟

فقال النبى عليه السلام : ذاك أخى ونبىّ مثلى ، ثم قرأ الآيات التى فيها قصة يونس فى (الصافات) السابق ذكرها فى الجزء الأول

فما سمع الغلام القرآن حتى أسلم

ثم نزل جبريل عليه السلام وقال : يا محمد إن الله أمرنى أن أطيعك بما تأمر فى قومك لما صنعوه معك

فقال عليه السلام : أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون)

فقال جبريل عليه السلام : صدق من سماك الرءوف الرحيم

ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن ، فلما سمعوه أنصتوا له ، ورجعوا إلى قومهم منذرين ، وأبلغوا خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم نزلت الآية الآتية :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الأحقاف

وقد قص الله قصة الجن بعبارة أطول فى سورة سميت باسمهم أولها :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ الجن

الإسراء والمعراج وفرض الصلوات الخمس

فى السنة الحادية عشرة من الرسالة

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وخمسين سنة أسرى به ليلة السابع والعاشرين من رجب ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (بيت المقدس) بجسمه وروحه الطاهرين كما اتفق عليه الصحابة والعلماء وصلى فيه بالأنبياء وعرج (صعد) به إلى السموات العلى ، فرأى ما رأى من آيات ربه الكبرى ، وفرض الله عليه وعلى أمته خمس صلوات فى اليوم والليلة ، ثم رجع من ليلته ، وأصبح يخبر قومه بما رأى وشاهد ، فصدقه بعض قريش ، وكذبه آخرون ، فأيده الله بالمعجزات التى طلبوها منه : منها وصفه بيت المقدس ما كان عليه وصفاً حقيقياً مع أنه لم يره من قبل ؛ ومنها إخباره عن حالة العير (الإبل التى تحمل التجارة) التى كانت لهم بالشام ، وعن عدد إبلها وقال لهم : ستقدم عليكم مع غروب شمس يوم كذا يقدمها جمل أورق (لونه بين البياض والسواد) فظلوا ينتظرونها حتى جاءت كما وصف ، فلم يزدادوا إلا كفراً وعناداً وقالوا : هذا سحر مبين

وبالإسراء والمعراج أكمل الله لرسوله الشرف على جميع أهل السموات والأرض ، وبلغ غاية الكمالات ، وارتقى أسمى الدرجات

وفى هذه القصة يقول الله تعالى فى سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الإسراء

وقال البوصيرى رحمه الله فى قصيدته الهمزية :

١ « فَطَوَى الأرض سائراً والسمـــوات العُلى فوقها له إسراء »

٢ « نصف الليلةَ التى كان للمخـــتار فيها على البُراق استِوَاء »

٣ « وترقى به إلى قاب قوسيـــن وتلك السيادة القَعساء »

٤ « رتب تسقط الأمانى حسرى دونهـا ما وراءهن وراء »

٥ « ثم وافى يحدِّث الناس شكراً إذ أتتهُ من ربه النَّعماء »

عرض نفسه على القبائل القادمين إلى مكة

فى موسم الحج

لما رأى عليـه الصلاة والسلام أن قريشاً تمنعه من تأدية رسـالة ربه عرض نفسه على القادمين إلى مكة فى موسم الحج من قبائل العرب ، وأخذ يقرأ عليهم القرآن الكريم ، ويطلب إليهم أن يسلموا ويمنعوا عنـه أذى قومه ، فلم يستجيبوا له

وقد أجابه صلى الله عليه وسلم ستة نفر من الخزرج إلى الإســلام ،

وهم من عرب يثرب (عرب المدينة) ووعدوه أن يبلغوا قومهم وقالوا له : إنا تركنا قومنا بينهم من العداوة ما بينهم ، فإن جمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل

وهذا هو بدء الإسلام لعرب يثرب وهم (الأوس والخزرج)

فلما رجعوا ذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم إلى الإسلام ، فانتشر الإسلام بينهم ، ولم يبق دار فى المدينة إلا وفيها ذكره صلى الله عليه وسلم

ولما كثر المسلمون من الأوس والخزرج فى المدينة بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه رجلاً يدعى (مصعب بن عمير بن هاشم القرشى) يقرئهم القرآن ، ويعلمهم أمر دينهم ، ويؤمهم فى صلواتهم

وقد دخل أهل المدينة فى الإسلام أفواجًا بعد إسلام (سعد بن مُعاذ) (وأسيد بن حضير) وهما سيدان من ساداتهم

قدوم كثير من أهل المدينة إلى مكة للحج

ومعاهدتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما كانت السنة الثالثة عشرة من البعثة قدم إلى مكة من أهل المدينة عدد كثير يريدون الحج ، فاجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً

خارج مكة ، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأة ، فأسلموا جميعاً ، وبايعوه عند (العقبة) وعاهدوه إن هو هاجر إليهم على أن يدافعوا عنه ، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم ، فكانوا أنصاره صلى الله عليه وسلم على أعدائه ، وفى هؤلاء الأنصار يقول الله تعالى بعد ذكر المهاجرين :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

الحشر

الدور الثالث ـ من الهجرة إلى الوفاة

هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة

لما بلغ عليه الصلاة والسلام ثلاثاً وخمسين سنة ، وأخذ الإسلام ينمو فى بعض القبائل ، واشتد إيذاء الكفار له ولأصحابه ، حتى رأى ما لم يره فى سابق حياته ، أمره الله تعالى بالهجرة من مكة إلى المدينة التى كان أسلم غالب أهلها ، فصدع بالأمر ، وأذن للمسلمين بالمهاجرة إليها ، فهاجر خلق كثيرون منهم سيدنا عمر وأخوه زيد ، وعمار بن ياسر ، و بلال ، وسعد بن أبى وقاص ، وعثمان بن عفان حتى لم يبق بمكة مع الرسول وأهل بيته إلا القليل من المستضعفين ومعهم سيدنا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق رضى الله عنهما

تآمر المشركين على قتله

فلما أحس كفار قريش بأن الرسول سيهاجر أيضاً تآمروا على قتله (بدار الندوة) قبل أن يهاجر ، فأطلعه الله على سرهم ، ونجاه من مكرهم وكيدهم ، ورد كيدهم فى نحرهم ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ الأنفال

فاتفق مع أبى بكر على أن يتجهز للخروج من مكة إلى المدينة

هجرته مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه

جهز سيدنا أبو بكر للسفر راحلتين واشترى الرسول إحداهما ، ثم أودعاها عند رجل استأجراه دليلاً لهما إلى المدينة ، ووعداه (غارثور) جحر فى جبل بينه و بين مكة نحو ميلين بعد ثلاث ليال

ثم اتفق النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر على المقابلة ليلاً خارج مكة ، وكانت تلك الليلة موعد تنفيذ قريش ما تآمروا عليه من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا حول البيت الذى بات فيه الرسول وصاروا يرددون النظر من شقوق الباب ، حتى إذا نام دخلوا عليه ليقتلوه

فلما أراد الخروج أمر سيدنا علياً بأن ينام مكانه فنام ، وغطاه ببردته ليخفى الأمر على القوم ، ثم تحصن بالله وخرج عليهم ناثراً التراب على رؤسهم وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يس

فألقى الله عليهم النوم ، ولم يشعر به أحد ، فقابله أبو بكر فى الموعد وسارا حتى وصلا الغار ليلاً وكمنا فيه

فلما همّ القوم بالقتل ، دخلوا البيت فوجدوا النائم على بن أبى طالب ، لا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فاغتاظوا غيظاً شديداً ، واقتفوا الأثر الذى انقطع عند الغار ، فتحيروا فى أمرهم ولم يهتدوا ، حيث أعمى الله بصرهم عن النظر فى الغار بنسج العنكبوت وتعشيش الحمامتين على فمه ، فرجعوا خائبين ، وجعلوا مكافأةً كبيرةً لمن يدل عليهما

خرج النبى صلى الله عليه وسلم حين أمر بالهجرة إلى المدينة المنورة ومعه أبو بكر فأقاماه ثلاثة أيام فى الغار

وروى أنه لما انطلق أبو بكر رضى الله عنه إلى الغار جعل يمشى ساعةً بين يدى الرسول ، وساعةً خلفه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك يا أبا بكر ؟ فقال أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك

فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يارسول الله حتى أستبرىء الغار ، فدخل فاستبرأه ثم قال : انزل يارسول الله ، فنزل

وروى عن أبى بكر الصديق أنه حدثهم فقال : نظرت إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن فى الغار ، فقلت : يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا

فقال : يا أبا بكر ، ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟

وحادثة الغار مشهورة ومشار إليها فى القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة

ويروى عن ابن عمر قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : أنت صاحبى فى الغار ، وأنت صاحبى على الحوض

قال الحسين بن المفضل : مَن قال أن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار فقد كفر بنص القرآن ، وسائر الصحبة إذا أنكر ذلك يكون مبتدعاً ، والمعوّل عليه تكفير من أنكر صحبة المجمع على صحبته منهم

فلما جاء الدليل بالراحلتين فى الميعاد ركبا وسارا فلحق بهما (سراقة بن مالك) الذى طمع فى أخذ المكافأة من قريش ، وأراد أن يتعرض لهما ، فغاصت يدا فرسه فى الأرض الصماء ، فاستجار بالنبى ، فأجاره على أن يرجع فرجع ؛ ولكن حدثته نفسه بالمكافأة فكرّ عليهما ثانياً ، فغاصت قوائم الفرس الأربع إلى الركبتين ، فطلب منهما الأمان ، وتعهد بأن يرد

عنهما جيش العدوان ، فعفا عنه الرسول ، وأشار إلى الفرس فنهضت فركبها ورجع كما جاء

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« ونحا المصطفى المدينة واشتا قت إليه من مكة الأنحاء »

« وتغنّت بمدحه الجنُّ حتى أطرب الإنسَ منه ذاك الغناء »

« واقتفى إثره (سُراقة) فاستهـــوته فى الأرض صافنٌ جَرداء »

« ثم ناداه بعد ماسيمتِ الخسـفَ وقد يُنجد الغَريق النداء »

من هذه الحادثة تعلم مقدار حماية الله لرسوله ، وخيبة أعدائه ، ومحبة سيدنا على له حيث عرض نفسه لفدائه ؛ وتعلم أيضاً مقدار حلم الرسول على قومه وصبره على الأذى ، وحسن معاملته لطالب العذر منه ، حيث عفا عنه مع قدرته إذ ذاك على الانتقام منه ؛ وتعلم أيضاً مقدار صدق أبى بكر ، وحسن صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم

الوصول إلى المدينة المنورة

ثم سار النبى عليه السلام وصاحبه أبو بكر فى أمان حتى قربا من المدينة بعد ستة أيام ، وكان أهلها ينتظرونه لعلمهم بقدومه ، فإذا بيهودى ينادى بأعلى صوته : يامعشر العرب ، هذا حظكم الذى تنتظرونه ، فتقلدوا أسلحتهم وتلقو الرسول مهللين مكبرين ، فعدل بهم ذات اليمين ونزل (بقباء) موضع بجوار

المدينة على بنى عمرو بن عوف فى اليوم الثامن من ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م كما حققه المرحوم محمود باشا الفلكى وأسس مسجد (قباء) الذى وصفه الله بقوله :

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ التوبة

وقد صلى فيه الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار الجمعة ، وكانوا مائة رجل ، وهذه أول جمعة صلاها عليه الصلاة والسلام

وكانت المساجد فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غاية من البساطة

ثم توجه بعد الجمعة إلى المدينة ، والأنصار شاهرو السلاح ، محيطون به إحاطة الهالة بالقمر ، فما فرح أهل المدينة بشىء فرحهم برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد خرج لملاقاته ، فيمن خرج ، النساء والصبيان والولائد ينشدون :

« طلع البدر علينا من ثنيات الوداع »

« وجب الشكر علينا ما دعا لله داع »

« أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع »

وكان كل واحد يود نزول الرسول بفنائه ، ويأخذ بزمام ناقته ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : (خلوا عنها فإنها مأمورة)

فلما وصلت إلى فناء بنى النجار (أخوال أبيه) بركت أمام دار أبى أيوب الأنصارى، فأخذ أهل المدينة فى الترحيب بالرسول عليه الصلاة والسلام، والمبالغة فى إكرامه وإكرام المهاجرين، ووازروه ونصروه (فسموا بالأنصار) ومن وفدوا عليهم (سموا بالمهاجرين)

المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين

ولما استقر بالرسول المقام بالمدينة، وبنى مسجده وداره قريباً من دار أبى أيوب الأنصارى، أخذ يؤاخى بين المهاجرين والأنصار، حتى صار كل واحد يفضل أخاه على نفسه، فقويت بذلك عصبتهم، وهابهم القريب والبعيد، فعاش المهاجرون فى هناء وصفاء، وأحبوا المدينة أكثر من محبتهم لوطنهم، ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام

وقد أعزّ الله تعالى الإسلام، وأعلى مناره، وقوى رسوله بالأنصار والمهاجرين، وبمن دخل فى دين الله تعالى من قبائل العرب، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة

مبدأ التاريخ الإسلامى

لما كان لهجرته عليه السلام، وتركه بلده وعشيرته شأن عظيم، وبهاظهر

الإسلام ظهور الشمس فى رائعة النهار ، بعد أن كان فى خفاء واستتار ، اختار سيدنا عمر بن الخطاب فى أيام خلافته أن يكون عام الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامى . وفى السنة المذكورة بنى عليه السلام مسجده بالمدينة ، وفيها شرع الله الأذان لجمع المسلمين للصلاة

يهود المدينة

قد ابتلى الله المسلمين فى المدينة بيهودها ، كما ابتلاهم فى مكة بمشركى قريش و بالمنافقين ، وهم قوم أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر ، فإن اليهود قد أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم ، واستكباراً من أن تكون النبوة فى ولد إسماعيل ، فكفروا بما أنزل الله بغياً ، مع أنهم علموا بأن رسول الله محمداً لم يأت إلّا مُصدقاً لما بين يديه من كتب الله التى أنزلها على من سبقه من المرسلين

ولذا أمر الله تعالى محمداً أن يدعو يهود بنى إسرائيل ، الذين كانوا فى المدينة إلى توحيد الله ، فقال له وللمؤمنين به : قل يا محمد لأهل الكتاب ، وهم أهل التوراة والإنجيل ، ، هلمّوا إلى كلمة سواء ، (أى عدل) بيننا وبينكم ، وهى أن نعبد الله ولا نعبد سواه ، ونبرأ من كل معبود غيره ، فلا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً ، أى لا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصى الله ، و يعظمه بالسجود له كما يسجد لربه ، فإن أعرضوا عما

دعوتهم إليه، من هذه الكلمة العدل التى أمرتك بدعائهم إليها ، ولم يجيبوك إليها ، فقولوا أنتم أيها المؤمنون للمعرضين عن ذلك : اشهدوا بأنا مسلمون ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران

فأصروا على عنادهم ، وأرادوا تعجيزه ، فسألوه أن يأتى بمعجزة ، تدل على صدق نبوته ودعوته ، فطلبوا منه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ النساء

فأجابهم الله ، توبيخاً لهم وتقريعاً ، بقوله : يا محمد لا يعظمن عليك مسألتهم ذلك ، فقد سألوا موسى أعظم مما سألوك ، حيث قالوا له : أرنا الله جهرة ننظر إليه ، فصعقوا بظلمهم أنفسهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ النساء

ثم يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إن كفر

بالذى أوحينا إليك يا محمد اليهود الذين سألوك أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، وقالوا لك : ما أنزل الله على بشر من شىء ، فقد كذبوا ؛ ولكن الله يشهد بتنزيل ما أنزله من كتابه ووحيه إليك ، يعلم منه بأنك خيرته من خلقه ، وصفيه من عباده ، ويشهد بذلك ملائكته ، فلا يحزنك تكذيب من كذبك ، وحسبك بالله شاهداً على صدقك ، دون ما سواه من خلقه ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ لٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ النساء

ثم يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ البقرة

يقول الله تعالى ذكره : إنا أرسلناك يا محمد مؤيداً بالحق ، مبشراً المؤمنين ، ومنذراً للكافرين ، ولست بمسؤول عن الذين يستحقون النار المتأججة ؛ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تميل إلى دينهم وتتبع

ملتهم ، فقل لهم : إن هدى الله ، أى الإسلام ، هو الهدى الصحيح ليس ماأنتم عليه من عناد و إنكار بغياً وحسداً ، ثم حذره الله وقال له : لئن اتبعت يا محمد أضاليلهم بعد الذى نزل عليك من الوحى مالك من الله من محب ولا ناصر يدفع عنك عقابه

وقد حجّهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق فقال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة

ثم ختم جلّ ذكره عدم إجابتهم بقوله :

﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ البقرة

فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم ؛ مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم

وقد تبين الهدى لأحد رؤساء وعلماء اليهود (عبد الله بن سلام) فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن كما أسلم أيضاً (كعب الأحبار) وغيرهما من أحبار اليهود وساداتهم

المنافقون المستهزئون

وكان يساعد اليهود على مقاصدهم وكفرهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم ، فأخفوا كفرهم حرصاً على حياتهم ، وهؤلاءهم المنافقون وكان يرأسهم (عبد الله بن أبيّ ابن سلول الخزرجى) الذى كان مرشحاً نفسه لرياسة أهل المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

ويقول الله فيهم : هؤلاء المنافقون إذا قابلوا المؤمنين قالوا لهم : إنا آمنا كما آمنتم ، فإذا خَلَوْا إلى إخوانهم فى الكفر واجتمعوا بهم قالوا لهم : هوّنوا على أنفسكم ، إننا لا نزال على ملتكم ، إنما نحن فى تظاهرنا بالإيمان نستهزئ بالمؤمنين

ولكن الله يستهزئ ويسخر بهم للنقمة منهم ، ويزيدهم طغياناً ليزدادوا حيرةً وضلالاً

وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ البقرة

وهؤلاء المنافقون هم الذين باعوا الهدى ، واشتروا به الضلالة ، فما كسبت تجارتهم ، وما اهتدوا ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة

ولاشك أن ضرر المنافقين أشد من ضرر الكفار ؛ لأن أولئك يدخلون بين المسلمين يتعلمون أسرارهم ، ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم ؛ ولذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يركن لهم ولا يأمنهم فى عمل ما ، وكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولى عليها بعض الأنصار ، ولم يعهد أنه ولى رجلاً من المنافقين ، وقد حذره الله منهم بقوله : إذا جاءك المنافقون يامحمد قالوا لك بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، وكفى به شهيداً ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى أخبارهم ، وقد اتخذوا أقسامهم وحلفهم وقاية وستراً ، فيمنعون بها أنفسهم وذراريهم وأموالهم ، ويدفعون بها عنها ، فأعرضوا عن دين الله الذى بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإنهم لقد ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ظاهراً ، ثم كفروا سراً فأغلقت قلوبهم ، فهم لا يفقهون صواباً من خطإ وحقاً من باطل

فإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإذا خاطبوك تعجبك أقوالهم ؛ ولكنهم يقولون بألسنتهم ماليس بقلوبهم ، فهم أعداء كاذبون : قاتلهم الله أنى يؤفكون

وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

المنافقون

معاهدة اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لما رأت اليهود أن قدم الإسلام قد رسخت فى المدينة ، هاجتهم العداوة والبغضاء ، فتحزبوا على المسلمين ، فعقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أولئك اليهود عقداً مقتضاه ترك الحرب والأذى ، فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ، ولا يعينون عليه أحداً ، وإن دهمه عدو ينصرونه وأقرهم على دينهم

الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الدين

ومشروعية القتال

مكث الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث عشرة سنة من بعثته إلى هجرته يدعو الناس إلى الإسلام باللين والعرف ، مبشراً ونذيراً ، وصابراً على الأذى ، متوكلاً على الله كما قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ الأحزاب

ولما اشتد طغيان أهل مكة تآمروا على قتله ، وأخرجوه من داره ، و بدأوا بالعداء والغدر ، وأصرّوا على العناد ، فأمره الله بالقتال لمنع الاعتداء ، وحماية للدعوة ممن يصد الناس عن الدخول فى الإسلام ، أو يفتنهم ، أو يعذبهم إذا دخلوا فيه ، لقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الحج

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ البقرة

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ الأنفال

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ التوبة

فقام يغزو ويجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الدين ، وهداية الناس إلى الطريق القويم ، لا طمعاً فى ملك ، ولا حباً فى رياسة أو مال ، ولا عَرَض من أعراض الدنيا ، وصار الجهاد عاماً

ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »

غزواته صلى الله عليه وسلم

وغزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة ، لم يبدأ فيها أحداً بالعداء ؛ بل كان لا يقاتلهم إلّا بعد الانذار والتبشير فتبدو منهم الغلظة والجفاء وحمية الجاهلية ، ولذا أيده الله بالنصر ، ونال منهم مالم ينل أحد ، مع قلة العَدد والمُدد ، وكثرة الأعداء وقوتهم ، وهزمهم فى عدة مواقع

وأهم الغزوات (تلك الغزوة التى فتح فيها مكة) وكان ذلك فى السنة الثامنة من الهجرة ، ودخلها فاتحاً ، فخاف أهلها أن ينتقم منهم بسبب إيذائهم

وحُروبهم له ولأصحابه ؛ ولكنه عفا عنهم فآمن به خلق كثير ، ودخلوا فى دين الله أفواجاً ، وصاروا له أولياء ناصرين ، بعد أن كانوا أعداء مبغضين ، وبذلك قضى على الوثنية فى جزيرة العرب

وما زال صلى الله عليه وسلم ينشر دين الإسلام هو وأصحابه حتى عمّ بلاد العرب ، وخضعت له القبائل كلها ، وأرسلت إليه وفوداً تقدم الطاعة والخضوع لأوامر الله ، بعد أن ملأ الإسلام قلوبهم ، وتمكن من نفوسهم وكان ذلك فى السنة العاشرة من الهجرة

فكان عليه الصلاة والسلام يقابلهم بالبشاشة ، ويعلمهم أحكام الدين ويبث فيهم مكارم الأخلاق تأييداً لقوله :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

دعوته الملوك إلى الإسلام

لم يقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على جهاده ، وانتشار دينه ؛ بل أرسل إلى جميع الملوك المجاورين لبلاد العرب ، يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام

فمنهم من آمن وحسن حاله ؛ ومنهم من ردّ رداً حسناً ؛ ومنهم من رفض ، فحارب النبى صلى الله عليه وسلم وانتصر عليه

وهاك صورة الكتاب الذى أرسله إلى المقوقس :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، و إن توليت فإنما عليك إثم القبط

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية

٢ — وكتب مثله إلى قيصر عظيم الروم

٣ — أما الكتاب الذى وجهه إلى كسرى ملك الفرس فهاك صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم (من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس) سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافةً ، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس

فلما وصله الكتاب مزقه استكباراً ؛ ولما بلغه عليه السلام ذلك قال : (مزّق الله ملكه كل تمزيق) وقد فعل ، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً وانحطاطاً

٤ — أما الكتاب الذى وجهه إلى النجاشى ملك الحبشة فهاك صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم (من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة) أما بعد ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها

إلى مريم البتول ، الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده

وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتوثق بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى

فلما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام ، وقال لحامله : (عمرو بن أمية) إنى أعلم والله أن عيسى بشر به ؛ ولكن أعوانى بالحبشة قليل عددهم ، فانظرنى حتى أكثر الأعوان ، وألين القلوب

حجة الوداع

فى السنة العاشرة من الهجرة حيث انتشر الإسلام ، واتسعت دائرته وعلت كلمته ، وأمنت بالجهات ، خرج الرسول فى يوم السبت لخمس بقين من ذى الحجة فى جموع كثيرة لأداء فريضة الحج ، فدخل مكة وأدّى نسكه ثم خطب يوم النحر (يوم العيد الأكبر) بمنى خطبته التى بين فيها الدين ، وأوضح معالمه ، وأكثر فيها من قوله : ألا هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد منكم الغائب اللّهم اشهد ، ثم ودع فيها الناس ، فلذلك سميت تلك الحجة (بحجة الوداع) ثم عاد عليه السلام إلى المدينة

نزول ختام القرآن الكريم

وقد نزل ختام القرآن يوم عرفة ، فى تلك الحجة ، وهو قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة

وبذلك أكمل الرسول شعائر الإسلام ، وأتم رسالته على أكمل وجه ، ثم عاد إلى المدينة

فلا غرابة أن اتخذه المسلمون عيداً ، ويوماً سعيداً ، يظهرون فيه شكراً لله على هذه النعمة الكبرى

مرض الرسول عليه الصلاة والسلام

فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة

بعد أن عاد الرسول من الحج إلى المدينة مرض ثلاثة أيام ، ولما اشتد عليه المرض استأذن نساءه أن يُمرَّض فى بيت إحداهن ، فأذنّ له ببيت عائشة الصديقية رضى الله عنها

ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة قال : مُروا أبا بكر فليصل بالناس ؛ ثم خرج عليه السلام متوكئاً على علىّ والفضل ، وتقدم العباس أمامهم ، والنبى عليه الصلاة والسلام معصوب يخط برجليه حتى جلس فى أسفل

مرقاة المنبر، فسار الناس إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خُلد نبى قبلى فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا وإنى لاحق بربى ، ألا وإنكم لا حقون بى فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر

وإن الأمور تجرى بإذن الله ، إلى أن قال : وأوصيكم بالأنصار خيراً . فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم إلى آخر خطبته »

وفاته صلى الله عليه وسلم

فى السنة الحادية عشرة من الهجرة أراد النبى غزو الروم ، فجهز جيشاً كبيراً ، وأمّر عليه (أسامة بن زيد) وفى أثناء الاستعداد طرأ المرض الذى توفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم تتم تلك الغزوة فى حياته ، وأتمها بعد وفاته (أبو بكر الصديق) خليفته ، فإنه عليه الصلاة والسلام بقى مريضاً حتى فارق الدنيا فاختاره مولاه ، ولحق بالرفيق الأعلى ، وذلك فى يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول من تلك السنة (٨ يونيه سنة ٦٣٢ م) المتممة له ثلاثاً وستين سنة ، ودفن حيث قبض فى حجرة عائشة

بالمدينة المنورة ، ومدفنه هناك يسمى (بالحرم المدنى) والحجرة التى بها قبره تسمى (بالروضة النبوية الشريفة) ولا يزال قبره الشريف موضع احترام المسلمين وتعظيمهم ، يزوره الحجاج فى كل عام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام .

وبوفاته حزنت النفوس حزناً شديداً على فراقه ، فاللهم آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة ، وأبعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد .

وقد نعاه إلى أصحابه أبو بكر رضى الله عنه وقال لهم وهم مجتمعون ، وقد استولت عليهم الدهشة وتملكهم الحزن والأسى :

« أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لا يموت ، ثم تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ الزمر

ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ آل عمران

لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه ، بعد أن بلّغ الرسالة وأدّى

الأمانة كما أمر ، وعمره عليه السلام ٦٣ سنة قمرية وثلاثة أيام ، وترك للمسلمين ما إن اتبعوه لم يضرهم شيء ، كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وترك أصحابه الكرام البررة يوضحون الدين ، ويقممون فتح البلاد ، ويظهرون فى الدنيا شمس الدين الإسلامى القويم .

زوجاته عليه الصلاة والسلام

المشهورات من نسائه إحدى عشرة امرأة (متفق عليهن) وهن :

١ خديجة - ٢ عائشة - ٣ سودة - ٤ زينب بنت جحش - ٥ هند وهى أم سلمة - ٦ حفصة - ٧ رملة وهى أم حبيبة - ٨ جويرية - ٩ صفية - ١٠ ميمونة - ١١ زينب بنت خزيمة أم المساكين .

وتوفى رسول الله عليه الصلاة والسلام عن تسع زوجات وقد نظمهن بعضهم فقال :

« توفى رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسب »
« فعائشة ، ميمونة ، وصفية وحفصة ، تتلوهن هند ، وزينب »
« جويرية ، مع رملة ، ثم سودة ثلاث وست نظمهن مهذب »

وماتت فى حياته خديجة وزينب بنت خزيمة رضى الله عنهما .

وكلهن أمهات المؤمنين ، فاضلات طيبات ، طاهرات صالحات ،

وأفضلهن عائشة بنت أبى بكر الصديق ، التى لم يتزوج بكراً غيرها ، وتوفى عنها وعمرها ١٨ سنة ، وعاشت بعده ٤٠ سنة

سراريه عليه الصلاة والسلام

أما سراريه فثلاث : مارية القبطية ـ ريحانة ـ جميلة

أولاده عليه الصلاة والسلام

أولاده سبعة : ثلاثة ذكور ، وأربع إناث ، منظومة فى قول بعضهم :

« قاسمُ ابراهيمُ عبد الله هم الذكور للنبى الأوّاه »

« ثم الإناث زينب فاطمةُ فأمُّ كلثوم كذا رُقَيَّة »

وكلهم من خديجة ، إلا إبراهيمَ فإنه من مارية القبطية ، وتوفى فى السنة العاشرة من الهجرة

وأما القاسم ، وعبد الله ، فإنهما ماتا قبل البعثة

أما الإناث فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن ، ولم يعش منهن بعد وفاته عليه الصلاة والسلام إلا فاطمة الزهراء فإنها ماتت بعده بستة أشهر وقيل بشهرين ونصف

معجزاته عليه الصلاة والسلام

المعجزة هى الأمر الخارق للعادة الذى يظهر على يد نبى أو رسول برهاناً على صدق دعواه ، وإن محمداً صلى الله عليه وسلم من يوم ولادته إلى مبعثه كانت أحواله وأقواله وأفعاله كلها كرامات تجل عن الحصر ؛ ومن مبعثه إلى وفاته كلها معجزات باهرات ، وآيات بينات ، دالةً على أنه رسول الله حقاً وصدقاً

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم تنقسم إلى قسمين : معجزة علمية عقلية ، ومعجزات كونية

المعجزة العلمية الكبرى الخالدة التى فاقت كل المعجزات

تلك المعجزة هى (القرآن الكريم) وهو كتاب الله الحكيم وآيته الكبرى ، وهدايته العظمى ، ونوره المبين ، وصراطه المستقيم ، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ؛ ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد ؛ فإنه والحق يقال - رغم أنف المعاندين والمكابرين (معجزة كبرى فاقت كل المعجزات) لبلاغته التى أعجزت الفصحاء ، وأفحمت الخصماء ، مع أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام كان أمياً لم يقرأ سفراً ولم يكتب سطراً ، ولم يختلف إلى معلم ، ولم يعكف على درس

وهذا القرآن الكريم ، هو كلام الله المكتوب فى المصاحف ، المحفوظ فى صدور الملايين من المسلمين ، من يوم نزوله على النبى العظيم إلى يومنا هذا ، وهو مشتمل على أخبار الأنبياء الماضين مع أممهم ، وعلى القوانين العادلة الموافقة لمصالح العالم ، وعلى الحِكم والأمثال ، والأخلاق والآداب التى تخشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحض على الاتحاد والائتلاف وحسن المعاملة ، وصلة الأرحام ؛ وعلى الإخبار بمغيبات حصلت .

كل ذلك بألفاظ عذبة سهلة ، وعبارات هى غاية فى الفصاحة والبلاغة ، وأساليب عجز عن مجادلتها البلغاء ، وكبار الكتاب

هذا وقد ابتدأ نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، وتم نزوله فى اليوم التاسع من ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والسنة الثالثة والستين من ميلاده عليه الصلاة والسلام فالمدة بين مبدإ نزوله وختامه اثنان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوماً كما جاء فى كتاب هداية القرآن لحضرة الأستاذ المرحوم الشيخ حسين سامى من علماء الأزهر الشريف

والليلة التى أنزل فيها القرآن هى ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ القدر

ولا نزاع فى أن هذه الليلة كانت فى شهر رمضان لقوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ البقرة

وأما يوم الختام فهو يوم الجمعة ، يوم عرفة ، من العام الذى حج فيه النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، وكانت آية الختام قوله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ المائدة

ولم ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شىء من الفرائض ولا تحليل شىء ولا تحريمه ، ولم يعش عليه الصلاة والسلام بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة

وإليكم بعض الآيات التى جاءت فى نزول القرآن على محمد صلى الله عليه

وسلم ، ليكون فى ذكرها دليل قاطع على أن القرآن من كلام الله وليس من كلام البشر ، قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

١ — ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا قَيِّمًا ﴾ الكهف

يقول الله تعالى ذكره : الحمد لله الذى خص برسالته محمداً وانتخبه لإبلاغها عنه ، فبعثه إلى خلقه نبياً مرسلاً ، وأنزل عليه كتابه ، كتاباً قيماً معتدلاً

مستقيماً لا اعوجاج ولا اختلاف فيه

٢ — ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ الشعراء

يقول الله تعالى ذكره : وإن هذا القرآن لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين (جبريل) عليك يا محمد ، حتى وعيته بقلبك لتكون من رسل الله الذين ينذرون من أرسلوا إليه من قومهم ، فتنذر بهذا القرآن قومك المكذبين بآيات الله ، وقد أنزله الله بلسان عربى مبين ليبين لمن سمعه أنه عربى ، وأنه بلسان العرب أنزل

٣ — ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾

آل عمران

يقول الله تعالى ذكره : يا محمد إن ربك ، ورب عيسى ، ورب كل شيء هو الرب الذى أنزل عليك الكتاب (القرآن) بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل ، وفيما خالفك فيه محاجوك من نصارى أهل نجران ، وسائر أهل الشرك غيرهم ، مصدقاً هذا القرآن لما كان قبله من كتب الله الذى أنزلها على أنبيائه ورسله ، ومحققاً ما جاءت به رسل الله من عنده ، لأن منزل جميع ذلك واحد ، فلا يكون فيه اختلاف ، ولو كان من عند غير الله لكان فيه اختلاف كثير

وأنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، من قبل الكتاب الذى نزله عليك ، بياناً للناس من الله فيما اختلفوا فيه من توحيد الله وتصديق رسله ، ومفيداً يامحمد أنك نبيى ورسولى

وأنزل الفرقان (أى الفارق والفاصل بين الحق والباطل) فيما اختلفت فيه الأحزاب وأهل الملل فى أمر عيسى وغيره

والخلاصة : أنه نزّل الفرقان ، وهو القرآن على محمد ، وفرق به بين الحق والباطل ، فأحلّ فيه حلاله ، وحرّم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحدّ فيه حدوده ، وفرض فيه فرائضه ، وبين فيه بيانه ، وأمر بطاعته ونهى عن معصيته

٤ — ﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمد هذا القرآن كتاب أنزله الله إليك ، فلا يَضِقْ صدرك من الإنذار به من أرسلتك لإنذاره به ، وإبلاغه مَن أمرتك بإبلاغه إياه ، ولاتشك فى أنه من عندى واصبر بالمضى لأمر الله تعالى ، واتباع طاعته فيما كلفك وحملك من عبء أثقال النبوة ، كما صبر أولو العزم من الرسل ، فإن الله معك

وهذا الكتاب ذكرى للمؤمنين ، أى لتذكر به المؤمنين

وقد قام المعاندون وعارضوا فيه ، فطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ورجعوا بالخيبة والفشل كما مرّ ذكره

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله متعجباً من الكفار الذين شاهدوا هذه المعجزة ، ولم يعترفوا بها ولم يزدادوا إلا ضلالاً :

« عجباً للكفار زادوا ضلالاً بالذى فيه للعقول اهتداء »
« والذى يسألون منهُ كتاب مُنزل قد أتاهُمُ وارتقاء »
« أو لم يكفهم من الله ذكر فيه للناس رحمة وشفاء »

ثم وصف القرآن بقوله :

« أعجز الإنسَ آية منه والجنّ فهلّا تأتى بها البُلغاء ؟ »
« كلّ يوم تهدى إلى سامعيه معجزات من لفظه القرّاء »
« تتحلى به المسامع والأفواه فهوَ الحُلىُّ والحلواء »

الشرح : أى عجباً لبقاء الكفار على كفرهم ، مع مشاهدة معجزاته صلى الله عليه وسلم ؛ بل من ازدياد كفرهم مع مشاهدتهم من الآيات والمعجزات ما يرشد العقول إلى الحق ، لولا المعاندة والمكابرة . وأخذ يوبخهم بما حكاه عنهم ، حتى إنهم سألوه أن يرقى فى السماء ، ويأتيهم بكتاب منزل عليه ، ولم يكفهم ما أنزل عليه من الكتاب العزيز الذى هو رحمة للمذنبين وشفاء للمؤمنين (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ) فصلت ووصف لهم هذا الكتاب بأنه أعجز الإنس والجن على أن يأتوا بسورة

من مثله ، وأنه فى كل وقت تهدى القراء إلى سامعيه معجزات من لفظه لعذوبته وانسجامه وجزالته وغاية إيجازه مع غاية فصاحته وبلاغته ، وأنه جدير بأن تزدان به المسامع ، ويحلو مذاقه فى الأفواه

ثم أخذ يشرح لهم ما فى هذا الكتاب العزيز من العلوم والمعارف قائلاً :

« كم أبانت آياتهُ من عُلوم عن حروفٍ أبان عنها الهجاء »

« فهى كالحبِّ والنوى أعجب الزُّ رّاع منه سنابلٌ وَزكاء »

« فأطالوا فيه التردد والرّيـ ـبَ فقالوا : سحر وقالوا : افتراء »

« وإذا البينات لم تغن شيئاً فالتماس الهدى بهن عَناء »

« وإذا ضلّت العقول على عِلـ ـمٍ فماذا تقوله النصحاء »

الشرح : أى أن آيات القرآن الكريم أوضحت من العلوم والمعارف مالا يُحَدّ بحروف قليلة بالنسبة لها ، وهى حروف الهجاء ، ولاغرابة فإن المتناهى قد يحصل منه ما لا يتناهى ، ، ألاَ ترى أن الحبَّ الذى يلقيه الزرّاع فى الأرض قد ينشأ عنه من السنابل والحبوب ما لا يكاد يحصى ، والنوى الذى يلقيه الغراس فى الأرض قد ينشأ عنه من التمر كذلك

ومع ذلك فإن الكفار أطالوا فيه (أى فى القرآن) التردد والريب فقالوا : سحر كما حكاه الله عنهم ، وقالوا : افتراء ، وقالوا : أساطير الأولين ، فكذبهم الله بقوله :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ البروج

وقوله : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت

وإذا كانت هذه الحجج القطعية البرهان ، الواضحة البيان ، لم تهدهم إلى سواء السبيل ، فالتماس الهدى بهن تعب وعناء ، وإذا ضلت العقول عن طريق الحق مع العلم بها فأى قول تقوله النصحاء ؟ قال تعالى :

﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية

هـذه المعجزة العلمية الكبرى فاقت معجزات الرسل قبله . وذلك أن المعجزات التى أيد الله بها الرسل السابقين كانت كلها حوادث كونية تنتهى بوقوعها أو بموت الرسول المؤيد بها

كانفلاق البحر لموسى ، وقلب العصاة حية تسعى ، وإبراء عيسى بعض الأمراض التى استعصى على الطب علاجها

أما معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (وهى القرآن الكريم) فتلك هى المعجزة العلمية الباقية بدوام الدهر ، المنقولة بالتواتر ، المحفوظة من التحريف والتبديل ، لقول الله تعالى :

﴿ إنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر

ولا يزال كتاب الله ناطقاً بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، ودليلاً ناهضاً على بقاء شريعته، وأنها آخر الشرائع، وأنها ناسخة لكل شريعة قبلها

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله فى قصيدة البردة :

« آياتُ حقٍ مِن الرحمٰنُ محدثة قديمة صفة الموصوف بالقِدم »

« لم تقترن بزمان وهى تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم »

« دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدُم »

المعجزات الكونية

المعجزات الكونية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً، نذكر بعضها وهى :

١ — انشقاق القمر حين طلبت قريش منه ذلك فنزل قوله تعالى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ القمر

كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اشهدوا . وقال بعضهم : وفى انشقاق القمر له مناسبة لشق قلبه حين شقه الملكان ، وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« أقسمت بالقمر المنشق إن له من قلبه نسبة مبرورةَ القسم »

ومعنى البيت : أقسمت برب القمر يميناً مبرورة إن للقمر المنشق شبهاً بقلبه صلى الله عليه وسلم فى انشقاق كل منهما مرتين ؛ ووجه الشبه بين الانشقاقين جريهما على خلاف العادة فى الانشقاق والالتئام من غير تأثير ولا اختلاف

٢ — احتباس الشمس ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أخبر قريشاً بقدوم عيرهم من الشام فى يوم من الأيام فولى النهار ولم تجىء فدعا فزيد له فيه ساعة وحبست عليه الشمس

ومن ذلك ماروت أسماء بنت عميس أنه صلى الله عليه وسلم أوحى إليه ورأسه فى حجر علىّ وفوّت على صلاة العصر لمراعاته ؛ فلما أفاق صلى الله عليه وسلم قال :

« اللّهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك ، فاردد عليه الشمس »

قالت أسماء : فرأيتها غربت ، ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت ، ووقفت على الجبال والأرض وذلك بالصهباء فى خيبر

٣ — نسيج العنكبوت وتعشيش الحمامتين على فم الغار لما دخله هو

وأبو بكر استتاراً عن أعين المشركين يوم الهجرة النبوية كما تقدم ذكرها وفى ذلك يقول البوصيرى :

« وما حَوى الغار من خير ومن كَرَم وكُلُّ طرف من الكُفار عنه عَمِى »

« فالصدق فى الغار والصديق لم يَرِمَا وهم يقولون ما بالغار من أَرِم »

والمعنى : أنه لما دخل صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر فى الغار هرباً من الكفار ، فطلبوهما حتى وقفوا على فم الغار ، فأعماهم الله تعالى عنهما ببركة النبى صلى الله عليه وسلم

وأنهما لم يبرحا الغار والكفار لاينظرونهما ويقولون ليس أحد فى الغار

« ظنوا الحمام وظَنُّوا العنكبوت على خير البرية لم تَنسجْ ولم تَحُمِ »

ولما رأى الكفار أن الحمام حام حول الغار ، والعنكبوت نسجت خيوطها عليه فى ساعة واحدة ظنوا أن خير البرية وصاحبه ليسا فى الغار لظنهم استبعاد حوم الحمام حول الغار ، ونسيج العنكبوت عليه فى وقت لايتسع لذلك

« وقايةُ الله أغْنَت عن مضاعفة من الدُّروع وعن عالٍ من الأُطُمِ »

وقد حفظهما الله من العدو بهذا الغار ، لما فيه من الكفاية والاستغناء عن الدروع الكثيرة ، وعن الحصون العالية كل ذلك ببركته صلى الله عليه وسلم

٤ — إبراء المرضى وذوى العاهات بمجرد اللمس والنفث وفى ذلك يقول البوصيرى :

« كم أبرأت وصباً باللمس راحته وأطلقت أرباً من ربقة اللمم »

أى أنه صلى الله عليه وسلم ما مسح براحته الشريفة على مريض إلا عوفى ، ولا على من علق به داء إلا خلصه الله تعالى منه

فمن الأول ماروى : أنه صلى الله عليه وسلم تفل فى عينى على كرم الله وجهه يوم خيبر وبه رمد شديد فبرأ من حينه ، وأنه مسح على عين قتادة بعد ما عميت فردها الله تعالى عليه ، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظراً ، وكانت لاترمد إذا رمدت الأخرى

ومنها أنه عليه الصلاة والسلام أمرها على عيون رُمد تقوى أبصارها حتى أصبحت ترى ما لم تره (الزرقاء) التى كانت ترى من مسيرة ثلاثة أيام وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« وأزالت بلمسها كل داء أكبرته أطبة وإساء »

« وعيون مرّت بها وهى رُمد فأرتها ما لم تر الزرقاء »

« وأعادت على قتادة عيناً فهى حتى مماته النجلاء »

ومن الثانى ما روى : أن امرأة أتت بصبى لها به عاهة فمسح على رأسه فشفاه الله تعالى

وما روى : أن رجلاً سقط من علو فانكسرت رجله فمسحها صلى الله عليه وسلم فكأنه لم يشك قط

وهكذا من خوارق العادات التى جرت على يديه صلى الله عليه وسلم عندما طلبت منه ، وقد نقلت بالتواتر والأخبار الصحيحة التى جاء بها الشهود العدول

فلما وجد القوم أنه صلى الله عليه وسلم قد جاء بما طلب منه من تلك المعجزات ، وخلاف النواميس الطبيعية الكونية التى لا يقدر على خرقها إلا الله تعالى ، أيقنوا بتصديق الله له بإجرائها على يديه عند طلبها منه ، فآمنوا به وصدقوه ، واعتقدوا بعثته ورسالته صلى الله عليه وسلم

أما أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فهى كثيرة جداً ولها كتب خاصة بها فى فن الحديث فليرجع إليها طلاب الحديث وطلاب العلم والأدب والدين

شمـــائله

عليه الصلاة والسلام

١ — كرم خلقه — كان صلى الله عليه وسلم على أكمل الأخلاق الكريمة وأتمها ، ولذا وصفه الله تعالى بذلك فقال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران

وقال عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ولا يتممها إلا من كان كاملاً فيها . ولقد فاق جميع الأنبياء فى الخلقة والسجية ولم يقاربوه فى العلم ، ولا فى الكرم ، وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« فاق النبيين فى خَلق وفى خُلق ولا يُدانوه فى علم ولا كَرم »

« وكُلُّهم من رسول الله ملتمس غَرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيم »

٢ — أمانته وصدقه : عُرف صلى الله عليه وسلم منذ نشأ بالأمانة والصدق ، وهما من أخص صفات الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، فلم يقع منه فى ذلك هفوة ، ولم تحفظ عنه زلة ، حتى اشتهر فى قومه وهو فى ريعان

شبابه (بالأمين) وكانوا يودعونه ودائعهم ، ويستحفظونه أماناتهم

ولما اختلف قريش عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر الأسود حكموا أول داخل وذلك قبل النبوة

فقالوا : هذا محمد (هذا الأمين) قد رضيناه حَكَماً

وقد لقى رجل أبا جهل (وهو من ألد أعداء الرسول) بعد رسالته

فقال له الرجل : يا أبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا فخبرنى عن محمد صادق أم كاذب ؟

فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط

ومع ذلك لم يؤمن به أبو جهل عناداً واستكباراً ، ومات مشركاً فى غزوة بدر

وسأل (هرقل ملك الروم) عنه أبا سفيان قبل أن يسلم ؛ فقال :

هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا

وقال (النضر بن الحارث) لقريش المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ؛ وأعظمكم أمانةً ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ؟ قالوا : لا والله ، ما هو ساحر

فهذه شهادة ثلاثة من أعاظم قريش ، اتفقوا على صدقه وأمانته ، ولم

يكونوا مؤمنين به وقت هذه الشهادة كبراً وأنفةً ،والفضل ماشهدت به الأعداء

٣ ـ تواضعه ـ كان عليه الصلاة والسلام أشد الناس تواضعاً ، وأبعدهم من كبر ، يعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويتفقد أحوالهم ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس

روى أنه خرج على أصحابه يوماً فقاموا له ، فقال لهم : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، وقال : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ، وكان يقضى حاجات بيته بنفسه ويحملها بيده الشريفة إلى أهله ويقول : صاحب الشيء أحق بحمله

ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة ، فقال له : هوّن عليك فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد (اللحم المجفف)

٤ وقاره ـ كان صلى الله عليه وسلم أوقر الناس فى مجلسه ، لا يتكلم فى غير حاجة ، ويعرض عمن يتكلم بغير جميل ، وكان ضحكه تبسماً ، وكلامه قصداً ، لافضول فيه ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس علم وحياء ، وخير وأمانة ، لاترفع فيه الأصوات ، ولاتنتهك فيه الحرمات

وكان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فمه ، وخفض صوته وحمد

ربه ، ماتثاءب قط ، ويكره التثاؤب من غيره

٥ ـ جوده وسخاؤه

كان صلى الله عليه وسلم يعجل بالإحسان والصدقة والمعروف ، ولذلك كان أوسع الخلق صدراً ، وأطيبهم نفساً ، وكان عالى الهمم ، واسع الجود والكرم ، يعين على النوائب ، ويجيب سؤال السائل ، ويكسب المعدوم ، ولا يدخر شيئاً من يومه لغده ، وكان يجود بكل موجود ، ولذلك لما توفى كانت درعه مرهونة عند يهودى على مقدار من شعير لطعام أهله ، مع أنه قد ملك جزيرة العرب ، وحاز مُلكا كبيراً ، ولكنه لم يقتن ديناراً ولا درهماً ، لزهده ، وعفته ، وقناعته

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل إلا الطعام الغليظ ، ولا يلبس إلا الخشن من الثياب ، ومع ذلك يعطى الجزيل ، ويتجرع مرارة الصبر على الجوع

وقد وصفه الإمام علىّ كرم الله وجهه فقال :

كان أجود الناس كفاً ، وأوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجةً ، وأوفاهم ذمةً ، وألينهم عريكةً ، وأكرمهم عشرةً ، من رآه بديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبه

ومما يؤثر عنه : أنه حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها

وكان جوده صلى الله عليه وسلم كله لله ، وابتغاء مرضاته تعالى ؛ فإنه كان يبذل المال تارةً لفقير أو محتاج ، وتارةً ينفقه فى سبيل الله تعالى وطوراً يتألف به على الإسلام حتى يقوى الإسلام بإسلامه

وكان يؤثر غيره على نفسه وأولاده ، فيعطى عطاء تعجز عنه الملوك ، مثل (كسرى) و (قيصر) ويعيش فى نفسه عيشة الفقراء ، فيأتى عليه الشهر والشهران لايوقد فى بيته نار ، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من شدة الجوع ، ليتأسى الفقير به من غير ما سلطان لجوع

٦ — حسن معاشرته : كان صلى الله عليه وسلم كريم العشرة ، رءوفاً رحيماً بأصحابه ، وبهذا وصفه الله تعالى فى كتابه ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة

وكان يعطى كل واحد من جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، قد وسع الناس خلقه فصار لهم أباً ، وصاروا عنده فى الحق سواء

ماقهر خادمًا ، وماضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله

قال أنس رضى الله عنه : خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أفٍّ قط ، ولا قال لشىء صنعته لِمَ صنعته ؟ ولالشىء تركته لِمَ تركته ؟

فكذلك كان صلى الله عليه وسلم مع عبيده وإمائه ، ماضرب منهم أحداً قط

وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية ، لولا التأييدات الربانية ، والعناية الالٰهية

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا فى بيته ألين الناس ، بساماً ضحوكاً

وكان يركب الحمار ويردف خلفه ، فقد أردف بعض نسائه ، وأردف معاذ بن جبل وأردف أسامة بن زيد

وقد روى : أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل : يارسول الله عَلَىَّ ذبحها ، وقال آخر : عَلَىَّ سلخها ، وقال آخر : عَلَىَّ طبخها

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعَلَىَّ جمع الحطب

فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل ، فقال علمت أنكم تكفوننى ؛ ولكن أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يكون متميزاً بين أصحابه

وقد جاء وفد النجاشى فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم ، فقال أصحابه : نكفيك يارسول الله . قال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وأنا أحب أن أكافئهم

ودخل الحسن والنبى صلى الله عليه وسلم يصلى فركب الحسن ظهره وهو ساجد فأبطأ فى سجوده حتى نزل الحسن ؛ فلما فرغ قال له بعض أصحابه : لقد أطلت سجودك ، قال : إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله

٧ — حسن سياسته — كان ذا سياسية شريفة ، ومعارف منيفة ، ونظر ثاقب ، ورأى صائب ، وظن صادق ، وحَدْسٍ موافق ، وفضائل مشكورة ، وأخلاق محمودة ، دينه الإيمان ، وخلقه القرآن ، يقبل معذرة من يعتذر إليه ويطلب التوبة على يديه

وإليك دليلاً قاطعاً قصة كعب بن زهير وهى :

غضب كعب بن زهير على بُجير أخيه حين أسلم وآمن بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكتب إليه يلومه ، فأعلم بُجير المصطفى ؛ فقال عليه الصلاة والسلام: مَن لقى منكم كعب بن زهير فليقتله . فكتب بُجير إليه يخبره بأن المصطفى أهدر دمه ، فإن كان لك فى نفسك حاجة فسر إليه فإنه يقبل من جاء تائباً ، ولا يطالبه بما عمله قبل الإسلام

فلما بلغ الكتاب كعباً فرّ إلى قبيلة لتجيره ، فأبت عليه ذلك ، فأشفق على نفسه ، وأرجف به أعداؤه ، فقدم المدينة ونزل على سيدنا ومولانا على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، فأتى به إلى المسجد وقال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقم إليه واستأمنه ، فسمع كلامه وقام إليه حتى جلس بين يديه ، فوضع يده فى يده قائلا : يارسول الله إن (كعب بن زهير)

قد جاء يستأمنك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ذلك إن أنا جئتك به ؟ قال : نعم . قال : أنا يارسول الله (كعب بن زهير)

فقال عليه الصلاة والسلام : الذى يقول مايقول ؟ ووثب إليه رجل من الأنصار فقال : يارسول الله دعنى وعدوّ الله أضرب عنقه

فقال له الرسول : دَعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً

ثم أخذ (كعب بن زهير) فى إنشاد قصيدته المشهورة «بانت سعاد» يمدح فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويذكر خوفه ، وإرجاف الوشاة به قائلاً :

« إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول »

إلى أن قال :

« أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول »

« لاتأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت فىّ الأقاويل »

فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته الشريفة عليه وعفا عنه وكان صلى الله عليه وسلم يباسط أصحابه

وكان رجل يسمى (زهيراً) يهادى النبى صلى الله عليه وسلم بموجود البادية بما يستطرف منها

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يهاديه ، ويكافئه بموجود الحاضرة وبما يستطرف منها

وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول : زهير باديتنا ، ونحن حاضرته

ولقد جاء إلى السوق يوماً فوجد زهيراً قائماً من قِبَل ظهره فضمه بيده إلى صدره ، فأحسّ زهيراً أنه الرسول ، فجعل يمسح ظهره فى صدره رجاء بركته ، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : مَن يشترى العبد ؟ فقال زهير : إذاً تجدنى كاسداً

فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : أنت عند الله غال

وكان عليه الصلاة والسلام يمزح ، ولا يقول إلاّ حقًّا : فمن ذلك أن جاء له رجل فيه بَلَه فقال : يا رسول الله احملنى

فقال : أحملك على ابن الناقة

فقال : ما عسى يغنى عنى ابن الناقة ؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : ويحكَ وهل يلد الجمل إلا الناقة ؟

وجاءت عجوز إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلنىَ الجنة

فقال : يا أم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز . فولّت تبكى

فقال ، أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ، إن الله يقول :

﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ الواقعة

وصفوة القول : أنه كان صلى الله عليه وسلم أجمل الناس وداً ، وأحسنهم وفاء وعهداً ، وأكثرهم تواضعاً ، وأجزلهم عفةً وصيانةً ، وأصدقهم لهجةً ، وأغزرهم فضلاً وإحساناً

٨ — شجاعته — أما الشجاعة والنجدة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم منهما بالمكان الأعلى الذى لا يجهل ، حضر المواقف الصعبة ، وفرّ الكماة والأبطال عنه ، وهو ثابت لم يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح

قال على رضى الله عنه : ما هو إلّا شجاعة ونجدة ، إنّا كنا إذا اشتد البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أقرب إلى العدو منه

سمع أهل المدينة ذات ليلة صراخاً مزعجاً ففزعوا ، وخرجوا ليستطلعوا الخبر ، فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم راجعاً من جهة الصوت ، وكان قد سبقهم إليه على فرس عُرى (لا سرج عليه) متقلداً سيفه ، وطمأنهم قائلاً لهم : لن تراعوا (أى لا تخافوا)

وعرف عليه الصلاة والسلام بأنه فى جميع غزواته كان ثابتاً فى مكانه وجهاده ، حتى عاد المؤمنون وانتصروا على أعدائهم المشركين

٩ — صبره وثباته وصدق عزيمته . قد اتصف صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وشدة الاحتمال ، فكان لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً ، وعلى إسراف الجاهل إلاّ حلماً ، لقى فى سبيل الله تعالى الشدائد ، وتعرض للمكاره ، وهو لا يزداد إلّا ثباتاً ومَضاء وإقداماً

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« لا تحل البأساء منه عرى الصـــبر ولا تستخفه السراء »

طلب كفار قريش إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يكف عن الدعوة إلى الإسلام ، وهددوه بالقتل ، ونصح له عمه أبو طالب بأن يوافقهم على ماطلبوا ، فلم يقبل

وقال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هـذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

ولقى صلى الله عليه وسلم من ضروب الإيذاء والإهانة من العرب شيئاً كثيراً كما مرّ ذكره ، ولم يحد عن مبدئه ؛ بل كان صلى الله عليه وسلم مثال الثبات ، وصدق العزيمة

١٠ — شفقته ورأفته — كان عليه الصلاة والسلام شفيقاً رءوفاً

فمن أمثال شفقته : أنه وجد عليه الصلاة والسلام هرّة عطشى فأمال لها الإناء حتى شربت

وركبت زوجه السيدة عائشة رضى الله عنها جملاً وصارت تحثه على الإسراع فى السير ، فقال لها عليه السلام : عليك بالرفق

ويكفى فى ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة

١١ — حلمه وعفوه عمن أساء إليه . آذاه المشركون يوم أحد ، وشجوا وجهه ، وكسروا رباعيته ، فقال له أصحابه : لودعوت عليهم ؛ فقال : إنى لم

أبعث لعّاناً ؛ ولـــكن بعثت داعياً ورحمةً ، اللّهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون

آذاه المشركون من قريشٍ ، فأخرجوه من دياره وقاتلوه ، فلما فتح مكة عفا عنهم تفضلاً منه ورحمةً ، وما زاد على أن قال لهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً (أخ كريم ، وابن أخ كريم)

قال : اذهبوا فأنتم الطُّلقاء

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبُهُ الإغضاء »

« وسع العالمين علماً وحلماً فهو بحر لم تعيه الإعياء »

ولا شك أن هذا منتهى الحلم ، والعفو عند المقدرة

لقد أراد بعض أعدائه أن يفتك به ، فتصدى له وهو قائل وحده (نائم) فى ظل شجرة وقت الظهر ، فلم ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ والرجل قائم والسيف مصلت فى يده فقال : مَن يمنعك منى ؟ قال : الله ! فسقط السيف من يده فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : مَن يمنعك منى ؟ قال : كُن خَير آخذ ، فتركه وعفا عنه

فرجع الرجل إلى قومه فقال لهم : جئتكم من عند خير الناس

١٢ — حسن معاملته — بُعث النبى صلى الله عليه وسلم فى قوم متنافرين متباغضين ، كالوحوش الضارية فى طباعهم الخشنة ، فاحتمل

جفوتهم ، وصبر على أذاهم ، وقابل إساءتهم بالإحسان إلى أن انقادوا إليه وأحبوه أكثر من أنفسهم وأبنائهم ، وهجروا فى رضاه أوطانهم ، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله وتركوه ، كما قال الله تعالى له :

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران

كان صلى الله عليه وسلم يزور أصحابه ، ويعود المرضىٰ منهم ، ولا يردّ دعوة من يدعوه ، وما سُئل فى شىء قط فمنعه ، ولا يأنف أن يمشى مع الفقير والمسكين ، ويجلس مع المساكين وكان يقول :

« اللهم أحينى مِسكيناً وأمتنى مِسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين »

وعلى الجملة فقد كان صلى الله عليه وسلم مثالًا كاملًا للصفات الحميدة ، والأخلاق الفاضلة ، فهو رغم أنف كل معاند قوّال ، نبى الرحمة ، وبحر الحكمة وإمام الهدىٰ ، وعين الكمال .

أما صفاته الخلقية — فكان صلى الله عليه وسلم حسن الجسم ، معتدل الخلق ، متناسب الأعضاء سميناً مِسمناً متناسباً ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، عظيم الرأس ، سهل الخدين ، فى وجهه طول مع استدارة ، يتلألأ تلألؤ القمر ليلة التمام ، أبيض مشرباً بحمرة ، وأحسن وأصدق وصف للنبى ما قالته (أم مَعْبَد) العربية فى وصفه مع أنها ما كانت تعلم من أمره شيئاً وهو :

كلام أم مَعْبد تصف النبى

صلى الله عليه وسلم

مَرَّ ٱلنَّبِيُّ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ ٱلصِّدِّيقُ فِي هِجْرَتِهِمَا بِخَيْمَةِ أُمِّ مَعْبَدٍ ، فَرَأَى شَاةً أَضْعَفَهَا ٱلْهُزَالُ ، فَٱسْتَأْذَنَهَا أَنْ يَحْلُبَهَا فَأَذِنَتْ فَسَمَّى ٱللهَ وَدَعَا وَحَلَبَهَا فَدَرَّتْ فَمَلَأَ إِنَاءً وَسَقَاهَا وَسَقَى ٱلصِّدِّيقَ ثُمَّ شَرِبَ بَعْدَهُمَا ، ثُمَّ مَلَأَ ٱلْإِنَاءَ ثَانِيًا وَٱرْتَحَلَا فَأَقْبَلَ أَبُو مَعْبَدٍ يَسُوقُ أَعْنُزًا عِجَافًا يَتَسَاوَيْنَ هُزَالًا ، فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ لَكِ هٰذَا وَلَا حَلُوبَةَ فِي ٱلْبَيْتِ ؟ فَقَالَتْ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ وَذَكَرَتْ قِصَّتَهُ فَقَالَ : صِفِيهِ ، فَقَالَتْ : إِنَّهُ ظَاهِرُ ٱلْوَضَاءَةِ ، أَبْلَجُ ٱلْوَجْهِ ، حَسَنُ ٱلْخَلْقِ ، لَمْ تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ (١) ، وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ (٢) ، وَسِيمٌ (٣) ، قَسِيمٌ (٤) ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ (٥) ، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ (٦) ، وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ (٧) ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ (٨) ، أَحْوَرُ (٩) أَكْحَلُ (١٠) أَزَجُّ (١١) أَقْرَنُ (١٢) ، شَدِيدُ سَوَادِ

---

(١) ثجلة : عظم البطن (٢) صعلة : دقة الرأس والعنق (٣) وسيم : حسن الوجه (٤) قسيم : معتدل (٥) دعج : سعة سوداء العين (٦) وطف : كثرة الشعر (٧) صحل : خشونة (٨) سطع : طول (٩) أحور : شديد بياض العين وسوادها (١٠) أكحل كأن بعينه كحل (١١) أزج : رقيق الحاجب (١٢) أقرن : مقرون الحاجبين

الشَّعرِ ، إذَا صَمَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ عَلَاهُ الْبَهَاءُ ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُمْ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَحْسَنُهُمْ وَأَحْلَاهُمْ مِنْ قَرِيبٍ ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ فَصْلٌ(١) ، لَا نَزْرٌ(٢) وَلَا هَذْرٌ(٣) ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتٌ نُظِمْنَ يَتَحَدَّرْنَ رَبْعَةٌ(٤) ، لَا تَقْحَمُهُ عَيْنٌ(٥) مِنْ قِصَرٍ ، وَلَا تَشْنَؤُهُ(٦) مِنْ طُولٍ ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا ، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ ، إِذَا قَالَ أَسْتَمِعُوا لِقَوْلِهِ ، وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ ، مَحْفُودٌ(٧) مَحْشُودٌ(٨) ، لَا عَابِسٌ(٩) وَلَا مُفَنَّدٌ(١٠) . قَالَ أَبُو مَعْبَدٍ : لَنَتَّبِعَنَّهُ ، فَلَحِقَا بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسْلَمَا .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجرى فى وجهه ، ولا رأيت أحداً أسرع مشيةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الأرض تطوىٰ له ، إنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث ، بل يمشى على هينة فيقطع من غير جهد ما لا نقطعه بالجهد .

---

(١) فصل : بين بليغ (٢) لانزر : لاقليل (٣) ولا هذر : لاكثير باطل
(٤) ربعة : لا طويل ولا قصير (٥) لاتقحمه عين : لا تحتقره ولا تزدريه
(٦) لا تشنؤه : لا تبغضه (٧) محفود : مخدوم بسرعة (٨) محشود : مطاع يخف الناس لخدمته (٩) لا عابس : غير مقطب الوجه (١٠) لامفند : لا يفند ، ولا يكذب رأيه

وقال الشاعر الشهير (حسان بن ثابت) فى وصفه صلى الله عليه وسلم :

« وأحسنَ منك لم تر قط عينى وأجملَ منك لم تلد النساء »
« خُلقت مبرا من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء »

وقال البوصيرى فى وصف محمد صلى الله عليه وسلم :

« رحمةٌ كله وحزم وعزم ووقار وعصمة وضياء »
« لا تحل البأساء منه عرى الصبـ ـر ولا تستخفه السراء »
« كرمت نفسه فما يخطر السو ء على قلبـه ولا الفحشاء »

وقال أحد الشعراء حثاً على اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام :

« يا مَن يريد نجاته يوم الحسا ب من الجحيم ومَوقد النيران »
« اتبع رسول الله فى الأقوال والـ أعمال لا تخرج عن القرآن »
« فالربُّ ربٌّ واحـد وكتابه حقٌّ وفهم الحق منه دان »
« ورسوله قد أوضح الحق المبيـ ـن بغاية الإيضاح والتبيان »

وقد مدحه أحد الشعراء الأفاضل فى قصيدة له فقال :

« نبيٌّ قد رأى مولاه جهراً وحسن سناه يزرى بالهلال »
« وتمم للمكارم فهو حقاً كمال فى كمال فى كمال »
« أتى والجاهليـة فى شقاء وجلّ القوم يرتع فى ضلال »
« فبدّد شملهم وحظى بنصر وأظهر للملا خير الفعال »

« وأعطاه المهيمن ما تمنّى وأيّده بأبطال الرجال »

« فأضحت مِلة الإسلام تعلو بتعضيد الصحابة خير آل »

« فكونوا مثلهم يا قوم تحظوا وتكتسبوا غداً أشرف المعالى »

« وتكرار الصلاة على النهامى كذا صحب ذوو الهمم العوالى »

« ووفقنا لما يرضيك ربى وكمل فى الختام نجاح حالى »

محاضرة دينيـــة

فى خلاصـة السيرة المحمدية

المؤلف ألقاها فى جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية

لما كانت سيرة سيد الأنام، عليه أفضل الصلام والسلام، أهم ما يُتلى فى ليلة مولده، وأعظم درس لتثقيف العقول، وتهذيب النفوس، وأقوى غرس يزرع فى قلوب المسلمين، محبة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم رأيت أن أتلو على حضرتكم خلاصة سيرته أمدّنا الله بمحبته ووفّقنا وإياكم للعمل بسنته.

وها أنذا أشنّف الأسماع بفرائد من نسبه وحسبه ومزايا قومه وعشيرته، وأخبار مولده وتربيته، وكيفية معيشته فى نفسه وسيرته مع أهله تمهيداً لبيان المقصد الأهمّ الأعظم وهو نبأ بعثته صلى الله عليه وسلم، مستمداً ذلك من الكتاب والسنة الثابتة الصحيحة عند المحدّثين وما تمسّ الحاجة إليه مما أثبته ثقاة المؤرخين ليعرف قدر الإصلاح العظيم الذى أرسل به هذا النبى الكريم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم.

نسبه الشريف الطاهر

أولاً — من جهة أبيه

نبينا العربيّ الهاشميّ القرشيّ أكرم العرب نسباً وأشرفهم حسباً هو محمد بن عبد الله . بن عبد المطلب . بن هاشم . بن عبد مناف . ابن قصيّ . بن حكيم . بن مُرّة . بن لُؤَيّ . بن غالب . بن فهر . بن مالك . ابن النضر . بن كنانة . بن خزيمة . بن مدركة . بن إلياس . بن مُضَر . ابن نِزَار . بن مَعَدّ بن عدنان .

ويتصل نسب عدنان هذا بسيدنا إسماعيل ابن سيدنا ابراهيم عليهما الصلاة والسلام

ثانياً — من جهة أمه

أمّه آمنة بنت وهب . بن عبد مناف . بن زهرة . بن حكيم الذى هو الجد الخامس للنبى عليه الصلاة والسلام وكانت سيدة قومها .

حمله ووفاة أبيه ومحل ولادته

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه فزوّجه آمنة بنت وهب وسنه ثمانى عشرة سنة وهى يومئذ أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً .

فلما دخل عليها حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول رجب

وبعد شهرين من حمله توفى أبوه فى المدينة عند أخواله بنى النجار وعمره ١٨ سنة وكان قد ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة المنورة وهو راجع فدفن فيها ، ورأت أمه أثناء حملها به كأنّ نوراً خرج منها أضاءت له بُصْرَى من أرض الشام وقد تمثّل هذا النور لعينيها حين أخذها المخاض فوضعته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام

ولادته

وُلد صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة فى ثانى عشر من ربيع الأول فى عام الفيل سنة ٥٧١ ميلادية أى العام الذى حبس الله فيه الفيل عند دخوله مكة لهدم الكعبة كما كان يقصد أبرهة قائد جيش النجاشى فدمّرهم الله أشنع تدمير وجعل كيدهم فى تضليل إكراماً لولادته عليه الصلاة والسلام

وقد ذكر الله القصة فى القرآن الكريم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ .

فأراح قريشاً من عناء مقاومتهم .

وكانت ولادته فى دار أبى طالب بشعب بنى هاشم وكانت قابلته (الشفاء) أم عبد الرحمن بن عوف

ولما وُلد أرسلت أمه لجده تبشره فأقبل مسروراً وسماه (محمداً) ولم يكن هذا الاسم شائعاً قبل عند العرب ، ولكن أراد الله أن يحقق ما قدره وذكر فى الكتب التى جاءت بها الأنبياء كالتوراة والإنجيل فألهم الله جده أن يسميه بذلك انفاذاً لأمره . وكانت حاضنته (أمّ أيمن بركة) الحبشية أمة أبيه عبد الله

وقد دلت الروايات على اتصافه حين الولادة بصفات تليق بمقامه السامى إذ وُلد نظيفاً مدهوناً مكحولاً يعلوه النور والبهاء رافعاً رأسه رامقاً بطرفه إلى السماء

وفى ليلته شاهد كثيرون ما يدل على شرفه وعظم قدره من الآيات الباهرات مثل تنكيس الأصنام . وارتجاج الإيوان (اهتزاز القصر الهائل الذى كان لكسرى حتى انشق سقفه وسقط من زينته أجزاء) . وخمود نار فارس (انطفاء النار التى كانت دولة الفرس تعبدها وكان لها ألف عام لم تخمد) . إلى غير ذلك من العجائب والآثار . وقال فى حمله وولادته (حسان بن ثابت) الشاعر العظيم :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت ... مثل الرسول نبى الأمّة الهادى

وقال شاعر مصر شوقى بك :

وُلد الهادى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء

(الروح) والملأ الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراء

والعرش يزهو والحظيرة تزدهى ... والمنتهى والسدرة العصماء

وحديقة الفرقان ضاحكة الرُّبَا بالترجمان شذية غنّاء
والوحيُ يقطرُ سلسلاً من سلسل واللوحُ والقلمُ البديع رُواء
نظمت أسامى الرسل فهى صحيفة فى اللوح واسم (محمد) طغراء
اسم الجلالة فى بديع حروفه اسم هنالك واسم (طه) البـاء

وهى قصيدة طويلة تقع فى أكثر من مائتى بيت يقال لها الهمزية فمن أراد أن يقرأها فليطلع عليها فى ديوانه المطبوع

رضاعه ومرضعاته وفطامه

لما وُلد عليه الصلاة والسلام أرضعته أمه ثلاثة أيام ثم (ثُوَيْبة) مولاة عمه أبى لهب عدة أيام ثم (حليمة السعدية) التى اختارها جده عبد المطلب مرضعةً له وهى من قبيله (هوازن) المشهورة فى العرب بالرأفة وكمال الشرف فأخذته ورجعت إلى قومها (بنى سعد) وكان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم فى البوادى لأن ذلك أنجب للولد . وكانوا يقولون : أن المربى فى المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة

أقام صلوات الله عليه وسلامه مع حليمة فى بنى سعد إلى أن أتم الرابعة من عمره فردّته إلى أمّه . وكانت مدة إقامته عندها مدة سعد ورخاء وخصب وهناء

حادثة شق الصدر

وحصل له عليه الصلاة والسلام وهو فى بيت حليمة السعدية حادثة مهمة وهى شق صدره وإخراج حظ الشيطان منه فأحدث ذلك عند حليمة خوفاً فردته إلى أمه وحدثتها قائلة :

بينما هو وإخوته فى بُهم لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لى ولأبيه ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (يحركانه بسوط) فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه منتقعاً لونه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له مالك يابنىّ ؟

فقال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض . فقال : أحدهما لصاحبه أهو هو قال : نعم . فأقبلا يبتدرانى فأضجعانى فشقّا بطنى فالتمسا فيه شيئا فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ما هو ؟

حضانته وكفالته ووفاة أمه وجده

ثم إنّ أمه أخذته منها وتوجهت إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى ابن النجار وبينما هى عائدة أدركتها منيتها فى الطريق فماتت بالأبواء (قرية بين مكة والمدينة) فحضنته أمّ أيمن وكفله جدّه عبد المطلب ورقّ له رقةً لم تعهد له فى ولده لما كان يظهر عليه مما يدل على أن له شأناً عظيماً فى المستقبل وكان يكرمه غاية الإكرام .

ثم لما بلغ ثمانى سنين توفى جده عبد المطلب فقام عمه أبو طالب بكفالته واعتنى به اعتناء كبيراً حتى قدمه على أولاده فى كل شىء عملاً بوصية أبيه عبد المطلب له حيث قال فيها :

أوصى أبا طالب بعدى بذى رحم (محمد) وهو فى النـــاس محمود

فاحذر عليه شرار الناس كلهم والحاسدين فإن الخير محسود

وكان صلى الله عليه وسلم فى مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن كل نقص ولهو مما تميل إليه الأطفال عادةً . وببركته أصبح عمه فى سعة من العيش بعد أن كان فى ضيق .

رحلته الأولى للشام

ولما بلغ صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام عزم عمه أبو طالب على السفر إلى الشام فى تجارة له فتعلق النبى صلى الله عليه وسلم بعمه فطيب خاطره وأخذه معه فى سفره لشدة حبه له ، وهنالك رآه الراهب (بحيرى) و بشر به عمه أبا طالب إذ قد رأى فى النبى صلى الله عليه وسلم علامات يعرفها من الكتب المقدسة التى بين يديه وأوصاه بالعناية به وحذره شديد التحذير عليه وقال له : سيكون لهذا الغلام شأن عظيم وسيبعثه الله رحمةً للعالمين .

ولما بلغ سنه عليه السلام عشرين سنة حضر مع قريش حرب الفجار فكان يجمع السهام لأعمامه بها ويرمى معهم فكلل الله عملهم بالنصر على أعدائهم الذين انتهكوا إذا ذاك حرمات البيت المعظم عند جميع العرب .

رحلته الثانية إلى الشام وزواجه من خديجة

ولما بلغ عليه السلام خمساً وعشرين سنة سافر إلى الشام مرةً ثانيةً فى تجارة (لخديجة) بنت خويلد ومعه (ميسرة) غلامها فعرفه الراهب (نسطورى) وقال : هذا آخر النبيين ليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج .

ثم حضروا سوق بُصْرى وباعوا واشتروا فربحوا ضعف ما كانوا يربحون.

فلما عادوا ورأت (خديجة) ربحها العظيم وعرفت أمانته وصدقه وشاهدت بعض علامات النبوة وأخبرها غلامها (ميسرة) بكلام الراهب . وبما رآه بنفسه بعثها ذلك إلى الرغبة فى التزوج به ، وهى من أعاظم قريش نسباً وحسباً وأكثرهم مالا وثروةً . وكانت أعقل وأكمل امرأة فى قريش حتى كانت تدعى فى أيام الجاهلية (بالطاهرة) لما لها من الصيانة والفضائل الظاهرة. فلا غرو أن رغبت بعد أن علمت ما علمت أن تتخذ (محمداً) صلى الله عليه وسلم بعلاً لها. وكم عظيم خطبها وبذل لها الأموال الطائلة فأبت ولكن لما خطبها أبو طالب لمحمد أجابت لما توسمته فيه من الخير والبركة فتزوجها وهى بنت أربعين بعد

(أبي هالة) المتوفى عنها وعن ولدها (هند) الذى هو ربيب المصطفى ولم يتزوج غيرها حتى توفيت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين . وكان عليه السلام يحبها كثيراً ويذكرها بكل خير ويعطف على أقاربها ويبش فى وجوه أصحابها . وهذا هو الوفاء الكامل اللائق بهذا النبى الكريم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم . ورزق منها (بفاطمة وزينب ورقية وأم كلثوم وعبد الله والقاسم) ثم رزقه الله بولد آخر من مارية القبطية يدعى (إبراهيم)

ولما بلغ سنه خمساً وثلاثين سنة وشرعت قريش فى بناء الكعبة كان عليه الصلاة والسلام ينقل الحجارة من الجبل مع أشراف مكة . وعندما أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه اختلفوا وتنافسوا تنافساً شديداً كاد أن تكون عاقبته الحرب لولا أن (أبا أمية المخزومى) الذى كان أكبرهم سناً قال : لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضونه فاتفقوا على أول داخل من باب بنى شيبة فإذا الداخل (محمد ﷺ) فاطمأن الجميع له وقالوا : هذا الأمين وكلنا نرضى بقضائه لأنه من حداثة سنه كان مشهوراً بينهم بالأفعال الصالحة والأعمال السديدة من الحلم والصبر والعدل والزهد والحياء والصدق والعفاف والأمانة حتى إنهم لقبوه (بالأمين) من صغره .

فلما أخبروه الخبر بسط رداءه ووضع الحجر فيه وقال : لتأخذ كل قبيلة من طرف ففعلوا واحتملوه حتى إذا انتهوا إلى موضعه أخذه عليه الصلاة والسلام ووضعه بيده الشريفة فى موضعه المعروف

حالة معيشته قبل النبوة

نشأ فى حال صغره يتيماً فقيراً فكفله جده ثم عمه ولما قوى على العمل اشتغل بحرفة الأنبياء قبله وهو رعاية الغنم لأهل مكة على بعض منها . ثم اشتغل بالتجارة مع عمه . ولما تزوج خديجة عمل فى مالها فكانت معيشته كلها من كسب يده ، ولم يكن عالة على غيره بل كان معتمداً على نفسه وربه فحقق بذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ .

كيفية الرسالة

لما بلغ صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رسولًا إلى الخلق أجمعين ليخرجهم من الظلمات إلى النور وذلك أنه كان يتعبد فى غار حِراء (جبل قريب من مكة) على دين إبراهيم عليه السلام .

وبينما هو معتكف فيه يوم الاثنين ١٧ رمضان إذ ظهر له المَلَك وقال: يا محمد أبشر أنا جبريل وأنت رسول الله إلى هذه الأمة . ثم قال له : اقرأ . فقال : ما أنا بقارئ (لأنه لم يتعلم القراءة) فضمه ثم قال له : اقرأ . فقال : ما أنا بقارئ . فضمه أيضاً . ثم قال له : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ

ٱلْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمْ عَلَّمَ ٱلْإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ :

فقرأها . وهذا أول ما نزل من القرآن الكريم على هذا النبيّ العظيم .

ثم رجع إلى خديجة يرجف فؤاده من الخوف . وقال : زمّلونى زمّلونى (أى لفونى فى ثوب) فزمّلوه حتى ذهب عنه الخوف . ثم أخبر خديجة بما جرى وقال : لقد خشيت على نفسى .

فقالت : كلا والله لا يُخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر (الحق) فلا يسلط الله عليك الشياطين أو الأوهام ولا مراء أن الله اختارك لهداية قومك .

ثم انطلقت به إلى (ورقة بن نوفل) لأنه كان أعلم العرب إذ ذاك بما فى الكتب العبرانية فأخبراه الخبر فقال وَرَقَة : هذا الناموس (الوحى أى جبريل) الذى أنزل على موسى ليتنى أكون حيّا إذ يُخرجك قومك . فقال النبى : أَوَمُخرِجِيَّ هم . قال ورقة : نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلّا عُودِىَ وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً (شديداً) .

ثم احتبس عنه الوحى مدة ثم نزل بقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾

معنى هذه السورة : يا أيها المتلفف بالثوب قم خوّف الناس من عبادة غير الله وعظمه ونظف ثيابك واترك أسباب القذر والعذاب ولا تعط شيئاً واصبر على الأذى .

فقام عليه السلام يدعو قريشاً إلى عبادة ربه ويرشدهم إلى النور الذى جاء به . فأجاب دعوته ذوو العقول السليمة . وبادروا بتصديقه .

أول من اسلم ودعوة الناس للاسلام سراً ثم جهراً

وكان أول من سطع نور الإسلام على قلبه خديجة وعلىّ بن أبى طالب وزيد بن حارثة وأبو بكر الصديق الذى أخذ يدعو للإسلام من يثق بهم من قريش فأسلم عثمان بن عفان وابن العوام وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من أشراف مكة .

ثم مكث الرسول يدعو للاسلام سراً حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ .

فجهر بالدعوة ونادى فروع قريش فاجتمعوا إليه فقال :

أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِىّ ؟

قالوا : نعم . ما جربنا عليك كذباً .

قال : إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد وإنى رسول الله إليكم خاصةً وإلى الناس كافةً ؟

فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا وهزأ به .

فأنزل الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . . . إلى آخر السورة ﴾ .

تحمله إيذاء قريش وحماية عمه له

ثم أخذت قريش تسخر منه وتؤذيه وتضيق عليه وهو مع قلة رجاله وماله لا يصده عن الدعوة إلى الإسلام شيء .

وكان عمه أبو طالب يدافع عنه ويحميه من غوائلهم ويميل إلى ما جاء به من الدين ولم يمنعه من إظهار الإسلام إلا الحياء من قومه ولذا قال :

ولقد علمتُ بأن دينَ محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذارى سُبَّة ... لوجدتنى سَمحاً بذاك مبينا

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسَّد فى التراب دفينا

* * *

ثم ازداد الحقد والعداء حين أسلم عمه حمزة وعمر بن الخطاب وكانا من أشد المعارضين له فعزز الله بهما الإسلام وحمى بهما رسول الله عليه السلام فاغتاظت قريش وصارت تعذب كل من آمن به بأنواع العذاب .

الهجرة إلى الحبشة

ولما اشتد إيذاء الكفار لأصحابه أذن لكل من ليس له عشيرة تحميه بالمهاجرة إلى الحبشة فهاجر إليها من هاجر ومنهم سيدنا عثمان وزوجته رقية بنت الرسول

وهذه أول هجرة وقعت فى الإسلام بعد الرسالة بخمس سنين

وكان ممن هاجر إلى الحبشة أيضاً فى المرة الثانية جعفر بن أبى طالب

خروجه إلى الطائف بعد وفاة أبى طالب وخديجة

ولما بلغ خمسين سنة توفى عمه أبو طالب وبعده بقليل توفيت السيدة خديجة فقويت شوكة قريش فاشتد العداء وازداد الإيذاء ومع ذلك كان عليه السلام يلاطفهم ويستميل قلوبهم طمعاً فى هدايتهم فلم يزدادوا إلا طغياناً وعناداً فخرج من مكة ومعه غلامه زيد بن حارثة إلى (الطائف) مستنجداً بأهلها لأن له بهم قرابة فعرض عليهم الإسلام وطلب منهم نصرته فلم يجيبوا بل أخرجوه وسلطوا عليه الغلمان والسفهاء يؤذونه ويرمونه بالحجارة حتى أدموا وجهه وشجوا رأسه مع أن زيداً كان يدافع عنه ويقيه بنفسه فلما وصل إلى شجرة هناك قعد يستظل تحتها فرآه (ابنا ربيعة) على تلك الحالة وهما فى بستانهما فرقا له مع أنهما كانا من ألد أعدائه وأرسلا له قطفاً من عنب مع غلام لهما .

فلما شرع يأكل منه قال : بسم الله الرحمن الرحيم . فقال الغلام : هذا الكلام ما يقوله أهل هذه الجهة

فقال النبى : من أى البلاد أنت وما دينك ؟

فقال : نصرانى من ينوى (بلد فى حدود العراق)

فقال عليه السلام : قرية الصالح (يونس بن متى) .

فقال الغلام : ومن أعلمك بيونس بن متى ؟

فقال النبى : ذاك أخى ونبىّ قبلى ثم قرأ الآيات التى فى قصة يونس فى الصافات فما سمع الغلام القرآن حتى أسلم .

ثم نزل جبريل وقال : يا محمد . إن الله أمرنى أن أطيعك بما تأمر به فى قومك لما صنعوه معك .

فقال عليه السلام : أرجو أن يا جبريل يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله . اللّهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون .

فقال جبريل : صدق من سمّاك الرؤوف الرحيم .

« من هذا كله تعلم كيف كانت درجة أخلاقه الفاضلة وشمائله الفائقة وحرصه على هداية قومه ورحمته بهم وشفقته عليهم مع شدة إيذائهم له وقوة تحمله الأذى وصبره على المكاره »

ثم دخل مكة ثانياً وصار يدعو بما أمره به ربه غير مكترث بتهديد قريش

وسعيهم فى إبطال مسعاه (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

الإسراء والمعراج

ولما بلغ الرسول اثنين وخمسين سنة أسرى به ليلة السابع والعشرين من رجب من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (بيت المقدس) وصلى فيه بالأنبياء وعُرِج به (صعد) إلى السموات العلى فرأى ما رأى من آيات ربه الكبرى . وفرض عليه وعلى أمته خمس صلوات فى اليوم والليلة

ثم رجع من ليلته وأصبح يخبر قومه بما رأى وشاهد فصدقه بعض قريش وكذبه آخرون فأيده الله بالمعجزات التى طلبوها منه . منها وصفه بيت المقدس على ما كان عليه وصفاً حقيقياً مع أنه لم يره من قبل . ومنها إخباره عن حالة العير (الإبل التى تحمل التجارة) التى كانت لهم بالشام . وعن عدد إبلها . وقال لهم : ستقدم عليكم مع غروب شمس يوم كذا يقدمها جمل أورق (لونه بين البياض والسواد) فظلوا ينتظرونها حتى جاءت كما وصف فلم يزدادوا إلا كفراً وعناداً وقالوا : هذا سحر مبين .

لما رأى عليه الصلاة والسلام استمرار قريش على عدم الإجابة لدعوته والاهتداء بهديه وعلى التمادى فى إيذائه قام يعرض نفسه على قبائل العرب فى المواسم لعل يجد فيهم من يحميه ويعينه على تبليغ أوامر ربه فمنهم من نأى

وأعرض . ومنهم من أجاب الدعوة كرؤساء العرب من أهل يثرب (المدينة) الذين أسلموا وبايعوه على النصرة والاعانة . وذلك عند العقبة بمنى (وهى بيعة العقبة الأولى) . ثم لما رجعوا الي بلدهم أخبروا قومهم به فصدقوا وآمنوا وشاع خبر الرسول فيما بينهم ثم بعثوا له بأن يرسل لهم من يعلمهم دينهم فأرسل (مصعب بن عمير) رضى الله عنه وأمره بأن يعلمهم الدين والقرآن فلم تمض مدة حتى انتشر الإسلام فى المدينة حتى لم يبق بيت من بيوتهم إلّا وللنبى صلى الله عليه وسلم ذكر فيه

ولما جاء الموسم الثانى وفد منهم كثيرون للحج فاجتمعوا بالرسول وقالوا له خذ علينا من العهود لنفسك ولربك ما أحببت فإننا على الوفاء والصدق وبذل المهج دونك

فقال لهم : أشترط لربى أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً . ولنفسى أن تمنعونى مما تمنعون به نساءكم وأبناءكم متى قدمت عليكم

فبايعوه على ما طلب عند الموضع الأول (وهى بيعة العقبة الثانية)

الهجرة إلى المدينة المنورة

ولما بلغ عليه الصلاة والسلام ثلاثاً وخمسين سنة وأخذ الإسلام ينمو فى بعض القبائل واشتد إيذاء الكفار له ولأصحابه حتى رأى ما لم يره فى سائر

حياته أمره الله بالهجرة إلى المدينة المنورة التى كان أسلم أغلب أهلها فأذن للمسلمين بالمهاجرة إليها فهاجر خلق كثيرون منهم سيدنا عمر وأخوه زيد وعمار ابن ياسر و بلال وسعد بن أبى وقاص وعثمان بن عفان حتى لم يبق بمكة مع الرسول وأهل بيته إلا القليل منهم سيدنا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق فلما أحسّ كفار قريش بأن الرسول سيهاجر أيضاً تآمروا على قتله قبل أن يهاجر فأطلعه الله على سرهم فاتفق مع أبى بكر أن يجهزا للخروج من مكة إلى المدينة

كيفية الخروج من مكة

جهز سيدنا أبو بكر للسفر راحلتيه واشترى منه الرسول إحداهما ثم أودعاها عند رجل استأجراه ليدل بهما إلى المدينة ووعداه غارَ ثَوْرٍ (جحر فى جبل بينه و بين مكة نحو ميلين) بعد ثلاث ليال . ثم اتفق النبى مع أبى بكر على المقابلة ليلاً خارج مكة . وكانت تلك الليلة موعد تنفيذ قريش ما تآمروا عليه من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاجتمعوا حول البيت الذى بات فيه الرسول . وصاروا يرددون النظر من شقوق الباب حتى إذا نام يدخلون عليه ليقتلوه

فلما أراد الخروج أمر سيدنا عليًا بأن ينام مكانه فنام وغطاه ببردته ليخفى

الأمر على القوم . ثم تحصن بالله وخرج عليهم ناثراً التراب على رؤسهم فلم يشعر به أحد فقابله أبو بكر فى الموعد وسارا حتى دخلا الغار ليلاً وكمنا فيه .

فلما همّ القوم بالقتل دخلوا البيت فوجدوا النائم علىّ بن أبى طالب لا محمد بن عبد الله فاغتاظوا غيظاً شديداً . واقتفوا الأثر الذى انقطع عند الغار فتحيروا فى أمرهم، ولم يهتدوا حيث أعمى الله بصرهم عن النظر فى الغار بنسج العنكبوت وتعشيش الحمامتين على فمه ، فرجعوا خائبين وجعلوا مكافأة كبيرة لمن دل عليهما .

ولما جاء الدليل بالراحلتين فى الميعاد ، ركبا وسارا فلحق بهما (سراقة بن مالك) الذى طمع فى أخذ المكافأة من قريش ، وأراد أن يتعرض لهما فغاصت يدا فرسه فى الأرض الصماء ، فاستجار بالنبى فأجاره على أن يرجع فرجع . ولكن حدثته نفسه بالمكافأة ، فكرّ عليهما ثانياً فغاصت قوائم الفرس الأربع إلى الركبتين ، فطلب منهما الأمان ، وتعهد بأن يردّ عنهما جيش العدو فعفا عنه الرسول وأشار إلى الفرس فنهضت فركبها ورجع كما جاء .

من هذه القصة تعلم مقدار حماية الله لرسوله ، وخيبة أعدائه ، ومحبة سيدنا على له حيث عرض نفسه لفدائه ، وتعلم مقدار حلم الرسول على قومه وصبره على الأذى وحسن معاملته لطالب الغدر به ، حيث عفا عنه مع قدرته إذ ذاك على الانتقام . وتعلم أيضاً مقدار صداقة أبى بكر وصحبته ومحبته للرسول عليه الصلاة والسلام

الوصول إلى المدينة المنورة

ثم سار النبى وصاحبه فى أمان ، حتى قربا من المدينة بعد ستة أيام ،وكان أهلها ينتظرونه لعلمهم بقدومه فإذا بيهودى ينادى بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا حظكم الذى تنتظرونه ، فتقلدوا بأسلحتهم وتلقوا الرسول مهللين مكبرين فعدل بهم ذات اليمين ونزل بقباء (موضع بجوار المدينة) على بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول . وأسس مسجد قباء الذى وصفه الله بقوله : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾

ثم تحول بعد ليال إلى المدينة والأنصار شاهرون السلاح محيطون به إحاطة الهالة بالقمر ، فما فرح أهل المدينة بشىء فرحهم برسول الله عليه الصلاة والسلام حتى أن البنات كن ينشدن أمام موكبه :

طلع البدر علينا من ثنيات[1] الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكان كل واحد منهم يود نزول الرسول بفنائه ويأخذ بزمام ناقته فقال لهم عليه الصلاة والسلام (خلوا عنها فإنها مأمورة) . فلما دخلت إلى فناء بنى

(١) طرفات الجبل التى يودع المسافر عندها

النجار أخوال أبيه بركت أمام دار أبى أيوب الأنصارى فأخذ أهل المدينة فى الترحيب بالرسول والمبالغة فى إكرامه وإكرام المهاجرين . ووازروه ونصروه فسموا بالأنصار ومن وفدوا عليه بالمهاجرين .

المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين

ولما استقر بالرسول المقام بالمدينة وبنى مسجده وداره قريباً من دار أبى أيوب الأنصارى أخذ يؤاخى المهاجرين والأنصار حتى صار كل أحد يفضل أخاه على نفسه فقويت بذلك عصبيتهم وهابهم القريب والبعيد . فعاش المهاجرون فى هناء وصفاء وأحبوا المدينة أكثر من محبتهم لوطنهم ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام .

من هنا تعلم شدة تعلق أهل المدينة بالرسول ، وعظم محبتهم له ولأصحابه واعتنائه بالمهاجرين . وأن القوة والشوكة لا تكون إلاَّ بالاتحاد والتآلف .

وهذا هو السر فى التآخى الذى عقده عليه السلام بين المهاجرين والأنصار .

مبدأ التاريخ الإسلامى

لما كان لهجرته عليه السلام وتركه بلده وعشيرته شأن عظيم وبهاء ظهر الإسلام ظهور الشمس فى رابعة النهار بعد أن كان فى خفاء واستتار اختار سيدنا عمر بن الخطاب فى أيام خلافته أن يكون عام الهجرة مبدأً للتاريخ الإسلامى

الجهاد فى سبيل الله

مكث الرسول ثلاث عشرة سنة من مبعثه إلى هجرته يدعو الناس إلى الإسلام باللين والعرف مبشراً ونذيراً وصابراً على الأذى كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

ولما اشتد طغيان أهل مكة حتى تآمروا على قتله وأخرجوه من داره و بدأوا بالعداء والغدر وأصروا على العناد أمره الله بالقتال فقام يغزو و يجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الدين وهداية الناس إلى الطريق المستقيم القويم لا طمعاً فى ملك ولا رئاسة ولا مال ولا عرض من أعراض الدنيا . ولذا قال عليه الصلاة والسلام:

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »

وغزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة لم يبدأ فيها أحداً بالعداء بل كان لا يقاتلهم إلّا بعد الإنذار والتبشير فتبدوا منهم الغلظة والجفاء وحمية الجاهلية .

ولذا أيده الله بالنصر ونال منهم مالم ينله أحد مع قلة العَدد والعُدد وكثرة الأعداء وقوتهم .

* * *

فى السنة العاشرة من الهجرة حيث انتشر الإسلام واتسعت دائرته وعلت كلمته وأمنت الجهات خرج الرسول فى جموع كثيرة لأداء فريضة الحج فدخل فى مكة وأدّى نسكه ثم خطب يوم النحر بمنى خطبته التى بيّن بها الدين وأوضح معالمه وأكثر فيها من قوله :

(ألا هل بلّغت ليبلغ الشاهد منكم الغائب . اللهم اشهد)

ثم ودّع الناس فسميت تلك الحجة بحجة الوداع

* * *

وفى السنة الحادية عشرة من الهجرة أراد النبىّ غزو بلاد الروم فجهز جيشاً كبيراً وأمر عليه (أسامة بن زيد) وفى أثناء الاستعداد طرقه المرض الذى توفى فيه الرسول فلم تتم تلك الغزوة فى حياته وأتمها بعد وفاته أبو بكر خليفته فإنه عليه الصلاة والسلام بقى مريضاً حتى فارق الدنيا .

وذلك فى يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول من تلك السنة المتممة له ثلاثاً وستين سنة فدفن حيث قضى فى حجرة عائشة رضى الله عنها بالمدينة المنورة ومدفنه هناك يعرف (بالحرم المدنى)

فالسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً

شمائله وصفاته عليه الصلاة والسلام

كما وصفه المرحوم الشيخ (زكى الدين سند)

نبى الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال

لو سأل سائل عن (محمد) نبى الإسلام والمسلمين ؟ لأجيب : بأنه البحر الزاخر ، والبدر المنير ، والسراج الوهاج . والروح الذى تجلى عليه الوحى ، فجلى من أسرار الملك والملكوت شيئاً غريباً

والحق الذى سنده الحق ففتح فى الفضل والفضيلة والدين والدنيا فتحاً قريباً .

لازمته الرعاية قبل النبوة فكان أميناً فى الأرض ، أميناً فى السماء .

لاحظته العناية فى البعثة فكان مؤيد الحجة فى المحجة البيضاء .

سرى إليه المدد الأعلى ، فكان فى جميع الأقوال والأفعال

نبى الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

فطم عن ثدى السيدة حليمة ، لكن الأخلاق الكريمة ، والأذواق السليمة ، والأعراق القويمة لم يزل منها يرضع ، وفيها يرتع ، وعليها يترعرع ،

حتى نشأ والعناية له خادمة ، حتى طلع والهداية له ملازمة ، حتى سما وأشخاص الكمال فيه قائمة ، حتى نما وآيات الحق عليه حاكمة . حتى أشرقت شمس النبوة الكاملة ، وتدفقت ينابيع الحكمة الفاضلة .

فكان قبل النبوة وافر الأدب ، زاهر الحسب ، باهر الجلال ، وكان بعدها نبي الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

إذا كانت مبانى الأهرام دليلاً على قوة الأقدمين ، فمبانى الإسلام دليل على حكمة رب العالمين . ومعالى نبى الإسلام آية القدر العالى والفضل المبين .

دعا محمد دعوة الدليل الصادق إلى خير السبل ، وصبر على الإيذاء صبر أولى العزم من الرسل . برز وحيداً فريداً بين أجلاف جفاة . غلاظ شداد عتاه .

لا ناصر له إلا أن يضع سيف الحق فى رقاب الأباطيل ، لا مستمد له إلا أنه يترجم عن لسان الوحى الجليل .

لقى أشد ما يلقاه حق عن باطل ، وعالم من جاهل ، تدفقت ينابيع حكمته وبهرت الأبصار شمس رسالته ، وتغلغلت فى القلوب آيات شريعته

فأصبح الأعرابى الجلف حكيماً ، والعربى الغضوب حليماً . والقاسى الغليظ رحيماً ، والبخيل الحريص كريماً ، والمفتون بالدنيا زاهداً . والمشرك بالله عابداً والكسلان نشيطاً قوياً . والخامل نبيهاً ذكياً . والجاهل عالماً .

والمفرط حازماً ، والجبناء شجعاناً . والأعداء إخواناً .

جاء (محمد) وأوربا لم تبصر نور المدنية إلا فى سم الخياط . والشرق مقلوب الكيان يمسى فى افتتان و يصبح فى اختباط . والعرب نار الحمية من بين أيديهم تتوقد ، والعالم كله بصنوف الكوارث مهدد . والأخلاق على أقصى أنواع الوحشية وارادة الرعاة قد سلبت مختارات الرعية .

جاء (محمد) فلم يكن ملكاً حشد وحشر، ونهى وأمر ، بل نبياً حشد إلى الهدى عبيد الأضاليل . و إلى التوحيد عباد التماثيل ، و إلى الحق أبناء الأباطيل

حشر فى القلوب القاسية رأفةً ورحمةً . وفى الأخلاق الغليظة رقةً وحكمةً وفى الأرواح الخبيثة طهارةً وذمةً ، وفى الأشباح الفاترة نشاطاً وهمة

نهى عن إفشاء الأسرار ، ومصاحبة الأشرار ، والنظر إلى بيت الجار .

نهى عن أكل الأمانات ، وسب الأموات، وقذف المحصنات

نهى عن التنقير والتعسير ، والتغرير والتحقير ، والتبذير والتقتير

نهى عن الفحش والفحشاء ، والكذب والافتراء . والجدال والمراء . والسمعة والرياء

نهى عن التباغض والتنازع ، والتحاسد والتقاطع ، والتجالد والتصارع

نهى عن البذاءة والسب ، والمثلة والضرب ، والازدراء والعيب

نهى عن التشبه بالأعاجم ، والقسوة على البهائم ، والفرار من الملاحم

نهى عن الغيبة والاستماع ، والنميمة والنزاع ، والمكر والخداع ، وكل ردىء من العادات والطباع

أمر ببرّ الوالدين ، والعمل للدارين ، وحفظ اللسان والعين

أمر بصلة الأرحام ، وإلانة الكلام ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام

أمر بحفظ العهود ، ومراقبة الرب المعبود ، وملاحظة الوجود

أمر بالمساواة والعدل والتآخى والبذل ، والرفق والمهل

أمر بالصبر عند الصدمة ، والشكر على النعمة ، والجد فى الخدمة

أمر بما فيه سعادة العالمين ، وجور الرعايا والسلاطين

أمر على الجملة بمافيه صلاح الدنيا والدين

فهل بعد هذا يقال : إنه رجل ساحر محتال ؟ أو هو ملك عاقل كما قال من قال ؟

هو ولا جدال نبى الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال

أخلاقه : بشاشة فى لين ، إخلاص فى يقين ، عزيمة فى دين ، ذكر فى استغفار . دعاء فى إذكار ، سكينة فى وقار ، تعليم فى تهذيب ، تشريع فى تأديب

تدبير فى ترتيب ، إحسان فى معاملة ، لطف فى مجاملة ، إبتسام فى مقابلة

سداد رأى فى آراء ، صدق فى وفاء ، عفاف فى حياء .

صبر فى حلم ، حكمة فى علم ، حزم فى عزم ، فهم فى حزم .

عفو فى إحسان ، قوة فى برهان ، زهد فى تكلان

خشوع فى صلاة ، خنوع فى مناجاة ، قنوع فى حياة

معروف فى بر ، حفظ فى سر ، تؤدة فى كلام ، صيام فى قيام ، عدل فى أحكام ،

بذل فى سماحة ، عقل فى رجاحة ، قول فى فصاحة ،

خطارة فى شان ، تواضع فى سلطان ، توفيق فى مداراه ، صحت فى إناه

إيفاء بالعهد ، وفاء بالوعد ، حسن فى القصد ، رأفة بالمؤمنين ، رحمة بالمساكين .

عزة لا أخذاً بالصلف ، علو لا فخراً بالشرف ، سيادة لا عن مال ، فوز لا باحتيال ، أبهة فى جمال ، هيبة فى جلال

هو بالإجمال كما شهد الحق ، ودل الصدق ونطق الحال

نبى الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

حالته المعاشية

عاش محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يلبس حريراً ولا ذهباً، ولم يأخذ إلى الأبهة أهبةً ولا سبباً

لم يقل: أين سطوة الملوك وعترة السلاطين؟ بل قال: اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين.

لم يوح إليه: أن أجمع المال وكن من التاجرين المثرين؛ بل أوحى إليه: «أن سَبِّح بحمدِ ربكَ وَكُنْ منَ السَّاجدينَ. واعْبُدْ رَبَّكَ حتى يأتِيكَ اليَقِين»

ما جمع بين إدامين في طعام. بل أثنى على الملح والزيت والخل، وقال: نعم الإدام.

لم تمس يده يد امرأة أجنبية قط، ترفعاً عن مواطن الريبة وتشريعاً لأمته.

لم يغتسل عرياناً قط، حياء من الله وملاحظة لعظمته

كان لا يحقر مسكيناً لحاجته وفقره. ولا يهاب ملكاً لرفعة في قدره

كان يستحي من الله إذا أراد دخول بيت الخلاء، حتى كان يتقنع بردائه في شدة الحياء

كان يلبس ما وجد ، فمرةً جبة صوف ، ومرةً برد حبرة ، ومرةً ثوب قطن ، ومرةً شملة

كان يركب ما وجد ، فمرةً فرساً ، ومرةً بعيراً ، ومرةً حماراً ، ومرةً بغلةً

كان يأكل مع الفقراء والمساكين والخدم ، ويبش فى وجوههم ويفرح .

كان لايجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح . ويقابل السيئة بالإحسان

كان يساعد أهل بيته فى الخدمة ، كان يحتطب ثم يحمل الحطب وهو سيد الأمة .

كان يجلس حيث انتهى به المجلس حتى إنه لم يكن يُعرف من بين أصحابه

كان الأعرابى إذا جاء يسأل عن دينه لا يعرفه فيسأل عنه حتى يهتدى إلى جنابه

كان على رغم أنف كل معاند قوّال :

نبى الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال

شريعته

أما شريعته (عليه الصلاة والسلام) فحدث عنها ولا حرج . فانه لم يَشن مقام الإلهية باتحاد أو حلول أو صلب ، ولا مقام الأنبياء بزنا أو سكر أو سب ، ولم يضيق على النفوس بزوجة واحدة ، أو منع طلاق ، ولم يرض بفضيحة الاعتراف بالذنوب على الإطلاق .

شريعته على عينك ياتاجر . والسعيد مؤمن والشقى كافر . نعم الحق ماعليه من غبار، والصبح لا يضره الإنكار ، والناس على هدى أو فى ضلال مبين

﴿ ما عَلَى الرَّسولِ إلا البلاغُ المُبِين ﴾

هذا هو (محمد) صلى الله عليه وسلم وهذه سيرته ، وشريعته غربلوها وانخلوها لم تجدوا فيها غير الاعتدال والكمال ، وتعترفون بكل طاعةٍ و إمتثال إنه (محمد) نبى الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال .

خطبه

كان عليه الصلاة والسلام يخطب وهو واقف على الأرض ، وعلى المنبر ، وعلى البعير والناقة

وكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه .

وكان لا يخطب خطبةً إلا افتتحها بحمد الله ، وكان يخطب قائماً ، وكان يبدأ الناس بالسلام ، ويختم خطبته بالاستغفار . وكثيراً ما يخطب بالقرآن .

وكان مدار خطبه على حمد الله والثناء عليه ، وذكر الجنة والنار وتعليم قواعد الإسلام والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه

وكان منبره ثلاث درجات فإذا استوى عليه واستقبل الناس أخذ المؤذن فى الأذان فقط

وإذا خطب أخذ عصا فتوكأ عليها وهو على المنبر ، ويعتمد أحياناً على قوس ؛ ولم يؤخذ عنه التوكؤ على سيف . لأن الدين الإسلامى إنما قام بالوحى ومدينة النبى فتحت بالقرآن لا بالسيف

وكان إذا عرض له عارض اشتغل به ثم رجع لخطبته

وكان يقصر خطبته ويطيلها أحياناً حسب حاجته للناس

وكانت خطبته العارضة أطول من الراتبة .

وكان يخطب النساء على حدة فى الأعياد ويحرضن على الصدقة
وله خطب كثيرة نذكر منها الخطبة الآتية

خطبة له صلى الله عليه وسلم فى الوعظ

أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم

إن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به ، وبين آجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار .

موعظة نبوية من خطبه

اتقوا الله حق تقاته ، واسعوا فى مرضاته ، وأيقنوا من الدنيا بالفناء ، ومن الآخرة بالبقاء ، واعملوا لما بعد الموت فكأنكم بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل ألا وإن مَن فى الدنيا ضيف وما فى يده عارية ، وإن الضيف مرتحل ، والعارية مردودة ، ألا وإن الدينا عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر ، والآخرة وعد صدق يحكم فيها ملك قادر

فرحم الله امرأ نظر لنفسه ، ومهد لرمسه ، مادام رسنه مرخى ، وحبله على غاربه ملقى قبل أن ينفد أجله وينقطع عمله

وقال صلى الله عليه وسلم فيما أدب به أمته :

أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السرّ والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى مَن حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكراً ، ونطقى ذكراً ، ونظرى عبراً

وقال أيضاً : نهيتكم عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال

وقال : لا تقعدوا على ظهور الطرق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وأفشوا السلام ، واهدوا الضلال ، وأعينوا الضعيف

وقال : ألا أنبئكم بشر الناس ؟ قالوا : بلى يا رسول الله

قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده . ثم قال : ألا أنبئكم بشر من ذلك ؟

قالوا : بلى يا رسول الله . قال : من يبغض الناس و يبغضونه

وقال : اليد العليا خير من اليد السفلى فابدأ بمن تعول

وقال صلى الله عليه وسلم فى الحكم والآداب :

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . من لا يرحم لا يُرحم

آية المنافق ثلاث . إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان

إذا لم تستح فاصنع ماشئت

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه

المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

وقال أيضاً فى الحكم والآداب :

اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مسلماً . اطلبوا العلم ولو بالصين ، دَع ما يريبك إلى مالا يريبك . من دل على خير فله أجر فاعله . رضا الله فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخط الوالدين . طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة

(حكم جرت مجرى الأمثال من كلامه صلى الله عليه وسلم)

الدال على الخير كفاعله . زر غبًّا تزدد حبًّا . يد الله مع الجماعة . تهادوا تحابوا

ترك الشر صدقة . من غشنا فليس منا

جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها

احذروا من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره

هذا وأحاديثه صلى الله عليه وسلم كثيرة ولها كتب خاصة فى علم الحديث

الخـــاتمة

ونختم سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بشهادة أحد المسيحيين
بأنه أعظم رجل فى العالم ، والفضل ماشهدت به الأعداء

اقترحت جريدة الوطن البيروتية ، وصاحبها مسيحى ، على قرائها بأن يكتبوا إليها آراءهم فى أعظم رجل ظهر فى العالم ، ولماذا ؟

فأجابها كاتب من أحرار الطائفة المسيحية قائلاً :

أعظم رجال العالم على الإطلاق رجل وضع فى عشر سنين ديناً وفلسفةً ، وشريعةً اجتماعيةً ، وقوانينَ مدنية ، وغير شريعة الحرب ، وأنشأ أمةً ودولةً ، طاولت الدهر ، وكان أمياً ذلك هو :

محمـــد

ابن عبد الله بن عبد المطلب القرشى العربى نبىّ المسلمين

وقد تدارك النبى لمشروعه العظيم كل حاجاته ، فوفر لأمته ولتابعيه والملك الذى أنشأه أسباب الانتشار والخلود ، بحيث إذا انقطع المسلم إلى القرآن والحديث وجد فيهما مايهمه من أمور دينه ودنياه

وجعل للمسلمين مؤتمراً يعقد كل عام فى مكة (وهو الحج)

ومَن تنبه إلى فرض الحج على مَن يملك الراحلة والنفقة وإسقاطه عمن لا يملكها ، أدرك أن الغاية من الحج اجتماع الموسرين والوجوه من الأمة للبحث فى شؤون جامعتهم وأمور سياستها واجتماعها وتعاونها

وتدارك أمر الفقير بالزكاة المفروضة على كل مسلم ، بحيث إذا أداها المسلمون على حقها لم يبق فى الأمة فقير

وجعل نواة أبدية للإسلام بكون القرآن كتاباً عربياً يتحتم على كل مسلم أن يتفهمه بلغة العرب ، وإذا لم يكن فى هذا غير أن فهم العربية حتم على كل عالم وإمام لكفى به جامعة لسان للمسلمين

ومهد طريق النبوغ لأفراد الأمة بكون المسلم لا يفضل المسلم إلا بالتقوى ، فكان الإسلام جمهورية حقيقية (وكان الإسلام دين الديموقراطية)

وسهل اعتناق الإسلام لغير العرب بقوله : لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى

ويسر لغير المسلمين العيش برخاء فى بلاد الإسلام بقوله : الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله

ونظر فى أمر العائلة فرتب أمور الزواج ، والتناسل والتوارث ، من شأن المرأة

وعاد إلى الأمور المدنية فوضع قوانين وقضاة للنظر فى شئون الأفراد ولم يهمل مالية الدولة ؛ بل وضع لها سنناً لبيت المال

وكان للعالم من همه نصيب وافر ، فجعل الحكمة ضالة المؤمنين

وأوصاهم بأن يطلبوا العلم ولو فى الصين ، فكان لهذه الرجعة شىء

عظيم فى اقتباس المسلمين العلم من كل أبوابه وازدهاره فى أيامهم أفلا يكون الذى فعل كل هذا أعظم رجل ظهر فى العالم ؟

« نقلاً عن مجلة المنار »

***

وختاماً أقول : اللَّهم إنَّا نسألك أن توفق جميع المسلمين إلى الاعتصام بهدى هذا النبى الأمين ، وأن تصلح لهم أمور الدنيا والدين ، إنك على ماتشاء قدير ، وبالإجابة جدير ؟

السيد على فكرى

ابن المرحوم

السيد محمد عبد الله

الحكيم

منظومة

فى ذكر الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام

للشيخ محمد الدمنهورى من علماء القرن الثالث عشر طبع مصر سنة ١٣٠٦

« ألا إن إيماناً برسل تحتما ... وهم آدم إدريس نوح على الولا »
« وهود وصالح لوط مع إبراهيم أتى ... كذا نجله إسماعيل إسحاق فضلا »
« و يعقوب يوسف ثم يتلو شعيبهم ... وهارون مع موسى وداود ذو العلا »
« سليمان أيوب وذو الكفل يونس ... والياس أيضا واليسع ذاك فاعقلا »
« كذا زكريا ثم يحيى غلامه ... وعيسى وطه خاتماً قد تكملا »
« وقد تم نظمى جمع رسل مرتباً ... لهم حسب إرسال كما قاله الملا »
« عليهم صلاة الله ثم سلامه ... يدومان مادام الأراضى وما علا »

انتهى بحمد الله ومعونته طبع الجزء الثانى من قصص الأنبياء فى يوم الخميس ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٤ — ١ مارس سنة ١٩٤٥

التقاريظ

١ — كلمة فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان

عميد كلية أصول الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد المجيد اللبان إلى حضرة الأستاذ المحترم على أفندى فكرى الأمين الأول بدار الكتب الملكية المصرية

السلام عليكم ورحمة الله وبعد فأقدم لك خالص التحية والشكر

قد وصلتنى هديتكم وإنها لمن خير ما يهدى . كتاب كريم . هو أحسن القصص ، جادت به قريحتك الصائبة ودبجه يراعك، فى بلاغة ولباقة ، يخاطب الأرواح بسير الصالحين فيضىء أمامها سبيل الرشاد ، ويصور لها القدوة الحسنة بتاريخ الأنبياء والمرسلين ، وأئمة المسلمين ، وفضليات المؤمنات ، فيهدى النفوس ويثبت الأفئدة على خُلق المؤمن الكامل

فأهنيك بعملك الصالح . وأسأل الله لك دوام التوفيق فى كل الشئون

٣ / ١٢ / ١٩٣٤ وتقبل احترامى ؟ عبد المجيد

٢ - أحسن القصص - قصص الأنبياء

لمؤلفه الأستاذ على فكرى الأمين الأول لدار الكتب المصرية

وأظن القارىء ليس فى حاجة لأن نبيّن له حقيقة هذه الشخصية البارزة التى تنادى عنها آثارها : وحسب المرء أن تدل عليه صنائعه : وقيمة كل الناس ما يحسنونه

ولا أدلّ على الأستاذ على فكرى من نبرات قلمه ، ونتيجة بحثه ، التى يرسلها للناس محاضرات، ومقالات ضافية أبحاثاً اجتماعية، وشؤوناً واقعية، يبين فيها مِمَ نجمت علل المجتمع وأمراضه ، وكيف نستأصل شأفتها ؟

و إليك ما يغدقه على (الإسلام) تباعاً من أفكاره الناضجة التى يبعثها شعاعاً يستبين به القارىء كيف يأتى البيوت من أبوابها ؟ ولا أدلّ عليه كذلك من مؤلفاته التى هى رسول عقله ، ووافد لبه ، وخلاصة اختياره

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره

ولا أبدع فى مؤلفاته من كتابه (أحسن القصص) فإنه قد شاده من أصفى الموارد ، وأوثق المصادر وذكر أخبار كل نبى وحواره مع قومه ، مع تفسير آى التنزيل الحكيم التى وردت فى شأن كل نبى

ولما كان مقصده الخير والنفع العام لم يغل من ثمنه ، ونتصح لكل شغوف بحب الاستطلاع أن يغتنم اقتناء هذا الكتاب

مجلة الإسلام

٣ - أحسن القصص - قصص الأنبياء

من يعلم ما فطر عليه أخى وزميلى وصديقى العزيز الأستاذ على فكرى الأمين الأول لدار الكتب المصرية ورئيس المغيرين بها من الخلق الكريم، والأدب السليم لا يعجب أن يتجلى آثار خلقه وأدبه بقلمه على صفحات كتبه، التى يخرجها من آن لآن.

وقد شبَّ منذ صباه ميالاً إلى إخراج المؤلفات العلمية والأدبية وخصوصاً ما يتعلق بتربية الناشئة، تربية خُلقية، دينية اجتماعية، مما كان له عظيم الأثر فى نفوس الآباء ورجال التعليم فى كل قطر ومصر

وبين يدى الآن، وأنا أكتب هذه السطور كتابه الأخير أحسن القصص الذى تفضل فأهدى إلىَّ الجزء الأول منه، ويشمل قصص الأنبياء مقتبساً من القرآن الكريم بطريق مختصرة جامعة، وبأسلوب طلى رائع جذاب، وهذه القصص هى قصص أنباء محبوكة الحوادث، ذات مفاجآت رائعة، شاملة لجميع عناصر القصة التى أصبحت اليوم فناً يتباهى به كتاب الغرب، ويقلدهم فيه أدباء الشرق، وهو من مجد أدبهم الموروث

وهى سيَر ذات مواعظ وعبر، ثم هى المثل العليا لمن شاء نباهة الذكر وخلود الأثر، ثم هى مفتاح حفظ القرآن، المهذب بطبيعته لأساليب البيان، وتقويم النطق باللسان، ومن هذا يتبين مقدار فائدة هذا العمل الجليل الذى قام به الاستاذ على فكرى لدينه ووطنه وأمته، أحسن الله جزاءه بما فعل، وأثاب الله أبناء السيد عيسى البابى بما يقومون به من نشر أمهات الكتب فى الدين والعلم والأدب ؟

محمد الهراوى (رحمه الله)

٤ - قصص الأنبياء

للأستاذ على فكرى الأمين الأول لدار الكتب ورئيس المغيرين فيها عناية خاصة بتدوين الكتب النافعة للأحداث والناشئين

وقد سبق غيره من الكاتبين فى وضع هذه الكتب ، ومنها كتاباه : تربية البنين ، وتربية البنات

نشر منذ أشهر الجزء الأول من كتابه (قصص الأنبياء) وأهدى إلينا اليوم الجزء الثانى من هذا الكتاب ، وفيه سير أولى العزم من الرسل وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد « عليهم الصلاة والسلام »

وقد خصص نصف الكتاب للأنبياء الأربعة الأولين والنصف الآخر للسيرة النبوة المحمدية

فأنت تجد فى هذا الجزء وعدد صفحاته ٣١٢ صفحة متوسطة مايغنيك عن الكتب ، ويسهل لأبنائك تعرف تاريخ الأنبياء . فإن لم يكتف بهذه السير الموجزة فإن قصصها يدفعه إلى طلب المطولات فى كتبها

والكتاب مطبوع طبعاً أنيقاً على ورق صقيل ويطلب من ناشريه عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

الأهرام فى ١٨ / ٥ / ١٩٣٤

٥ — تخليداً لذكرى صديقى المرحوم محمود بك صدقى رئيس قلم النقض والإبرام سابقاً ، والمراقب العام لجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية ، أردت أن أنشرهنا نص الخطابين الآتيين المرسلين إلىّ بشأن كتاب (أحسن القصص) .

١ — بسم الله الرحمن الرحيم

من محمود صدقى . إلى الحسيب النسيب . الأستاذ السيد على فكرى بك الأمين الأول لدار الكتب المصرية الملكية ورئيس المغيرين . حفظه الله . آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ، فإنى تشرفت بهديتكم الثمينة الجزء الأول . الذى يشمل قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والمطبوع تحت عنوان « أحسن القصص » وقد قبلته ووضعته فوق رأسى إجلالاً وتعظيماً لما حواه من الآيات البيِّنات . والحكم الغالية . والدرر الثمينة والمعانى الجزلة . والألفاظ الرائقة . ولقد أجدتَ . وأبدعتَ . مع سهولة فى اللفظ . ومتانة فى التركيب . وتوخٍ للحقيقة . وبُعدٍ عن الغُلُوّ . وقد أتيت بكتابك العُجب العجاب . من السهولة والانسجام . ورائع الحكم . ودقيق الشعور والوجدان . فجزاك الله عن الإنسانية . وعن الدين . خيراً

وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى . أن يُثيبك على هذا المجهود العلمى النافع العظيم . وأن يمدّ فى أجلك . ويبارك فى حياتك . ويوفقك لما يرضاه وترضاه . حتى تخدم العلم . بإظهار نفائسه الكريمة . ودرره الثمينة . إن الله

على كل شيء قدير . ونحن فى انتظار (الجزء الثانى) من هذه القصص الحسنة . للرجوع إليها فى وقت الحاجة . وما أحوجنا إليها فى الوعظ والإرشاد

الأحد ٢٦ ذى القعدة ١٣٥٢ — المخلص

١٢ مارس سنة ١٩٣٢ — محمود صدقى

رئيس قلم النقض والإبرام سابقاً والمراقب العام لجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية

٢

سيدى الأستاذ على فكرى أمين أول دار الكتب الملكية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : وبعد . فكنت مسافراً وحضرت منذ يومين واستلمت كتاب قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (الجزء الثانى الخاص بأولى العزم من الرسل عليهم السلام) . وقرأته . وجال بخاطرى بعد الفراغ من قراءته أن أكتب إليكم مايأتى :

إن القلوب الطيبة تُلقى فيها علوم ربانية . فلا يدرى العبدُ كيف جاءت ولا من أين وصلت إليه ؟ لأن تربتها خلقت مستعدة لقبول حقائق المعلومات . وهى درجة المخلصين فى أعمالهم . الصادقين فى أقوالهم . المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى نشر الفضيلة ومكارم الأخلاق (كصديقنا الحميم الأستاذ على بك فكرى) فقلبه الطاهر وصل إلى حقائق هذه الكماليات . فينظر بنور الإيمان . ماتحتاج إليه الأمة ؛ بل العالم الإسلامى ، من نشر العلم . وبث

الفضيلة ، حتى وصلت ياسيدى الأستاذ . بكتبك النفيسة . إلى الإجلال والتعظيم من أعماق القلوب . وخصوصاً هذين الكتابين العظيمين (قصص الأنبياء)

فإلى الله نترك مثوبتك . وإلى الله نرجو أن يزيد فى توفيقك لنشر العلم الصحيح ، كما ترغب ، وأن يمُنَّ عليك بالصحة والعافية والغناء دنيا وأخرى .

ومن القلب من يصل (أعنى الإنسان) إلى درجة العلم والكماليات بالتعلم والجد والاجتهاد . فما بالك ياصديقى العزيز . وأنت قد جمعت بين الدرجتين علماً وإخلاصاً . إلهاماً وتوفيقاً . ولقد قال الله تعالى (الذِى عَلَّمَ بالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ) فالقلم ليس كقلمنا الذى به نكتب ؛ لكن هو قلم القدرة . ينقش على قلوب المخلصين الإلهامات الطيبة فتقول قولاً يوافق الحقيقة . فهنيئاً لك بنفسك ، وهنيئاً للأمة بك ، وهنيئاً للعلم الذى تنشره والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

القاهرة فى ١٧ صفر سنة ١٣٥٣ — المخلص

٣٠ مايو سنة ١٩٣٢ — محمود صدقى

مراقب عام جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الثانية
٥	مقدمة الطبعة الثالثة
٧	قصة سيدنا نوح عليه السلام
١٨	صفات سيدنا نوح عليه السلام
٢١	قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام
٢٥	مجادلة إبراهيم لأبيه وقومه
٣٠	محاورة إبراهيم لأبيه ونصحه
٣٣	تبرؤ إبراهيم من أبيه لكفره
٣٤	مجادلة إبراهيم لقومه
٣٦	مجادلة أخرى لإبراهيم مع أبيه وقومه
٣٨	رحلة إبراهيم إلى فلسطين ثم إلى مصر
٤٠	بيان الثلاث كذبات التى نسبت لإبراهيم
٤١	محاجة إبراهيم للنمروذ
٤٢	إبراهيم والملائكة وتبشيره بإسحٰق
٤٤	سؤال إبراهيم لربه رؤية إحياء الموتى
٤٥	إبراهيم أسوة حسنة للمؤمنين
٤٧	العبرة فى قصة إبراهيم
٥٠	قصة موسى وهارون عليهما السلام
٥١	ولادة موسى وإرضاعه
٥٥	تربية موسى فى بيت فرعون
«	خروج موسى من مصر إلى أرض مدين وسببه
٥٩	دخول موسى أرض مدين ونزوله بها
٦٢	زواج موسى بإحدى الابنتين

الصفحة	الموضوع
٦٤	خروج موسى من مدين إلى مصر بأهله وما لاقاه من الشدة
٦٧	معجزتا العصا واليد
٦٨	عودة موسى إلى مصر ودعوته لفرعون إلى توحيد الله
٧٢	تذكير فرعون لموسى بتربيته وفضله عليه
٧٣	محاجة موسى لفرعون
٧٧	طلب فرعون المبارزة من موسى مع السحرة
٨٠	انتصار موسى واعتراف السحرة بنبوته ونبوة أخيه هارون
٨٢	تمادى فرعون وقومه وإصرارهم على الكفر
٨٤	إيمان طائفة من بنى إسرائيل بموسى ونصحه لهم
٨٥	وحى الله إلى موسى وأخيه باتخاذ بيوتهما بمصر مساجد
٨٦	الدليل على نبوة موسى
٨٨	فرعون يدعى الألوهية ويأمر ببناء صرح ليصعد به السماء
٨٩	الائتمار بموسى لقتله ودفاع مؤمن عنه
٩٢	تمادى قوم فرعون فى غيهم
٩٣	فرعون يستخف بموسى ويباهى بملكه وثروته
٩٥	الآيات التى أرسلها الله تعالى على فرعون وقومه لما كذبوا موسى
٩٩	خروج موسى مع بنى إسرائيل من مصر
«	نجاة موسى وقومه وغرق فرعون وجنوده
١٠١	حال بنى إسرائيل مع موسى
١٠٥	ذهاب موسى لميقات ربه
١٠٦	مناجاة موسى لربه

الصفحة	الموضوع
١٠٧	نزول التوراة على موسى
١٠٩	اتخاذ بنى إسرائيل العجل إلهاً يعبدونه
١١٢	توبيخ الله لهم على عبادة العجل
١١٩	توبة بنى إسرائيل عن عبادة العجل
١٢٠	أمر الله بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وعصيانهم موسى
١٢٣	التيه الذى كتبه الله على بنى إسرائيل أربعين سنة
«	ذكر القرية التى مسخ الله أهلها بعد وانهم فى السبت وجعلهم قردة
١٢٦	معجزة موسى فى مسألة البقرة
١٢٨	إيذاء بنى إسرائيل لموسى
١٢٩	قصة موسى مع العبد الصالح (الخضر)

الصفحة	الموضوع
١٣٢	موت موسى وهارون وثناء الله عليهما
١٣٣	العبرة من قصة موسى وهارون
١٣٤	قصة سيدنا عيسى بن مريم
«	تبشير مريم بعيسى عليه السلام
١٣٦	ولادة عيسى عليه السلام
١٣٩	مثل عيسى كمثل آدم
١٤٠	ذهاب مريم والمسيح عيسى إلى مصر مع ابن عمها يوسف النجار
١٤١	نبوة المسيح عيسى ورسالته
١٤٣	معجزات عيسى عليه السلام
١٤٥	إقامة الحجة على مَن كفر وادعى أن المسيح هو الله وابن الله وثالث ثلاثة
١٥٤	الحواريون أعوان وأنصار عيسى

الصفحة	الموضوع
١٥٦	آراء بعض المفسرين فى رفع عيسى إلى السماء والحكم بين المختلفين فى ذلك
١٥٧	معجزة نزول المائدة
١٥٩	اعتراف عيسى بعدم اتخاذه وأمه إلهين
١٦٢	خاتمة المسيح عليه السلام وماقيل بشأن قتله وصلبه
١٦٦	محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وخاتم النبيين
«	نسبه الشريف من جهة أبيه
١٦٧	نسبه الشريف من جهة أمه
١٦٨	أدوار حياته صلى الله عليه وسلم
«	١ — الدور الأول من ولادته إلى النبوة
«	ميلاده
١٧٠	العجائب التى ظهرت يوم ولادته
١٧٢	الاحتفال بمولد النبى عليه الصلاة والسلام
١٧٣	تسميته صلى الله عليه وسلم محمداً
١٧٤	رضاعه وفطامه وما حصل فيهما من المعجزات
١٧٦	حادثة شق الصدر
١٧٧	وفاة والدته وكفالة جده وعمه له
١٧٨	نشأته وكسبه من يده وثمرة عمله
١٧٩	تأديب الله له وحسن خُلقه
«	رحلته الأولى إلى الشام
١٨١	حرب الفجار
«	رحلته الثانية إلى الشام
١٨٢	زواجه من السيدة خديجة
١٨٤	بناء البيت الحرام
١٨٦	سيرته فى قومه قبل البعثة
«	بغضه للوثنية من أول حياته
١٨٧	تعبده بغار حِراء

الصفحة	الموضوع
١٨٨	تبشير التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم
»	تبشير الإنجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم
١٨٩	٢ الدور الثانى من النبوة إلى الهجرة
١٨٩	نزول الوحى و بدء النبوة
١٩٠	كيف كان بدء الوحى ؟
١٩٢	فترة الوحى - عود الوحى
١٩٣	الرد على منكرى الوحى مفاماً
١٩٤	إثبات الوحى المحمدى
١٩٦	بيان أن الوحى كان للأنبياء عامة
١٩٧	الآيات الدالة على صدق نبوته و إثبات رسالته ودعوته للناس عامة
٢٠٢	الأمر بتبليغ الرسالة
٢٠٤	قيامه بتبليغ الرسالة والدعوة

الصفحة	الموضوع
٢٠٤	الدعوة سراً وأول من أسلم
٢٠٦	الدعوة جهراً
٢١٠	دعوته سلمية أساسها الدليل والبرهان
٢١٣	معارضة العرب لقبول دعوته ومعاداتهم له وحقدهم عليه
٢١٨	مجادلة العرب ومحاجتهم للرسول عليه السلام
٢٢٣	الاحتجاج على المشركين وتحدى الرسل للعرب بالقرآن
٢٢٦	عجز العرب عن معارضة القرآن
٢٢٨	الأذى وما لقيه النبى فى سبيل الدعوة
٢٣١	حماية عمه أبى طالب له والسيدة خديجة زوجه
٢٣٢	مكثه بمكة عشر سنوات على هذه الحال

الصفحة	الموضوع
٢٣٢	مطالب كفار قريش
٢٣٨	استهزاء المشركين به
٢٣٩	الهجرة الأولى إلى الحبشة
٢٤٠	الهجرة الثانية إلى الحبشة
٢٤١	وفد نجران
٢٤٣	وفاة زوجه السيدة خديجة وعمه
٢٤٣	هجرة الطائف
٢٤٦	الإسراء والمعراج وفرض الصلوات
٢٤٧	عرض نفسه على القبائل فى موسم الحج
٢٤٨	قدوم كثير من أهل المدية إلى مكة ومعاهدتهم للرسول
٢٥٠	٣ -- الدور الثالث من الهجرة إلى الوفاة
«	تآمر المشركين على قتله
٢٥١	هجرته مع أبى بكر الصديق
٢٥٤	وصوله إلى المدينة المنورة
٢٥٦	المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين
«	مبدأ التاريخ الإسلامى وشرع الأذان للصلاة
٢٥٧	يهود المدينة
٢٦١	المنافقون المستهزئون
٢٦٣	معاهدة اليهود لرسول الله
٢٦٤	الجهاد فى سبيل الله و إعلاء كلمة الحق ومشروعية القتال
٢٦٥	غزواته صلى الله عليه وسلم
٢٦٦	دعوته الملوك إلى الإسلام
٢٦٨	حجة الوداع
٢٦٩	نزول ختام القرآن
«	مرض الرسول عليه السلام
٢٧٠	وفاته صلى الله عليه وسلم
٢٧٢	زوجاته « «
٢٧٣	سراريه « «
«	أولاده « «

الصفحة	الموضوع
٢٧٤	معجزاته عليه الصلاة والسلام
	المعجزة العلمية الكبرى
	الخالدة (القرآن)
٢٧٦	بعض الآيات التى وردت
	فى نزول القرآن على محمد
	صلى الله عليه وسلم
٢٨٢	المعجزات الكونية
٢٨٧	شمائله عليه الصلاة والسلام
	١ — كرم خلقه
٢٨٨	٢ — أمانته وصدقه
٢٨٩	٣ — تواضعه ٤ — وقاره
٢٩٠	٥ — جوده وسخاؤه
٢٩١	٦ — حسن معاشرته
٢٩٣	٧ — حسن سياسته
٢٩٦	٨ — شجاعته
«	٩ — صبره وثباته وصدق
	عزيمته
٢٩٧	١٠ — شفقته ورأفته
٢٩٧	١١ — حلمه وعفوه
٢٩٨	١٢ — حسن معاملته
٢٩٩	صفاته الخلقية
٣٠٠	كلام أم مَعْبد تصف النبى
٣٠٤	محاضرة دينية فى خلاصة السيرة
	المحمدية للمؤلف
٣٣٩	الخاتمة (أعظم رجل فى العالم)
٣٤٢	منظومة فى ذكر الأنبياء
	جميعاً عليهم الصلاة والسلام
٣٤٣	تقاريظ العلماء والكتاب الأفاضل
	للكتاب

(تم طبع الكتاب والحمد لله أولاً وآخراً)

فى يوم السبت ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ — ١٨ مارس سنة ١٩٥٠

فكرى ،على
احسن القصص
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01010595

DATE DUE

JAFET LIB.
11 APR 2002
Circulation Dept.